

الغرب والإسلام
أين الخطأ؟.. وأين الصواب؟؟

الطبعة الأولى
١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م



شارع الفتاح - أبراج عثمان أمام المريلا ند - روكسى - القاهرة
تليفون وفاكس: ٤٥٤٤٤٦٧ - ٢٥٦٥٩٣٩ - تليفون ٤٥٣٦٢٤٨
Email: < shoroukintl @ hotmail. com >
< shoroukintl @ yahoo.com >

دكتور محمد عمارة

الغرب والإسلام

أين الخطأ؟.. وأين الصواب؟؟

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨].

﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤].
 ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُفْقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].
 ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢].

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

تمهيد..

العداء الغربى للإسلام.. لماذا؟؟

من بين المليارات الستة، التى هى تعداد البشرية اليوم، يبلغ تعداد المسلمين قرابة المليار ونصف المليار.. أى قرابة ربع البشرية.. وفيهم أعلى نسبة للخصوبة والتوالد، الأمر الذى يرشح نسبتهم إلى سكان العالم للزيادة باطراد..

والعالم الإسلامى، الذى تعيش فيه الأغلبية الساحقة للمسلمين، يمثل وطنًا مترابط الأوصال، وسهل الاتصال، تبلغ مساحته خمسة وثلاثين مليونًا من الكيلومترات المربعة.

وترابط أقاليم هذا العالم الإسلامى قد أتاح التفاعل الثقافى، والحضارى بين شعوبه، حتى قبل التقدم الحالى فى وسائل الاتصال، وهو يتيح - فى ظل ثورة وسائل الاتصال - المزيد من الترابط بين أمة الإسلام.. وذلك فضلاً عن أن تطلع شعوب وأقاليم هذا العالم الإسلامى لمزيد من الترابط والتضامن والاتحاد، ليس مجرد حلم مستقبلى، وجزء من الظاهرة المعاصرة نحو التكتلات الإقليمية والثقافية والاقتصادية، وإنما هو - فوق ذلك - إحياء وتجديد للترابط الأسمى الذى عرفه هذا العالم، فى ظل الخلافة الإسلامية، لأكثر من عشرة قرون، كانت فيها هذه الأقاليم والدول والإمارات كيانات متميزة فى ظل الوحدة الجامعة لدار الإسلام ولأمة الإسلام..

فى ظل هذا التاريخ الطويل، كان العالم الإسلامى هو «العالم الأول» على ظهر هذا الكوكب، بينما لا يتعدى عمر الغرب - كعالم أول - قرنين من الزمان! ..

وفى ظل ذلك التاريخ الإسلامى، بنى المسلمون الحضارة الإسلامية الزاهرة، التى تفاعلت مع كل الموارىث الحضارية القديمة، وأحيت علوم القدماء - فراعنة .. وفُرسًا .. وهنودًا .. وإغريقًا - ثم أسهمت فى التطوير الهائل لهذه العلوم، وأضافت إليها الإبداعات الجديدة .. ثم كانت مصدرًا رئيسيًا فى النهضة الأوروبية الحديثة، ومنازة سطعت أضواؤها على مختلف الحضارات.

ولقد تفردت هذه الحضارة الإسلامية بكونها الحضارة العالمية التى تبلورت وازدهرت فى ظل المرجعية الدينية الإسلامية، بل وكأثر من آثار هذه المرجعية الدينية، فلم يكن نهوضها وازدهارها - كغيرها - على أنقاض الدين .. وبعد الثورة على الدين! ..

ولقد بنى المسلمون هذه الحضارة المتميزة، مشركين معهم فى هذا البناء الحضارى كل الأقليات الدينية والثقافية، التى احتضنها الإسلام، وحررها من القهر الدينى والحضارى، فأصبحت هذه الحضارة الإسلامية هى حضارة الأمة، على اختلاف مللها ونحلها ولغاتها ومذاهبها، الأمر الذى تفردت به هذه الحضارة الإسلامية بين الحضارات .. عندما أصبحت «إسلاميتها» جامعة للأقليات، وليست طاردة لهذه الأقليات ..

كذلك، بنى المسلمون هذه الحضارة الإسلامية، وصنعوا التاريخ الإسلامى، فى ظل أشرس التحديات .. فلقد حررت فتوحاتهم الإسلامية الأولى الشرق من قهر القوى الاستعمارية القديمة - الفرس الأكاسرة .. والروم البيزنطيين - ثم قهر المسلمون تحديات الحروب الصليبية، التى دامت قرنين من الزمان [٤٨٩ - ٦٩٠ هـ، ١٠٩٦ - ١٢٩١ م] .. وعلى أيديهم تمت الهزيمة الأولى للمغول، الذين أبادوا الأخضر واليابس فى كثير من الدول والشعوب .. وفى العصر الحديث، هزموا «بونابرت» [١٧٦٩ - ١٨٢١ م] الذى دوّخ أوروبا .. ثم كانت

بلاد الشرق الإسلامى المقبرة التى دُفنت فيها أحلام الإمبراطوريات الاستعمارية الأوروبية - الإنجليزية . . والفرنسية . . والهولندية . . والبرتغالية - . . واليوم، يصنع المسلمون تاريخًا من الصمود والمقاومة لأحلام الإمبريالية الأمريكية، وشريكها الصهيونية، ساعين إلى إلحاقهما بمصير الغزاة والمستكبرين! . .

* * *

وإذا كان المسلمون يمثلون - اليوم - نحو ربع تعداد البشرية . . فإنهم يمثلون نصف المتدينين بالديانات السماوية - والنصف الآخر تمثله الديانات الوضعية فى آسيا- . .

لكن المقارنة بين الإسلام وبين الديانات السماوية الأخرى تشير إلى أن الإسلام - فى الحقيقة والواقع - إنما يمثل الأكثرية العظمى للمتدينين بالدين السماوى والشرعية الإلهية، وذلك بشهادة العلماء والثقة من الباحثين الغربيين، الذين قارنوا بين صمود الإسلام وحيويته وصحته وإحيائه فى العالم الإسلامى، وامتداداته خارج عالم الإسلام، وبين تراجع النصرانية وانحسار التدين بها، فى إطار الحضارة المسيحية الغربية، التى هزمت علمانيّتها مسيحيتها، وهمّشتها، وأصابتها بالإعياء والذبول . . حتى لقد غدت المسيحية - بالمعنى الدينى الحق - أقلية فى الغرب «المسيحي»: . . وغدا الغرب - الذى ظل قرونًا قلب العالم المسيحي - فراغًا من المسيحية، بالمعنى الدينى الصحيح والصريح! . .

يشهد على ذلك، القس الألمانى - عالم الاجتماع - «جوتفرايد كونزلن»، فيقول:

«لقد مثّلت العلمانية: تراجع السلطة المسيحية.. وضياح أهميتها الدينية.. وتحول معتقدات المسيحية إلى مفاهيم دنيوية.. والفصل النهائى بين المعتقدات الدينية والحقوق المدنية.. وسيادة مبدأ: دين بلا سياسة، وسياسة بلا دين..»

لقد نبعت العلمانية من التنوير الغربى.. وجاءت ثمرة لصراع العقل مع الدين، وانتصاره عليه، باعتباره مجرد أثر لحقبة من حقبة التاريخ البشرى، يتلاشى باطراد فى مسار التطور الإنسانى..

ومن نتائج العلمانية: فقدان المسيحية لأهميتها فقداناً كاملاً.. وزوال أهمية الدين كسلطة عامة لإضفاء الشرعية على القانون، والنظام، والسياسة، والتربية والتعليم.. بل وزوال أهميته أيضاً كقوة موجهة فيما يتعلق بأسلوب الحياة الخاص للسواد الأعظم من الناس، وللحياة بشكل عام.. فسلطة الدولة، وليست الحقيقة، هي التي تضع القانون.. وهي التي تمنح الحرية الدينية..

ولقد قدمت العلمانيةُ الحداثة باعتبارها ديناً حل محل الدين المسيحي، يفهم الوجود بقوى دنيوية، هي العقل والعلم، لكن.. وبعد تلاشى المسيحية.. سرعان ما عجزت العلمانية عن الإجابة عن أسئلة الإنسان، التي كان الدين يقدم لها الإجابات... فالقناعات العقلية أصبحت مفتقرة إلى اليقين.. وغدت الحداثة العلمانية غير واثقة بنفسها، بل وتفككتُ أنساقها - العقلية والعلمية - عديمة ما بعد الحداثة.. فدخلت الثقافة العلمانية في أزمة، بعد أن أدخلت الدين المسيحي في أزمة.. فالإنهاك الذي أصاب المسيحية أعقبه إعياء أصاب كل العصر العلماني الحديث. وتحققت نبوءة «نيتشه» [١٨٤٤ - ١٩٠٠م] عن «إفراز التطور الثقافي الغربي لأناس يفقدون (نجمهم) الذي فوقهم، ويحيون حياة تافهة، ذات بُعد واحد، لا يعرف الواحد منهم شيئاً خارج نطاقه».. وبعبارة «ماكس فيبر» [١٨٦٤ - ١٩٢٠م]: «لقد أصبح هناك أخصائيون لا روح لهم، وعلماء لا قلوب لهم»..!

ولأن الاهتمام الإنساني بالدين لم يتلاش، بل تزايد.. وفي ظل انحصار المسيحية، انفتح باب أوروبا لضروب من الروحانيات وخليط من العقائد الدينية لا علاقة لها بالمسيحية ولا بالكنيسة - من التنجيم.. إلى عبادة القوى الخفية.. والخرافة.. والاعتقاد بالأشباح.. وطقوس الهنود الحمر.. وروحانيات الديانات الآسيوية.. والإسلام، الذي أخذ يحقق نجاحاً متزايداً في المجتمعات الغربية..

لقد أزلت العلمانية السيادة الثقافية للمسيحية عن أوروبا.. ثم عجزت عن تحقيق سيادة دينها العلماني على الإنسان الأوروبي، عندما أصبح معبدها العلمى

عتيقًا!...».. ففقد الناس «النجم» الذى كانوا به يهتدون: وعد الخلاص المسيحى.. ثم وعد الخلاص العلمانى! (١).

هذه شهادة الخبير الألمانى - فى الاجتماع وفى اللاهوت - القس «جوتفرايد كونزلن» على المآزق الذى تعيشه المسيحية فى الغرب.. لقد همّشتها العلمانية.. ثم دخلت العلمانية مرحلة العجز والإفلاس، فغدت المجتمعات الغربية فضاء مفتوحًا للعقائد الأخرى، الأمر الذى يهدد الغرب بالتحول عن كونه قلب العالم المسيحى - كما حدث من قبل للمسيحية الشرقية، بعد ظهور الإسلام، عندما أصبح الشرق قلبًا للعالم الإسلامى، بعد أن كان قلب العالم المسيحى القديم!..

إن الإيمان - فى أوروبا المسيحية - بوجود إله خالق لهذا الكون، لا يتعدى ١٤٪.. والذين يذهبون إلى الكنيسة لا يتجاوزون ١٠٪.. وهم يذهبون إلى كنائس قد خانت مسيحيتها، فغدت «أندية» تجتذب روادها بحبال لا علاقة لها بأى دين من الأديان - بالحفلات الراقصة.. والموسيقى الصاخبة.. بل وفتح الأبواب لزواج الشواذ!..

حتى لقد تنبأ البعض بزيادة عدد المسلمين فى إنجلترا - بعد سنوات - على عدد الأنجليكانيين الملتزمين دينيًا!..

وهذه النصرانية الغربية تتوزعها ثلاث كنائس، لكل منها «قانون إيمان» خاص، يحتكر الخلاص لها وحدها!.. فهى - فى الحقيقة - ثلاثة أديان، بينما الإسلام دين واحد.. وحتى فى المذاهب - داخل الإسلام الواحد - فإن أهل السنة يبلغ تعدادهم أكثر من ٩٠٪ من أمة الإسلام..

وأمام هذا الذى أصاب، ويصيب النصرانية - بسبب العلمانية والعلمنة - من حق المسلمين أن يشعروا بالعزة؛ لأن العلمانية - التى حملها الاستعمار

الغربي في ركابه إلى الشرق الإسلامى - لم تحرز تقدماً يذكر، رغم دعم الاستعمار لها في الأوساط الإسلامية، على امتداد أكثر من قرنين من الزمان!.. بل قد زادت تحدياتها الإسلام قوةً وحيويةً وإحياءً، فأخذت الصحوة الإسلامية الحديثة والمعاصرة تؤكد على شمولية الإسلام للدين والدولة.. والدنيا والآخرة.. وعلى ضرورة إسلامية النهضة الحضارية.. وأسلمة العلوم الاجتماعية والإنسانية والفنون والآداب.. والاحتكام فى القانون إلى الشريعة الإسلامية، والقانون - الفقه - الإسلامى.. وذلك فضلاً عن منظومة القيم والأخلاق.. كما اندفعت جماهير المسلمين نحو الالتزام الدينى، وتحكيم معايير الحلال والحرام فى أنماط العيش والكسب، والإنفاق، وأساليب الحياة.. وغدت رايات الإسلام هى التى تظلل حركات التحرر الوطنى ومقاومة الاستعمار على امتداد عالم الإسلام..

فبينما يكتب كثيرون من علماء الغرب ومفكره عن «موت الغرب» - بعد أن أعلنت الحداثة الغربية «موت الإله»! - تمتلئ المكتبات بالكتابات التى تتحدث عن «يقظة الإسلام»، وعن «الصحوة الإسلامية».. و«المد الإسلامى»..

وإذا كنا قد قدمنا شهادة غربية على مأزق المسيحية -ومعها العلمانية- فى الغرب.. فإننا نقدم شهادة -غربية هى الأخرى- على مقاومة الإسلام للعلمانية، واستعصائه على العلمنة، وعلو نجمه فى سماء التدين بديانات السماء..

ففى مجلة «شئون دولية - International Affairs» - الصادرة فى «كمبريدج» - يناير سنة ١٩٩١م - «ملف» عن الإسلام، فيه دراستان عن «الإسلام والمسيحية» و«الإسلام والماركسية»، كتبهما اثنان من علماء الاجتماع: د. «إدوارد مورتيمر» ود. «إرنست جيلنر».. وفى هاتين الدراستين تعليل للحملة الغربية على الإسلام، يُرجع سبب هذه الحملة - التى تصاعدت عقب سقوط الشيوعية - إلى استعصاء الإسلام على العلمنة، الأمر الذى جعل ثقافته

صامدة أمام الثقافة الغربية التي تعيش مأزق المسيحية والعلمانية، ولا أدريه وتفكيكية وفوضوية وعدمية ما بعد الحداثة.. يقول هذان العالمان:

«لقد شعر الكثيرون بالحاجة إلى اكتشاف تهديد يحل محل التهديد السوقييتي.. وبالنسبة لهذا الغرض كان الإسلام جاهزاً في المتناول.. فالإسلام رافض لأي تمييز بين ما لله وما لقيصر.. وهو لا يسمح لمعتنقيه بأن يصبحوا مواطنين في دولة علمانية.. إنه استثناء مدهش وتام جداً من النظرية التي يعتنقها علماء الاجتماع، والتي تقول: إن المجتمع الصناعي والعلمي الحديث يُحلّ العلمنة محل الإيمان الديني.. فلم تتم أية علمنة في عالم الإسلام، وسيطرة هذا الدين على المؤمنين به هي سيطرة قوية، بل هي أقوى الآن مما كانت عليه من مائة سنة مضت.. إنه مقاوم للعلمنة في ظل مختلف النظم السياسية - راديكالية.. وتقليدية.. وبين بين -.. وعمليات الإصلاح الذاتي تتم في العالم الإسلامي باسم الإيمان الديني، وليس على أنقاض هذا الإيمان.. الأمر الذي مكن العالم الإسلامي من الإفلات من المعضلة التي جعلت مجتمعات أخرى ضحية للاضطراب والإذلال؛ بسبب إضفاء الغرب الطابع المثالي على نموذجيه في التحديث، الأمر الذي جعلها تقف منه موقف المحاكاة والتقليد..»

ذلك هو التفسير الأساسي لمقاومة الإسلام المرموقة للعلمنة.. ولأن الإسلام هو الثقافة الوحيدة القادرة على توجيه تحدٍّ فعلى وحقيقى للثقافة العلمانية الغربية [ثقافة الشك واللا أدريه.. ثقافة الأخصائيين الذين لا روح لهم والعلماء الذين لا قلوب لهم] كان الإسلام، من بين ثقافات الجنوب، الهدف المباشر للحملة الغربية الجديدة على الإسلام..!.

إذن.. فهذه الحملة الغربية الشرسة على الإسلام - بشهادة هذه الدراسات العلمية الغربية - ليست نابعة من عيوب جوهرية وحقيقية في الإسلام - كما يزعم البعض -.. ولا هي نابعة من الجهل بحقيقة الإسلام - كما يحسب كثير من المسلمين -.. وإنما هي نابعة - بشهادة هؤلاء العلماء الغربيين - من إفلاس المسيحية الغربية.. وإفلاس العلمانية الغربية، أى إفلاس «الدين

الكنسى» و«الدين الحداثى»، فى الغرب الحديث والمعاصر. . ومن فشل الغرب الاستعمارى فى إدخال الإسلام وأمته وعالمه إلى النفق العلمانى المظلم الذى دخل فيه الغرب، الأمر الذى جعل الكثيرين يتحدثون - ثقافياً. . ودينياً. . وديموجرافياً - عن «موت الغرب» و«صحوة الإسلام»! . .

تلك هى حقيقة الأسباب الموضوعية والجوهرية الكامنة وراء الهجمة الغربية على الإسلام، وهذا هو السبب فى شدة الضربات التى يحاول بها الغرب معالجة صحوة الإسلام. . وإلا فلو كان الإسلام هزياً لما استأهل هذا الضرب الشديد! . .

وهذه الحقيقة - التى شهد بها العلماء الغربيون - تدعو المسلمين إلى الاعتزاز بإسلامهم، ولكن دون غرور. . وتدعوهم إلى مواجهة هذه الهجمة على دينهم، ليس بهذه المحاولات البلهاء التى يريد أصحابها تزيين الإسلام بالمساحيق الغربية، كى يرضى عنه الغربيون. . وإنما إلى مواجهة هذه الهجمة بالكشف عن حقائق الإسلام، ليعلمها الذين لا يعلمون - فى الغرب وغير الغرب - ويكشف الدعاوى الكاذبة، التى تستر وتزييف الأسباب الحقيقية لهذه الهجمة الغربية على الإسلام. .

كذلك، يجب أن نكشف الزيف الذى تمارسه هذه الحملة على الإسلام، عندما يزعم أقطابها أنهم إنما يهاجمون «الأصولية الإسلامية»، ولا يهاجمون «الإسلام». . فسبر غور كتابات هؤلاء الكتاب الغربيين، إنما يكشف عن أن حديثهم، بل وتعريفهم «للأصولية الإسلامية» إنما هو التعريف «لحقيقة الإسلام»! . .

فالأصولية - فى المصطلح الإسلامى. . والفكر الإسلامى. . والتراث الإسلامى - هى الانطلاق من الأصول - أصول الدين. . وأصول الفقه - وهما علمان من أبرز علوم العقلانية الإسلامية. . العقلانية التى تفقه الأحكام،

وتفقه الواقع المعيش، ثم تعقد القران بين الفقهاء والقراءتين . . ومن ثم، فالأصولية الإسلامية هي على النقيض من «الأصولية المسيحية» و«الأصولية اليهودية»، اللتين مثلتا وتمثلان الجمود والحرفية والتقليد، ومعاداة العلم والعقل والتجديد. . والوقوف - ببلادة - عند ظواهر النصوص. .

والكتاب الغربيون، الذين يهاجمون الإسلام تحت غطاء مصطلح «الأصولية الإسلامية»، يكشفون هم أنفسهم عن هذه الحقيقة - حقيقة أن مقصدهم في الهجوم هو الإسلام - . . ويشهد بذلك الرئيس الأمريكى الأسبق «ريتشارد نيكسون» - وهو مفكر استراتيجى - عندما يتحدث عن الأصوليين الإسلاميين، الذين يدعو - نيكسون - الغرب - أمريكا وأوروبا الغربية والشرقية - إلى «الاتحاد لمواجهة خطرهم الداهم بسياسة واحدة» .

هؤلاء «الأصوليون الإسلاميون» - فى تعريف نيكسون. . وباعترافه -

«* هم المصممون على استرجاع الحضارة الإسلامية السابقة، عن طريق بعث الماضى..

* ويهدفون إلى تطبيق الشريعة الإسلامية..

* وينادون بأن الإسلام دين ودولة..

* وعلى الرغم من أنهم يتظرون إلى الماضى، فإنهم يتخذون منه هداية للمستقبل، فهم ليسوا محافظين، ولكنهم ثوار»!.. (٢).

وعلى هذا الدرب - فى تعريف «الأصولية الإسلامية» - يسير المفكر الاستراتيجى الأمريكى «فرانسيس فوكوياما»، والمفكر الاستراتيجى الأمريكى «صموئيل هنتنجتون»، اللذان يصفان الأصولية الإسلامية «بالفاشية»، وبأنها تشكل تحدياً أيديولوجياً هو فى بعض جوانبه أكثر أساسية من الخطر الذى شكلته الشيوعية»!.. ثم إذا بهذه الأصولية الإسلامية عندهما ليست كذلك إلا لأنها: «الإسلام، الذى هو الحضارة الرئيسية الوحيدة فى العالم التى يمكن الجدل

بأن لديها بعض المشاكل الأساسية مع الحداثة الأمريكية المسيطرة فى السياسة الدولية.. فالعالم الإسلامى يختلف عن غيره من الحضارات فى وجه واحد مهم. فهو وحده قد ولد تكراراً خلال الأعوام الأخيرة حركات أصولية مهمة، ترفض لا السياسات الغربية فحسب، وإنما المبدأ الأكثر أساسية للحداثة: الدولة العلمانية نفسها.. ومن ثم فإن الصراع الحالى ليس ببساطة معركة ضد الإرهاب.. ولكنه صراع ضد العقيدة الإسلامية، الأصولية - الفاشية الإسلامية - التى ترفض الاستهلاكية الغربية، والحداثة الغربية: والعلمانية الغربية، والمبدأ المسيحى: دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله - فصل الدين عن الدولة-»^(٣).

فالحرب الغربية المعلنة على ما يسمونه بـ«الأصولية الإسلامية»، هى - فى الجوهر والحقيقة - معلنة على حقيقة الإسلام، لا لشيء إلا لأنه المستعصى الأول - بل الوحيد - على العلمنة، أى على الذوبان فى النموذج الحداثى الغربى، والرافض - من ثم - للوقوف ذليلاً أمام هذا النموذج الغربى موقف التقليد والمحاكاة!.. وهو موقف إسلامى يجعل من التدين بالأصول الإسلامية طاقة إيمانية تفجر فى المسلم طاقات العزة والسيادة والغلب، فلا يرضى بالتبعية - السياسية.. والفكرية.. والاقتصادية.. والأمنية - للمركزية الغربية، والهيمنة الغربية... وهذا هو جوهر ما يخشاه الغرب ويحاربه الغربيون فى الإسلام!..

تلك هى الأسباب الحقيقية التى تشهد بها وتعلنها الشهادات الغربية.. للهجمة على الإسلام.. وهى أسباب تدعو المسلمين - وهم يخاطبون الغرب، ويقدمون إليه حقائق الإسلام - أن يتحدثوا من موقع العزة والاعتزاز بالإسلام - دونما تكبر أو غرور - .. وألا يقعوا فى خطأ - بل خطيئة - تقديم التنازلات التى تزيّف الإسلام، على أمل أن يرضى عنه هؤلاء الذين يعادونه، لأنهم يعرفونه، ويعرفون حقيقته، وليس بسبب جهلهم له، كما

يحسب بعض السطحين والجهلاء!.. وصدق الله العظيم: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

وحقيقة أخرى من حقائق هذه الهجمة الغربية على الإسلام، هي أن عدااء هؤلاء الذين يناصبون الإسلام العدااء، ليس لأن المسلمين يغيرون الغرب في الدين، ولا لأنهم يمارسون من الشعائر الدينية الإسلامية ما يخالف شعائر النصرانية الغربية.. فالديانات الوضعية، هي الأخرى، تغيير النصرانية الغربية في الشعائر والاعتقادات، ومع ذلك فإنها لا تحظى بعشر معشار ما يحظى به الإسلام من العدااء..

ذلك أن الذى يناصب الإسلام العدااء من الغربيين هم أولئك الذين يعرفون أنه ليس مجرد شعائر ومناسك وعبادات: ولا مجرد مالك لأقدم وأعرق الموارد الحضارية العالمية، وإنما هو، مع كل هذا وفوقه:

* «توحيد»، يجعل المؤمنين به يرفضون الخضوع لكل الطواغيت، وفى مقدمتها طاغوت الهيمنة الغربية وإمبريالياتها..

* و«مشروع نهضوى»، يعنى - عندما يوضع فى التطبيق - ليس فقط تحرير ضمائر المسلمين وعقولهم من الهيمنة الثقافية الغربية، وإنما - أيضاً - تحرير أوطان العالم الإسلامى من القواعد العسكرية الغربية.. وتحرير محيطات العالم الإسلامى وبحاره من الأساطيل العسكرية الغربية.. وتحرير سياسات حكومات العالم الإسلامى من التبعية للمركزية الغربية.. ومن ثم إعادة الأمة الإسلامية إلى مكانتها الطبيعية فى مقدمة الأمم والحضارات..

* والإسلام، مع ذلك وفوق ذلك، دعوة لتحرير ثروات العالم الإسلامى من استغلال الرأسمالية الغربية، المتوحشة.

إن العالم الإسلامى يمثل - فى الثروات -:

- «العالم الأول» فى البترول.. والغاز.. والمنجنيز.. والكروم..
والقصدير.. والبوكسيت.

وإذا كان مخزون البترول فى الولايات المتحدة الأمريكية وفى النرويج - بحر الشمال - لن يزيد عمره - مقارنةً بالإنتاج الحالى - على عشر سنوات.. وعمره فى كندا ثمانى سنوات.. فإن عمر هذا المخزون فى العالم الإسلامى سيجعل هذا العالم هو المصدر الوحيد للطاقة على النطاق العالمى، فى المستقبل من الزمان.. فعمر المخزون الإيرانى ٥٣ عامًا.. وعمر المخزون السعودى ٥٥ عامًا.. وعمر المخزون فى الإمارات العربية المتحدة ٧٥ عامًا.. وعمر المخزون فى الكويت ١١٦ عامًا.. أما فى العراق، فعمر المخزون النفطى ٥٢٦ عامًا!!..^(٤).

هذا غير بترول عالم الإسلام فى بحر قزوين.. وفى السودان ووسط أفريقيا..

تلك هى «كعكة الطاقة» التى تعض عليها الإمبريالية الأمريكية لتتحكم فى عالم القرن الواحد والعشرين!!..

- كما يمثل العالم الإسلامى - فى الثروات الخاضعة لاستغلال الشركات الغربية متعددة الجنسيات - يمثل العالم الثانى فى النحاس والفوسفات.

- والعالم الثالث فى الحديد..

- والعالم الخامس فى الرصاص..

- والعالم السابع فى الفحم.

- وفى العالم الإسلامى: أطول أنهار الدنيا.. وأقدم فلاح علم البشرية فن الزراعة.. والأرض الزراعية الصالحة لتكون سلة غذاء تحرر المليار ونصف المليار مستهلك من التبعية الدليلة للاستيراد والاستهلاك من الغرب.. كما أن فيه من

الشواطئ المترامية للبحار والأنهار والمحيطات ما يجعله مصدراً عظيماً للثروة السمكية . .

- وفي هذا العالم الإسلامى من الفوائض النقدية . . ومن مصادر التمويل للتنمية الاقتصادية ما يحقق الانعتاق من عبودية الديون الغربية ، التى رهنت وترهن اقتصادات وثروات المسلمين وإرادتهم وحریتهم وكرامتهم لدى مراكز الهيمنة الاقتصادية الغربية . . ويكفى أن الزكاة وحدها ، وخاصة «زكاة الركاز» التى تمثل ٢٠٪ من الثروات المركوزة فى الأرض - وأغلب ثروات العالم الإسلامى مركوزة فى الأرض - يمكن أن تتحول إلى صندوق تنموى يجعل تنميتنا بالحلال . . كما يجعلها مصدراً لتحررنا! . .

- كذلك ، يصدر هذا العالم الإسلامى إلى الشمال - الأوروبى والأمريكى - بأرخص الأسعار - ٤٠٪ من المعادن . . و ٣٥٪ من النفط . . و ٩٣٪ من القصدير . . و ٦٥٪ من الخشب . . و ٤٠٪ من القطن . . بينما يحرمه الغرب من التقنيات التى تحقق استقلاله الاقتصادى وتنميته المستقلة . . بل ويحرمه الآن - بعد أحداث ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١م فى أمريكا - من تعلم العلوم الدقيقة وتقنياتها . . بل وحتى من الدوريات العلمية ، كما صنع مع العراق طوال سنوات الحصار! . . وذلك لاغتيال العقل العلمى فى بلاد الإسلام! . . والحيلولة دون امتلاك المسلمين استقلالهم الاقتصادى . . وامتلاكهم لأسلحة الردع التى تحمى هذا الاستقلال! . .

وفى هذه الميادين - ميادين التحرير لثروات العالم الإسلامى - تكمن المقاصد العظمى للتحرير ، التى تتغياها الصحوۃ الإسلامية ، التى يسمونها «الأصولية التى تريد استرجاع الحضارة الإسلامية السابقة ، عن طريق بعث الماضى ، وتطبيق الشريعة الإسلامية ، والمناذاة بأن الإسلام دين ودولة ، واتخاذ الماضى الإسلامى هداية للمستقبل الإسلامى» .

لهذه الأسباب - الفكرية . . . والثقافية . . والاقتصادية - يتعرض الإسلام

لهذه الهجمة الغربية الشرسة والظالمة . . وليس بسبب الجهل به، أو لعيوب
كامنة فيه .

* * *

إن المشهد الاقتصادى العالمى، الذى تريد الرأسمالية الغربية المتوحشة الحفاظ
عليه، و تكريسه، معتبرة إياه «نهاية التاريخ» ! . . يقول:

- إن ٢٠٪ من سكان العالم - هم أبناء الشمال - يستأثرون بـ ٦٨٪ من
خيرات العالم . . بينما يعيش ٨٠٪ من البشرية - هم سكان الجنوب - على
فتات ١٤٪ من ثروة العالم! . .

- وإن ٢٢٥ فرداً من أبناء الشمال يملكون ما يوازي ملكية مليارين ونصف
المليار من أبناء الجنوب - أى نحو نصف البشرية! . .

- وإن ثلاثة أفراد فى أمريكا يملكون ما يساوى ملكية ٤٨ دولة عضواً فى
الأمم المتحدة - أى قرابة ثلث أعضاء الأمم المتحدة! . .

- وإن أكبر التجارات فى هذا المشهد الاقتصادى الغربى - الذى يعولونه -
هى تجارة السلاح والدمار . . تليها تجارة المخدرات . . تليها تجارة الدعارة! . .

- وإن الشركات الرأسمالية الغربية - متعددة الجنسيات، ومتعددة القارات -
التي تستنزف ثروات الجنوب - وفى القلب منه عالم الإسلام - هذه الشركات
تقترض الدولارات من بنوك «وول ستريت» - بنيويورك - بفائدة قدرها ٦٪
لتعيد إقراضها لدول الجنوب بفائدة تتراوح بين ٢٠٪ و ٥٠٪ . . فتمتص دماء
الشعوب، التي غدت صادراتها عاجزة عن سداد فوائد هذه الديون، ناهيك
عن أصول الديون! . .

- وإن تدنى القدرة الشرائية لـ ٨٠٪ من البشرية - سكان الجنوب - قد جعل
رعوس الأموال المالية الغربية، الباحثة عن الأرباح السريعة والفاحشة، تنصرف
بعيداً عن ميادين الإنتاج والخدمات، فتوظف ٩٧٪ من حجمها فى السمسرة

والمضاربات والمقامرات والمغامرات فى البورصات! . . الأمر الذى يحرم الإنتاج والخدمات من ثمرات رءوس الأموال هذه . . ويزيد من حدة البطالة والفقر فى عالم الجنوب - بل والشمال أيضاً - ويصيب اقتصاديات كثير من الدول بالهزات والكوارث والأزمات .

- وإن هذه الرأسمالية الغربية المهيمنة توظف ٩٠٪ من العقول العلمية - بشكل مباشر أو غير مباشر - فى صناعة السلاح والدمار ومتعلقاتها! . . (٥) .

ذلك هو المشهد الاقتصادى العالمى البائس، الذى يريدون - بمحاربة الإسلام - الحفاظ عليه، وتكريسه، وجعله «نهاية التاريخ» . . لأنهم يعلمون أن اليقظة الإسلامية . . التى يسمونها «الأصولية» - تسعى منذ نشأتها - فى القرن التاسع عشر، على يد جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ - ١٣١٤هـ - ١٨٣٨ - ١٨٩٧م] - إلى تحرير اقتصادات العالم الإسلامى من هذا الاستغلال الغربى . . وهى قد أعلنت - على لسان الأفغانى قبل مائة وخمسين عاماً: «أن غاية الجامعة الإسلامية الاقتصادية هى:

- ثروة المسلمين للمسلمين..

- وثمرات التجارة والصناعة فى جميع المعمور الإسلامى هى لهم، يتنعمون بها، وليست لنصارى الغرب يستنزفونها.

- ونفرض اليد من رءوس المال الغربية، والاستعاضة عنها برءوس مال إسلامية..

- وتحطيم نواجذ أوروبا، النواجذ العاضة على موارد الثروة الطبيعية فى بلاد المسلمين، وذلك بعدم تجديد الامتيازات فى الأرضين، والمعادن، والغابات، وقطُر الحديد، والجمارك. العقود التى ما دامت خارجة من أيدي العالم الإسلامى فسيظل عالة على الغرب»! (٦) .

فمنذ فجر الصحوة الإسلامية الحديثة - التى يسمونها «الأصولية» - كان تحرير ثروات العالم الإسلامى من الاستغلال الغربى هدفاً رئيسياً من أهدافها، أما

«الدروشة»، والوقوف عند التدين الشكلى، بإطالة اللحن، وتقصير الثياب، واستفراغ الطاقات والأوقات فى الجزئيات والثانويات.. فهو ما يسعد به ويتعاش مع هؤلاء الذين يشنون الحرب الصليبية على الإسلام؛ لأنهم يدركون المقاصد الحقيقية لصحوة الإسلام..

لكن..

لأن الغرب ليس كتلة واحدة ضماء.. وليس كل الغربيين ضالعين فى مشروع الهيمنة الغربية على العالم - والمظاهرات والاحتجاجات ضد العولمة.. وضد الحروب على العالم الإسلامى شواهد على ذلك..

ولأن إسلامنا يعلمنا العدالة التى تتنافى مع التعميم والإطلاق فى الأحكام.. فيتحدث قرآننا الكريم - مثلاً - عن أهل الكتاب فيميز بين فرقائهم وفرقهم ومذاهبهم، مستخدمًا صيغ ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [البقرة: ١٠٥] - ﴿كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [البقرة: ١٠٩] - ﴿طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران: ٦٩] - ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩].. وحتى فى حديث القرآن الكريم عن اليهود قتلة الأنبياء... الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء.. والذين هم أشد الناس عداوة للذين آمنوا.. والذين لعنهم الله لخروجهم عن شريعة موسى، عليه السلام، ولتحالفهم مع الوثنية العربية ضد التوحيد الإسلامى - حتى هؤلاء، لم يعمم القرآن الأحكام عليهم جميعًا، وإنما ميز بين فرقائهم، فقال: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْنَ مَا تُقْفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (١١٢) لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ

قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ
(١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿

[آل عمران: ١١٢ - ١١٥]

لأن إسلامنا يعلمنا العدالة والموضوعية فى النظر إلى الآخرين، فإن واجب المسلمين أن يقدموا حقائق الإسلام للجماهير الغربية، التى هى ضحية الثقافة المغشوشة، والفكر العنصرى، والزيف الإعلامى، المتدفق من مراكز قوى الهيمنة الإمبريالية، والذى يغترف - فى عدائه للإسلام، وتزييفه لحقيقته - من مخزون «الذاكرة الصليبية» القديمة. : فحاجة هذا الإنسان الغربى - الذى تضلله الأكاذيب الثقافية الموروثة، والتزييف الإعلامى المعاصر، والمؤسسات التى أقامت الرأسمالية الغربية للكذب - باسم صناعة الصورة وتوجيه رأى العام - والتى يرتزق أصحابها من «صناعة الكذب»!، مصداقاً لقول الله، سبحانه وتعالى، فى قرآننا الكريم: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢].. إن حاجة هذا الإنسان الغربى إلى معرفة حقيقة الإسلام، تفرض على المسلمين الاهتمام بتقديم هذه الحقيقة إلى هذا الإنسان.

وكما يمثل هذا الأمر «حاجة ثقافية.. وضرورة علمية»، فإنه يمثل - للمسلمين - القيام «بفريضة دينية، وتكليف إلهى»، فريضة أن ندعو إلى الإسلام بالكلمة الطيبة - التى شبهها القرآن الكريم بالشجرة الطيبة، أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥]... وأن نحاور ونجادل طلاب الحقيقة والمحتاجين إليها بالحكمة والموعظة الحسنة.. وبالتى هى أحسن - وليس فقط الحسن! - رجاء أن تحمل المودة بيننا وبين الذين يناصرونا العداء، محل هذا العداء: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ

عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾ [المتحنة: ٧] . . فهي فريضة من فرائض الإسلام: أن نُبلِّغ دعوة الإسلام . . ونقيم الحجة على صدق الإسلام . . ونزيل الشبهات عن حقائق الإسلام . . وذلك فضلاً عن أن فى ذلك التحقيق لمقاصد الإسلام فى التعارف بين المسلمين وغيرهم من الأمم والشعوب والثقافات والحضارات: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]

فمن منطلق العزة الإسلامية، التى أراد الله، سبحانه وتعالى، لنا أن تكون من عزته وعزة رسوله ﷺ: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨] . . ومن منطلق الاعتزاز بالإسلام، الذى يمثل القوة الصاعدة على النطاق العالمى - رغم حالة الاستضعاف المفروضة على أهله - ومن منطلق نزع سلاح كُتّاب الإمبريالية، والهيمنة «الأمريكية - الغربية» والصهيونية . . وتجريدهم من «حججهم» الزائفة . . ومن منطلق تعريف الذين لا يعرفون حقائق الإسلام، وهو مقصد إسلامى أصيل: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦] .

من هذه المنطلقات جميعها نقدم فصول هذا الكتاب، التى تتناول عدداً من القضايا المثارة فى فضاءات الثقافة الغربية أساساً حول الإسلام . . بمنهاج موضوعى، يعرض حقائق الإسلام مقارنة بما لدى الآخرين . . راجين أن تجد هذه الحقائق الإسلامية سبيلها إلى العقول والقلوب التى تنشدهم «الحق» . . الذى هو اسم من أسماء الله الحسنى . . وأن يكون «العدل» هو الميزان الذى توزن به هذه الحقائق . . «فالعدل» - هو الآخر - اسم من أسماء الله الحسنى . . والله الموفق إلى الصواب . . والهادى إلى سواء السبيل .

الهوامش:

- (١) جوتفرايد كونزلن [مأزق المسيحية والعلمانية فى أوروبا] ص ٢٢ - ٣٦، طبعة القاهرة سنة ١٩٩٩ م.
- (٢) نيكسون [الفرصة السانحة SEIZE THE MOMENT] ص ١٤٠. ترجمة: أحمد صدقى مراد. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٢ م.
- (٣) فوكوياما - وهتنجتون [نيوزويك] الأمريكية - العدد السنوى - ديسمبر ٢٠٠١ م - فبراير ٢٠٠٢ م - . .
- (٤) ملحق «الوسط» - صحيفة [الحياة] - لندن - فى ١٧-١-٢٠٠٣ م.
- (٥) البرنامج الإنمائى للأمم المتحدة [تقرير التنمية البشرية] لسنة ١٩٩٨ م. انظر مقالات: صلاح الدين حافظ، ود. محمود عبد الفضيل ومحمد سيد أحمد، والسيد ياسين - [الأهرام] - القاهرة - فى ١٦ - ٩، ١٥ - ٦ - ١٩٩٨ م، و ١١ - ٣ - ١٩٩٩ م. و: د. أحمد شوقى [مغزى القرن العشرين] المكتبة الأكاديمية- القاهرة.
- (٦) لوثرود استودارد [حاضر العالم الإسلامى] - تعليقات: شبيب أرسلان - ترجمة: عجاج نويهض. المجلد الأول. ج ١ ص ٣٢٨. طبعة بيروت سنة ١٣٩١ هـ سنة ١٩٧١ م.

صورة الآخر فى السماحة الإسلامية

السماحة - فى المصطلح الحضارى، العربى الإسلامى-: هى الجود.. أى العطاء بلا حدود.. وهى المساهلة واللين، فى الأشياء والمعاملات، دونما انتظار مقابل أو ثمن، أو حاجة إلى جزاء..

فشارع الإسلام، سبحانه وتعالى، قد شرعه لهداية العالمين، ولتحقيق مصالحهم الشرعية المعتبرة. ومقاصد شريعة هذا الإسلام هى تحقيق الضرورات، والحاجيات، والتحسينات للاجتماع الإنسانى، ومطلق الإنسانية، فى المعاش والمعاد.. والله، سبحانه وتعالى، غنى عن الخلق، الذين شرع لهم هذا الهدى الدائم، وأفاض عليهم هذه السماحة والجود بلا مقابل، وبلا حدود..

ولهذه الحقيقة، خلا الإسلام من كهانة الأحرار والرهبان، الذين استغلوا أهل دياناتهم مقابل إرشادهم إلى التدين بتلك الديانات.. فالمسلم يأخذ دينه من الشارع، مباشرة، ودون مقابل، وهو يؤوب ويتوب إلى بارئه، مباشرة، ودون وساطات ولا إتاوات..

ولذلك كانت السماحة صفة لصيقة بالإسلام، وميزة لهذا الإسلام.. كما كانت صفة واقعية، تجسدت فى أمته وحضارته وتاريخه، ولم تكن مجرد «مثاليات» استعصت على التطبيق.. وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «إنى أرسلت بحنيفية سمحة» -رواه الإمام أحمد- و«أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة» -رواه البخارى والإمام أحمد-..

* * *

وليس جديداً أن يكتب كاتب عن سماحة الإسلام، ولا أن يقارن بين هذه السماحة الإسلامية ونظائرها في الأنساق الدينية والفلسفية والحضارية الأخرى..

لكن الذى تريد أن تقوله هذا الصفحات هو أمر متميز تميزاً نوعياً فى الكتابة حول هذا الموضوع.. فهى تريد أن تقول، من خلال الأصول والمبادئ والقواعد الإسلامية.. ومن خلال تطبيقاتها العملية فى الحضارة الإسلامية، وفى التاريخ الإسلامى: إن السماحة قد بدأت، فى التاريخ الإنسانى، بظهور الإسلام، وإنها قد بلغت فيه مستوى متميزاً، لا نظير له خارج الإسلام..

* لقد ظهر الإسلام، على يد رسوله محمد بن عبد الله ﷺ وليس فى العالم دين ولا حضارة تعترف بالآخر، أو تسالم الآخرين..

فاليهودية التلمودية، قد تحولت إلى «ديانة عنصرية» يقول لها «عهدا القديم» إن اليهود -بحكم الولادة والعرق والدم والجنس.. وليس بحكم الدين والصلاح والتقوى- هم شعب الله المختار، وأبناءؤه وأحباؤه!.. كما يقول لهم «عهدهم القديم» هذا: إن علاقتهم بالآخرين -كل الآخرين- ليست فقط الكراهية واللعن والإنكار، بل المطلوب منهم أن «يأكلوا» الشعوب الأخرى أكلاً!.. فإبادة الآخرين -عندهم- تكليف إلهى: «..والآن اقتل كل ذكر بين الصغار، وكل امرأة عرفت رجلاً ضاجعها» [سفر الأعداد: ١٧: ٣١] «لأنك أنت شعب مقدس للرب إلهك. إياك قد اختار الرب إلهك لتكون له شعباً أخص من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض.. مباركاً تكون فوق جميع الشعوب.. وتأكل كل الشعوب الذين الرب إلهك يدفع إليك. لا تشفق عينك عليهم» [سفر التثنية. إصحاح ٧: ٦، ٧، ١٤ - ١٦]..

ولقد وصف القرآن الكريم هذه العنصرية اليهودية، المنكرة للآخر، بحكم كونه آخر، ولحقه فى الكرامة، بل وفى الوجود.. وصفها القرآن الكريم فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران: ٧٥]، ﴿وَقَالَتِ

الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴿ [المائدة: ١٨] ، ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ
النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ ﴾ [البقرة: ١١٣] ، ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ
نَصَارَى ﴾ [البقرة: ١١١] . .

* * *

* ولقد بادلت النصرانية اليهودية إنكاراً بإنكار . . فطبقت على اليهود ذلك
المبدأ الظالم الذى ابتدعوه ونسبوه -زوراً وبهتاناً- إلى الذات الإلهية، عندما
زعموا أن الله يعاقب الخلف بذنوب السلف حتى أربعة أجيال! . . «فالرب -
[عند اليهود]- لا يبرئ، بل يجعل ذنب الآباء على الأبناء إلى الجيل الثالث والرابع»
[سفر العدد . إصحاح: ١٤ - ٨] .

طبقت النصرانية على اليهود هذا «المبدأ» الظالم، وامتدت به إلى
الأبد، فوضعت فى صلواتها لعن كل أجيال اليهود بذنب موقف أجدادهم
الأولين من المسيح، عليه السلام! . .

ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الإنكار النصرانى للآخر عندما أشار إلى
دعواهم احتكار النجاة والجنة والخلاص ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا
أَوْ نَصَارَى ﴾ [البقرة: ١١١] . . ﴿ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ ﴾
[البقرة: ١١٣] .

ولقد تجسد هذا الإنكار المتبادل للآخر، فى الواقع والممارسة والتطبيق،
ثورات واضطهادات طفحت بها كتب التاريخ حيثما وجد اليهود والنصارى فى
أى مجتمع من مجتمعات التاريخ . .

* * *

* ونفس هذا الإنكار للآخر، واحتقاره واضطهاده، وتجريده من الإنسانية
وحقوقها صنعت «الحضارة» الغربية، فى بداياتها الإغريقية وفى طورها الرومانى . .
ففى «أثينا» - التى ينسبون إليها ابتداء الديمقراطية- كانت هذه الديمقراطية:

احتكار القلة من الفرسان الأشراف الملاك، الذين يجتمعون في ميدان أثينا، يمارسون الديمقراطية، ويتمتعون بجميع حقوقها. . أما غيرهم من البشر، فإنهم كانوا -برأيهم- «برابرة وهمجاً»، لا حظ لهم في الديمقراطية، ولا نصيب لهم من أية حقوق للإنسان! .

وكذلك كان حال هذه «الحضارة» في طورها الرومانى. . فعلى الرغم من إبداعها القانونى، الذى تبلور فى «مدونة» الإمبراطور «جستنيان» [٥٢٧-٦٦٥م] إلا أن هذا القانون إنما كان حقاً من حقوق السادة الفرسان، والأشراف الرومان. . أما الشعوب الأخرى، فلقد كانوا -برأيهم- «برابرة»، لا حق لهم فى أن يطبق عليهم قانون السادة الرومان! . .

* * *

❖ وإذا شئنا الإشارة إلى «دراسة حالة تطبيقية» لهذا الذى ساد العالم، من إنكار للآخر، واضطهاد كل طرف لكل آخر - قبل ظهور الإسلام وإبان ظهوره- فيكفى أن نشير إلى «حالة مصر». . فلقد شاع فيها اضطهاد أتباع «إخناتون» (١٣٨٠- ١٣٦٢ ق.م) لأتباع المعبود «آمون». . فلما انتصر أتباع «آمون» بادلوا أتباع «إخناتون» إنكاراً بإنكار واضطهاداً باضطهاد. .

فلما ظهرت النصرانية، وعرفت طريقها إلى مصر حول منتصف القرن الميلادى الأول، لقيت هذه النصرانية إنكاراً شديداً واضطهاداً اقترب من الإبادة على يد وثنية الرومان المستعمرين والوثنية المصرية. . ولقد بلغ هذا الاضطهاد الذروة فى عهد الإمبراطور «دقلديانوس» [٢٤٥-٣١٣م]، الذى حوّل النصرانى إلى طعام للأسود والنيران وأسماك البحار! . . حتى لقد أرخ نصارى مصر - ولا يزالون- بعهد، وسموه «عصر الشهداء»! (١) . .

فلما تدينت الدولة الرومانية بالنصرانية، فى عهد الإمبراطور «قسطنطين» [٢٧٤-٣٣٧م] مارست النصرانية -الرومانية والمصرية- الاضطهاد ضد الوثنية المصرية، فهدمت معابدها، وسحلت وذبحت فلاسفتها، وأحرقت مكتباتها،

وعبثت بالآثار المصرية عندما حولت بعضاً منها إلى كنائس وأديرة. . حتى لقد قاد الأسقف «تيوفيلوس» -الذى تولى البطيركية المصرية ما بين سنة ٣٨٥م وسنة ٤١٢ م -«حملة اضطهاد عنيفة ضد الوثنيين، واتجه للقضاء على مدرسة الإسكندرية، وتدمير مكتبتها وإشعال النار فيها. . وطالت هذه الإبادة مكثبات المعابد» وتم السحل والحرق لفيلسوفة الأفلاطونية الحديثة، وعالمة الفلك والرياضيات «إناتيه» [٣٧٠-٤١٥م]. . وذلك فضلاً عن تحطيم التماثيل. (٢)

ثم ما لبث الإنكار والاضطهاد أن أعمالاً قانونهما وسيوفهما -بعد اختلاف المجامع النصرانية حول طبيعة المسيح عليه السلام- فمارست النصرانية الرومانية- «الملكانية»- الإنكار والاضطهاد ضد النصرانية المصرية - «اليعقوبية»- فهرب النصارى المصريون إلى الصحارى والمغارات والكهوف. . وهرب رأس الكنيسة المصرية، البطرك «بنيامين» [١-٤١هـ -٦٢٣-٦٦٢م] ثلاثة عشر عاماً، حتى استدعاه وأمنه وأكرمه، وحرر كنائسه وردها إليه قائد الفتح الإسلامى «عمرو ابن العاص [٥٠هـ -٤٣هـ -٥٧٤-٦٦٤م] فاتحاً بذلك أولى صفحات كتاب السماحة والتسامح فى تاريخ مصر والمصريين! . .

كان هذا هو حال الدنيا، وواقع العالم، وموقف أصحاب الديانات والحضارات من الآخر عندما ظهر الإسلام [٦١٠م -١٣ق.هـ].

لم تكن هناك سماحة مع الآخر على الإطلاق. . بل لم يكن هناك اعتراف بالآخر على الإطلاق. . فماذا قدم الإسلام فى هذا الميدان؟ . .

* * *

* لقد بدأ الإسلام بوضع «لبنات عالمية إنسانية جديدة»، وغير مسبوقة. .
بدأ بالتأكيد على أن الله، سبحانه وتعالى، هو رب العالمين ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ١]. . وليس رب شعب دون شعب، ولا أمة دون غيرها من
الأمم. . ثم أكد على أن الإنسان الذى كرمه الله بأن نفخ فيه من روحه، ليكون
ربانياً هو آدم أبو البشر أجمعين ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّى خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ

صَلَّالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿[الحجر: ٢٨، ٢٩].. ولذلك، فإن التكريم الإلهي هو لمطلق الإنسان ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠].. وليس هذا التكريم حكرًا لشعب من الشعوب، ولا لأبناء دين من الأديان أو حضارة من الحضارات..

ونفى الإسلام أن يكون التفاوت في مراتب القرب من الله، سبحانه وتعالى، ثمرة «للصفات اللصيقة» -[العنصرية]- وجعل هذا التفاوت والتفاضل ثمرة لمعايير متاحة ومفتوحة أبوابها أمام كل إنسان.. فالتقوى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هي معايير الصلاح في المعاش والمعاد ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].. ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣]..

ولم يحتكر الإسلام النجاة لأبناء شريعة دون الشرائع الأخرى التي جاءت بها الرسالات السماوية في إطار الدين الإلهي الواحد، وإنما أكد على أن ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].. وأشار إلى أن الذين آمنوا بوحدانية الذات الإلهية، وبالغيب واليوم الآخر والحساب والجزاء، وعملوا صالحًا في حياتهم الدنيا، وفق أية شريعة من الشرائع الإلهية الحققة، لا يمكن أن يستووا بالذين جحدوا الحق بعد أن عرفوه، فكفروا بالالوهية الواحدة، وبالغيب، ولم يعملوا صالحًا، وتنكبوا كل شرائع السماء ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢]..

ورفض الإسلام كل الفلسفات والأنساق الفكرية التي زعمت واجتمعت على أن العنف والقتال وسفك الدماء هي «غريزة.. وجبلة» مركوزة في طبيعة الإنسان.. وقرر أن القتال استثناء، وليس القاعدة، وشذوذ عن طبيعة الفطرة السوية، وأنه مكتوب ومفروض على هذا الإنسان، بل ومكروه من الإنسان الذي يرتقى إلى المستوى الحقيقي للإنسان.. قرر القرآن الكريم هذه الحقيقة،

غير المسبوقة، عندما قال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].. وبيّنت السنة النبوية هذه الحقيقة القرآنية عندما قال رسول الله ﷺ: «لا تتمنّوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاثبتوا، وأكثروا ذكر الله» - رواه الدارمي..

بل بلغ الإسلام على هذا الدرب غير المسبوق إلى الحد الذي أوجب فيه العدل حتى مع من نكره ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].. ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا﴾ [المائدة: ٢]..

بل العدل حتى مع من نقاتل ردّاً لعدوانه علينا ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]..

كما سن الإسلام قواعد «للفروسية الإسلامية»، غير مسبوقة ولا ملحوقة، في تاريخ الحروب.. فالرسول ﷺ، قد «نهى عن قتل النساء والولدان» - رواه مالك في [الموطأ].. وكان إذا بعث سرية قال لهم: «أغزوا باسم الله، في سبيل الله، تقاتلون من كفر بالله، لا تغلّوا - [أى لا تخونوا] - ولا تغدروا، ولا تمثّلوا، ولا تقتلوا وليدًا» - رواه البخاري ومسلم ومالك في [الموطأ]..

ولقد صاغ أبو بكر الصديق [٥١ق.هـ - ١٣هـ - ٥٧٣ - ٦٣٤م] وهو على رأس دولة الخلافة الراشدة.. هذه السنة النبوية «وثيقة لشمائل الفروسية الإسلامية» عندما أوصى «يزيد بن أبي سفيان» [١٨هـ - ٦٢٩م] وهو يودعه أميراً على الجيش الذهاب إلى الشام، فقال له: «إنك ستجد قومًا زعموا أنهم حبّسوا أنفسهم لله.. وإنى أوصيك بعشر: لا تقتلن امرأة. ولا صبيًا. ولا كبيراً هرمًا. ولا تقطعن شجرة مثمرًا. ولا تخربين عامرًا. ولا تعقرن شاة ولا بغيراً إلا لمأكلة. ولا تحرقن نخلاً. ولا تفرّقنّه. ولا تغلّل. ولا تجبن..» - رواه مالك في [الموطأ]..

فشملت أخلاقيات الفروسية الإسلامية آداب التعامل مع الإنسان..

والحيوان . . والنبات . . والجماد . . لأن «الخلقة- الطبيعة» كلها حية، تسبح خالقها، وإن لم نفقه لغاتها في التسبيح، فالعلاقة الإسلامية بها هي علاقة تأخٍ ورفق وارتفاق، وليست علاقة قهر وتدمير واستغلال . .

وفوق كل ذلك، حصر الإسلام أسباب ومبررات استخدام هذه الضرورة وهذا الاستثناء -القتال- في أمرين اثنين، هما: رد العدوان عن العقيدة، ليتحرر الضمير، ويكون الدين كله لله . . ورد العدوان عن الوطن -الذى هو وعاء إقامة الدين- وذلك بردع الذين يخرجوننا من ديارنا أو يظهرون على إخراجنا من الديار ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٧) لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرؤهم وتقسطوا إليهم إن الله يحبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُواكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المتحنة: ٧-٩] . .

بل حتى هذا القتال - الاستثنائي . . المكروه . . والمفروض - قد جعله الإسلام «تدافعاً»، المقصد من ورائه تعديل المواقف، وتحقيق التوازن العادل، ليحل محل الخلل الفاحش، وصولاً إلى التعايش بين الفرقاء المختلفين . . وليس «صراعاً» يستهدف أن يصرع طرف الطرف الآخر، فيلغيه . . فالتعددية والاختلاف والتمايز سنة من سنن الله التي لا تبديل لها ولا تحويل . . وإذا كان «الصراع» ينتهى بإلغاء هذه التعددية، والقضاء على الآخر ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ نَخْلٌ خَاوِيَةٌ﴾ (٧) فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧، ٨] . . فإن المقصد الإسلامى هو الإبقاء على التعددية، وتحقيق التوازن والتعايش بين فرقائها - بالتدافع لا بالصراع - ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤] . .

فالتدافع سبيل للحياة، ولإصلاح الحياة . . بينما الصراع هو طريق الفناء . .

صنع الإسلام ذلك كله، حتى مع المشرك الذى يعبد الأوثان والأصنام من دون الله . .

أما مع أصحاب الشرائع الدينية، الذين جاء الإسلام وكل منهم ينكر الآخر، ويلعنه فى صلواته، ويصب عليه ألوان الاضطهادات والإبادات - بحسبان ذلك مما يقربه إلى الله!! . . فإن الإسلام- فى تعامله مع أهل هذه الشرائع- قد أضاف إلى تقريره وحدة الألوهية والربوبية لكل العالمين، ولكل عوالم المخلوقات. . أضاف إليها عقيدة الإيمان بكل الكتب السماوية التى نزلت. . وجميع النبوات والرسالات التى سبقت. . وسائر الشرائع الإلهية التى توالى منذ آدم إلى محمد، عليهم الصلاة والسلام. .

فوحدة الدين والملة عبر التاريخ الإنسانى تجعل جميع الأنبياء أبناء أب واحد- دين واحد- وتجعل شرائعهم المتعددة تنوعاً فى إطار الدين الواحد -فأمهاتهم- شرائعهم- شتى، وأبوهم -دينهم- واحد. . وصدق رسول الله ﷺ عندما أكد هذه الحقيقة، فقال: «الأنبياء إخوة من عَلاَّت، وأمّهاتهم شتى، ودينهم واحد» - رواه البخارى ومسلم وأبو داود- . . ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥] . .

وبهذا الأفق الإسلامى فى السماحة، احتضن الإسلام الكل، وجعل الإيمان فيه شاملاً لكل ما أوحى به السماء على مر تاريخ الوحي إلى كل الرسل والأنبياء. . وبذلك، ولأول مرة فى التاريخ، جعل الإسلام «الآخر» جزءاً من «الذات»، فتجاوز، بهذا المستوى غير المسبوق فى السماحة، مجرد الاعتراف بالآخرين، والقبول بالآخرين.

ولهذا كان الحديث الإيجابى، والمنصف، والموضوعى عمّا لدى الآخرين. . فكتبهم، التى يعترف علماؤهم هم بتلفيقها، ووضعها، وتحريفها^(٣)، لم يعمم القرآن الكريم عليها هذا التحريف، وإنما تحدث عن هذه الكتب فقال: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ

التَّورَةَ وَالْإِنْجِيلَ (٣) مِنْ قَبْلُ هَدَى النَّاسَ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ ﴿[آل عمران: ٢ - ٤] . .
وقال: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّورَةِ وَآتَيْنَاهُ
الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّورَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿[المائدة: ٤٦] . .

ولم ينه الإسلام الذين آثروا الشرائع الأخرى عن الاحتكام إلى ما بأيديهم
من الكتب، بل أمرهم بتحكيمها ﴿وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ ﴿[المائدة: ٤٧] . .
﴿وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّورَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ﴿[المائدة: ٤٣] . .

ووجدنا تطبيقات هذا الموقف، غير المسبوق، في حوار الصحابي «حاطب
ابن أبى بلتععة» [٣٥ق.هـ - ٣٠هـ ٥٨٦ - ٦٥٠م] مع «المقوقس» عظيم القبط
بمصر، عندما حمل إليه «حاطب» كتاب رسول الله ﷺ سنة ٧هـ، سنة ٦٢٨م،
فقال له: «إننا ندعوك إلى الإسلام: الكافى به الله فقد ما سواه، ولسنا ننهاك عن دين
المسيح، ولكننا نأمرك به»! (٤) . .

كذلك بلغ الإسلام على درب العدالة والموضوعية والإنصاف، الحد الذى
جعله لا يهمل الفروق الدقيقة بين فصائل وتيارات أى «آخر» من الآخرين . .
فلم يعمم الأحكام ولا الأوصاف على أهل الكتاب، وإنما رأينا قرآنه الكريم
يقول: ﴿مَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ﴿[آل عمران: ١١٣] . . ﴿وَأَنَّ
مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ
بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿[آل
عمران: ١٩٩] . . ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُودِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ
تَأْمَنَهُ بدينارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ
سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿[آل عمران: ٧٥] - . . فلا يسوى
القرآن، ولا يعمم الأحكام والأوصاف على فصائل أهل الكتاب وتياراتهم

وفرقهم. ثم يقعد لقاعدة «عدم التعميم» هذه، فيقول: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ [آل عمران: ١١٣]..

ولم يقف الإسلام بهذا الأفق، غير المسبوق، فى السماحة والتسامح عند «الآخر»، المتدين بديانات سماوية فقط -أهل الكتاب من اليهود والنصارى- وإنما امتد به ليشمل المتدينين بالديانات الوضعية.. فتركهم، هم أيضاً، وما يدينون، وعاملهم، فى الدولة الإسلامية، معاملة أهل الكتاب.. فعندما فتح المسلمون فارس -وأهلها مجوس، يعبدون النار، ويقولون بالهين، أحدهما للخير والنور، والثانى للشر والظلمة -عرض أمير المؤمنين عمر بن الخطاب [٤٠ق.هـ - ٢٣هـ - ٥٨٤ - ٦٤٤م] رضى الله عنه، أمرهم على «مجلس الشورى» -مجلس السبعين- الذى كان يجتمع بمسجد المدينة، فى مكان محدد، وأوقات محددة.. «وكان عمر يجلس معهم فيه، ويحدثهم عما ينتهى إليه من أمر الآفاق» والولايات والأقاليم - فقال لأعضاء مجلس الشورى:

- كيف أصنع بالمجوس؟

فوثب عبد الرحمن بن عوف [٤٤ق.هـ - ٣٢هـ - ٥٨٠ - ٦٥٢م] فقال:

- أشهد على رسول الله ﷺ أنه قال: «ستوا فيهم سنة أهل الكتاب»^(٥)..

فعوملت الديانات الوضعية معاملة الكتابية.. وجاء الفقهاء فقعدوا هذه السنة النبوية، وهذا التطبيق الراشدى لها، فقالوا: لقد كانت لهذه الديانات كتب ثم ضاعت..

وحتى ندرك سمو هذا الأفق الإسلامى الجديد، فى السماحة والتسامح، والذى بدأ الإسلام به التاريخ الحقيقى للسماحة فى مسيرة الإنسانية وشرائعها وفلسفاتها وحضاراتها، نلفت الأنظار إلى حقيقة أن الإسلام لم يصنع هذا الاعتراف «بالآخر»، والقبول لهذا «الآخر»، وتمكين «الآخر» من إقامة عقائده.. لم يصنع الإسلام كل ذلك باعتباره مجرد «مباح»، وحق من حقوق

هذا «الآخر»، وإنما جعل ذلك فريضة إسلامية، وشرطاً لاكتمال الاعتقاد بعقائد الإسلام!..

وأكثر من هذا، وفوقه.. فإن الإسلام لم يقف بذلك الأفق السامى، عند «الآخر» الذى يبادل الإسلام اعترافاً باعتراف، وقبولاً بقبول، وإنما صنعه مع «الآخر» الذى ينكر الإسلام ويجحده ويكفر بمقوماته- وكل الآخرين، الذين ينكر كل واحد منهم صاحبه، يجتمعون جميعاً، حتى هذه اللحظة، على إنكار الإسلام وجحوده والكفران به.. فلا يؤمنون بأن قرآنه وحى سماوى، ولا بأن رسوله مبعوث إلهى، ولا بأن ما جاء به دين إلهى - ومع كل ذلك، وبرغمه، كان هذا هو موقف الإسلام -غير المسبوق وغير الملحق- فى الاعتراف بكل الآخرين، الذين ينكرونه ويجحدونه.. بل لقد تجاوز الاعتراف بهم، والقبول لهم، ووصل إلى حد جعلهم جزءاً من «الذات»، ذات الدين الإلهى الواحد.. وذات الأمة الواحدة.. بل وجعل تمكينهم من حرية إقامة جحودهم بالإسلام شرطاً من شروط اكتمال عقيدة الإسلام، وإسلامية دولة الإسلام!..

فهل فى تاريخ الدنيا والأمم والحضارات والشرائع والثقافات والفلسفات - قبل الإسلام وبعده- سماحة شبيهة بهذه التى بدأت بالإسلام.. والتى تفرد بها الإسلام؟..

* * *

* ولم يكن هذا الذى قرره الإسلام، وابتكره، وأنجزه مجرد «فكر نظرى» كتلك الوصايا «الصوفية- المثالية» التى تضمنتها كتب سابقة على القرآن الكريم، لم تعرف طريقها إلى أية تطبيقات فى ممارسات ومجتمعات الذين «حُمِّلُوا فلم يحملوها.. واستحفظوا عليها فلم يحفظوها»..

وإنما تحول هذا الذى قرره الإسلام، وابتكره إلى «حياة.. ودولة.. وحضارة.. وتاريخ»..

* ففي دولة المدينة، التي رأس حكومتها رسول الله ﷺ نص «دستورها» - [الصحيفة- الكتاب]- على التعددية الدينية لرعية هذه الدولة الإسلامية الأولى، وعلى مساواة العدل والإنصاف في حقوق المواطنة بين هذه الرعية المختلفة والمتعددة في الدين.

لقد حول الإسلام «القبائل» إلى لبنات في بناء «الأمة» الجديدة، وجعل أبناء الشرائع الدينية المتعددة لبنات أصيلة في هذه الأمة الواحدة، وفي رعية هذه الدولة الإسلامية الواحدة.. حتى إن تاريخ الفكر الإسلامي لم يعرف مصطلح «الأقلية»، وإنما عرف «الأمة الواحدة»، التي جعل الإسلام تنوعها واختلافها- في الشرائع الدينية.. وفي الشعوب والقبائل.. وفي الألوان والأجناس.. وفي الألسنة واللغات والأقوام.. وفي المناهج والثقافات والحضارات والعادات والتقاليد والأعراف- سنة من سنن الله التي لا تبدل لها ولا تحوّل.. فنص «دستور» الدولة الإسلامية الأولى- الذي وضعه الرسول ﷺ عقب الهجرة إلى المدينة- على أن «لليهود دينهم وللمسلمين دينهم.. ومن تبعنا من يهود فإن لهم النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصر عليهم.. وأن بطانة يهود ومواليهم كانوا يفسدوا دينهم» وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة.. وأن بينهم النصح والنصيحة والبر المحض من أهل هذه الصحيفة دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه..»^(٦).

وهكذا أسس هذا «الدستور» -في الدولة الإسلامية الأولى- لكامل المساواة والإنصاف في حقوق المواطنة وواجباتها، على نحو غير مسبوق وغير ملحق في الإطار غير الإسلامي، منذ ما يزيد على أربعة عشر قرناً..

ويزيد من عظمة هذا الإنجاز لهذه التعددية وهذه المساواة، أنها لم تتم على أنقاض الأديان المختلفة، وفي ظل استبعاد هذه الأديان، كما هو الحال مع حقوق المواطنة في الدول العلمانية، وإنما هي تعددية ومساواة بين فرقاء

يحتفظون بتنوعهم الدينى واختلافاتهم العقائدية.. كما أن هذه التعددية وهذه المساواة فى حقوق المواطنة لم تتم على أنقاض المرجعية الإسلامية، وبسبب استبعادها -كما يريد العلمانيون- وإنما الذى أنجزها هو الإسلام، والتى حكمتها هى المرجعية الإسلامية، التى نص عليها هذا «الدستور» عندما قال: «وأنه ما كان من أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله ﷺ» (٧) ..

* وفى أول احتكاك بين هذه الدولة الإسلامية الأولى وبين النصارى، عندما اتسعت دائرة حدودها فشملت رعية نصرانية -هم نصارى «نجران»- كتب لهم رسول الله ﷺ عهداً وتعاقداً دستورياً قن فيه هذه التعددية الدينية فى رعية الدولة، وكامل المساواة والإنصاف فى حقوق المواطنة وواجباتها، وجاء فى هذا العهد: «ولنجران وحاشيتها، ولأهل ملتها، ولجميع من يتحل دعوة النصرانية فى شرق الأرض وغربها، قريبتها وبعيدها، فصيحها وأعجمها، جوار الله وذمة محمد النبى رسول الله، على أموالهم، وأنفسهم، وملتهم، وغائبهم، وشاهدتهم، وعشيرتهم، وبيعتهم، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير. لا يُغَيَّر أسقف من أسقفية، ولا راهب من رهبانيتها، ولا يُحشَرُونَ [أى لا يكلفون بالقتال]، ولا يعشَرُونَ [أى لا يدفعون العُشْر الذى يدفعه التجار الأجانب]، ولا يَطَأ أرضهم جيش. ومن سأل منهم حقاً فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين.. وأن أحمى جانبهم، وأذب عنهم وعن كنائسهم وبيعهم وبيوت صلواتهم، ومواضع الرهبان، ومواطن السياح، حيث كانوا من جبل أو واد أو مغار أو عمران أو سهل أو رمل. وأن أحرس دينهم وملتهم أين كانوا، من بر أو بحر، شرقاً وغرباً، بما أحفظ به نفسى وخاصتى وأهل الإسلام من ملتى... ولا يدخل شىء من بنائهم فى شىء من أبنية المساجد ولا منازل المسلمين..

ولا خراج ولا جزية إلا على من يكون فى يده ميراث من ميراث الأرض، ممن يجب عليه فيه للسلطان حق، فيؤدى ذلك على ما يؤديه مثله، ولا يُجَار عليه، ولا

يُحْمَلُ مِنْهُ إِلَّا قَدْرُ طاقته وقوته على عمل الأرض وعمارته وإقبال ثمرتها، ولا يُكَلَّفُ شَطَطًا، ولا يُتَجَاوَزُ بِهِ حَدُّ أَصْحَابِ الْخَرَاجِ مِنْ نَظَرَاتِهِ.

ولا يكلف أحد من أهل الذمة منهم الخروج مع المسلمين إلى عدوهم، لملاقاة الحروب ومكاشفة الأقران، فإنه ليس على أهل الذمة مباشرة القتال، وإنما أُعْطُوا الذمة على أن لا يُكَلَّفُوا ذَلِكَ، وأن يكون المسلمون ذُبَابًا عَنْهُمْ، وجواراً من دونهم، ولا يُكْرَهُوا على تَجْهِيزِ أَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْحَرْبِ الَّذِي يَلْقَوْنَ فِيهِ عَدُوَّهُمْ، بِقُوَّةٍ وَسِلَاحٍ أَوْ خَيْلٍ، إِلَّا أَنْ يَتَبَرَّعُوا مِنْ تَلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ، فيكون من فعل ذلك منهم وتبرع به حُمدٌ عليه، وعُرفٌ له، وكُوفٍ به. ولا يُجْبَرُ أَحَدٌ مِمَّنْ كَانَ عَلَى مِلَّةِ النَّصْرَانِيَّةِ كَرْهًا عَلَى الْإِسْلَامِ ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، وَيُخَفِّضُ لَهُمْ جَنَاحَ الرَّحْمَةِ، وَيُكْفِ عَنْهُمْ أَذَى الْمَكْرُوهِ حَيْثُ كَانُوا وَأَيْنَ كَانُوا مِنَ الْبِلَادِ.

ولا يُحْمَلُوا مِنَ النِّكَاحِ -[الزواج]- شَطَطًا لا يريدونه، ولا يُكْرَهُ أَهْلُ الْبَنَاتِ عَلَى تَزْوِيجِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا يُضَارُّوا فِي ذَلِكَ إِنْ مَنَعُوا خَاطِبًا وَأَبَوْا تَزْوِيجًا؛ لِأَنَّ ذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِطَيْبَةِ قُلُوبِهِمْ، وَمَسَامَحَةِ أَهْوَائِهِمْ، إِنْ أَحْبَبُوهُ وَرَضُوا بِهِ. وَإِذَا صَارَتِ النَّصْرَانِيَّةُ عِنْدَ الْمُسْلِمِ -[زوجة]- فَعَلَيْهِ أَنْ يَرْضَى بِنَصْرَانِيَّتِهَا، وَيَتَّبِعَ هَوَاهَا فِي الْاِقْتِدَاءِ بِرُؤُسَائِهَا، وَالْأَخْذِ بِمَعَالِمِ دِينِهَا وَلَا يَمْنَعُهَا ذَلِكَ، فَمَنْ خَالَفَ ذَلِكَ وَأَكْرَهَهَا عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ دِينِهَا فَقَدْ خَالَفَ عَهْدَ اللَّهِ وَعَصَى مِيثَاقَ رَسُولِهِ، وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْكَاذِبِينَ.

ولهم، إِنْ احتاجوا فِي مَرْمَّةٍ بَيْعِهِمْ وَصَوَامِعِهِمْ أَوْ شَيْءٍ مِنْ مَصَالِحِ أُمُورِهِمْ وَدِينِهِمْ، إِلَى رَفْدٍ -[مساعدة]- مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَتَقْوِيَةٍ لَهُمْ عَلَى مَرْمَتِهَا، أَنْ يُرْفَدُوا عَلَى ذَلِكَ وَيُعَاوَنُوا، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ دَيْنًا عَلَيْهِمْ، بَلْ تَقْوِيَةٌ لَهُمْ عَلَى مَصْلَحَةِ دِينِهِمْ، وَوَفَاءٍ بِعَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ، وَمَوْهَبَةٍ لَهُمْ، وَمَتَّةٌ لَهِ وَرَسُولُهُ عَلَيْهِمْ.

... لِأَنِّي أَعْطَيْتُهُمْ عَهْدَ اللَّهِ أَنْ لَهُمْ مَا لِلْمُسْلِمِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ مَا عَلَيْهِمْ، بِالْعَهْدِ الَّذِي اسْتَوْجَبُوا حَقَّ الذِّمَامِ، وَالذَّبَّ عَنِ الْحَرَمَةِ، وَاسْتَوْجَبُوا أَنْ يُذَبَّ عَنْهُمْ كُلُّ مَكْرُوهِ، حَتَّى يَكُونُوا لِلْمُسْلِمِينَ شُرَكَاءَ فِي مَا لَهُمْ وَفِي مَا عَلَيْهِمْ..».

وإذا كانت الدهشة تملك قلوب وعقول أهل هذا العصر الحاضر من هذا السخاء فى المساواة والعدل والإنصاف الذى أعطاه الإسلام ودولته «للآخر الدينى»، قبل أربعة عشر قرناً، فإن هذه الدهشة -دهشة الذين لا يعرفون حقيقة الإسلام- ستزداد وتتعاظم عندما يعلمون -وتعلم الدنيا- أن الإسلام لم يطلب من هذا «الآخر الدينى» مقابل كل هذا السخاء فى «الحقوق» سوى «واجب واحد»، هو أن يكون هذا «الآخر» لبنة فى جدار الأمن الوطنى والحضارى للدولة الإسلامية، وأن يكون ولاؤه كاملاً للدولة والوطن، وانتماؤه خالصاً للأمة، التى هو جزء أصيل فيها، وألا يكون ثغرة اختراق لحساب أى من الأعداء..

فنص ذلك العهد والميثاق الدستورى -الذى عقده رسول الله ﷺ مع نصارى «نجران» - على هذا الواجب، عندما جاء فيه: «واشترط عليهم أموراً يجب عليهم فى دينهم التمسك بها والوفاء بما عاهدهم عليه، منها: ألا يكون أحد منهم عيناً ولا رقيباً لأحد من أهل الحرب على أحد من المسلمين فى سره وعلايته، ولا يأوى منازلهم عدو للمسلمين، يريدون به أخذ الفرصة وانتهاز الوثبة، ولا ينزلوا أوطانهم ولا ضياعهم ولا فى شىء من مساكن عباداتهم ولا غيرهم من أهل الملة، ولا يرفدوا -[يساعدوا]- أحداً من أهل الحرب على المسلمين، بتقوية لهم بسلاح ولا خيل ولا رجال ولا غيرهم، ولا يصانعوهم..

وإن احتيج إلى إخفاء أحد من المسلمين عندهم، وعند منازلهم، ومواطن عباداتهم، أن يؤوهم ويرفدوهم ويواسوهم فيما يعيشون به ما كانوا مجتمعين، وأن يكتموا عليهم، ولا يظهروا العدو على عوراتهم، ولا يخلوا شيئاً من الواجب عليهم..»^(٨).

هكذا بلغ الإسلام القمة -غير مسبوق ولا ملحق- عندما جعل «الآخر» يحافظ على اختلافه ومغايرته، وحرس وحمل هذه المغايرة وهذا الاختلاف، مع جعل هذا «الآخر» جزءاً من «الذات»، أى الأمة الواحدة، ورعية الدولة

الواحدة.. . وعندما جعل كل ذلك جزءاً من الاعتقاد الإسلامى، والتكليف الإلهى والسنة النبوية، والسياسة الشرعية، وعهد الله وميثاقه، وليس مجرد حق من حقوق الإنسان، يمنحه حاكم ويمنعه آخرون!.. .

* * *

* ولقد استمرت هذه السنة الإسلامية مرعية فى الدولة الإسلامية والحضارة الإسلامية والتاريخ الإسلامى، على امتداد هذا التاريخ.. .

فجميع الفتوحات الإسلامية قد دارت كل معاركها ضد جيوش القوى العظمى الباغية والغازية التى استعمرت الشرق لعدة قرون -الفرس.. . والروم- ولم تحدث معركة واحدة بين جيوش الفتح الإسلامى وبين أهل البلاد التى فتحها المسلمون، بل إن أهل هذه البلاد قد ساعدوا الجيوش الإسلامية بالدعم المادى والمعنوى، وأحياناً بالقتال ضد الفرس وضد الروم، مع بقائهم على دياناتهم المغايرة للإسلام، والموافقة لديانات الفرس والروم!.. . صنع ذلك أهل العراق.. . ونصارى الشام.. . وأقباط مصر.. .

وعندما حررت الجيوش الإسلامية بلادهم، حررت -كذلك- ضمائرهم من الاضطهاد الدينى الذى عانوا منه عدة قرون، فتركوا- لأول مرة فى تاريخهم- وما يدينون، وأصبحوا جزءاً من رعية الدولة الإسلامية، لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، وظلوا أغلبية غير مسلمة فى بلادهم لعدة قرون، حتى دخل منهم من دخل فى الإسلام دون إكراه، بل ودون تهريب، وفى أحيان كثيرة دون ترغيب!.. . وبقي من بقى منهم على نصرانيته أو يهوديته أو زرادشتيته، شاهدين بذلك على هذه السماحة غير المسبوقة التى جاء بها الإسلام، والتى وضعتها دولته وحضارته فى الممارسة والتطبيق.. .

وكما جعل الإسلام هذا «الآخر الدينى» جزءاً أصيلاً من الأمة الواحدة والرعية الواحدة للدولة الإسلامية، فتح أمام هذا «الآخر» باب الإسهام فى بناء الحضارة الإسلامية الجديدة، وذلك بعد أن استوعب الإسلام كل الموارث

الحضارية السابقة، التي قهرها الغزاة -الإغريق والرومان- فأحيها الإسلام، وترجم المسلمون علومها وفنونها، فدخلت تلك الموارد في النسيج الجديد للحضارة الإسلامية الجديدة، فكان الإحياء الإسلامى لعلوم وفنون وفلسفات مدارس «الإسكندرية» و«أنطاكية» و«جنديسابور» وغيرها، الإنقاذ الإسلامى للتراث الحضارى الإنسانى من القهر والضياع، الأمر الذى جعل الحضارة الإسلامية الجديدة، بالنسبة لشعوب البلاد التى دخلت فى الدولة الإسلامية، الطور الجديد لحضارتهم الوطنية والقومية، التى بنوها مع المسلمين فى ظلال مرجعية الإسلام.. فأصبح هذا «الآخر الدينى» جزءاً من «الذات» الوطنية والقومية والحضارية، مع بقاء التنوع الدينى حقاً مقدساً من حقوق الضمير، لا سلطان عليه إلا الله؛ لأن الدين لله وحده، ولا يمكن أن يتأتى تدين حق مع أى لون من ألوان الإكراه..

* * *

* وكما فتح الإسلام الأبواب أمام هذا «الآخر الدينى» للإسهام فى بناء الحضارة الإسلامية الجديدة، ترك هذا «الآخر» ليدبر دولا ب «الدولة» ودواوينها، حتى وجدنا مستشرقاً ألمانيا حجة -هو «آدم متز» [١٨٦٩ - ١٩١٧م] يشهد هذه الشهادة التى تقول: «لقد كان النصارى هم الذين يحكمون بلاد الإسلام»^(٩)..

ووجدنا المستشرق الإنجليزى «سير. توماس أرنولد» [١٨٦٤ - ١٩٣٠م] يعلن عن سماحة الإسلام عندما يقول -وهو الشديد التدين بالنصرانية-: «إنه من الحق أن نقول: إن غير المسلمين قد نعموا، بوجه الإجمال، فى ظل الحكم الإسلامى، بدرجة من التسامح لا نجد لها معادلاً فى أوروبا قبل الأزمنة الحديثة. وإن دوام الطوائف المسيحية فى وسط إسلامى يدل على أن الاضطهادات التى قاست منها بين الحين والآخر على أيدي المتزمتين والمتعصبين كانت من صنع الظروف المحلية، أكثر مما كانت عاقبة مبادئ التعصب وعدم التسامح..»^(١٠).

ولقد صدّق على هذه الشهادة، وفصل مجملها الكاتب والمؤرخ النصراني اللبناني «جورج قرم»، عندما حصر أسباب التوتر الطائفي، التي عرضت لفترات قليلة وعابرة، في تاريخ المجتمعات الإسلامية، في ثلاثة أسباب:

١- المزاج الشخصي المختل لحكام، اضطهدوا الأغلبية مع الأقليات . .

٢- والظلم والاستعلاء الذي مارسته الزعامات والقيادات النصرانية واليهودية، التي تولت الوزارة وقبضت على جهاز الدولة المالي والإداري، والتي كانت سوط عذاب للأغلبية الفقيرة من المسلمين، الأمر الذي ولّد ردود أفعال وفتناً لم تقف عند الذين ظلموا وحدهم دون سواهم . .

٣- واستجابة قطاعات محدودة من أبناء الأقليات الدينية لغوايات المستعمرين والغزاة لبلاد الإسلام، الأمر الذي ولّد ردود أفعال وفتناً لم تميز - في الأقليات- بين القلة التي سقطت في شباك الغواية والخيانة وبين جمهور هذه الأقليات . .

حصر هذا الباحث النصراني هذه التوترات الطائفية -العارضة في التاريخ الإسلامي- بهذه الأسباب الثلاثة، وكتب يقول:

«إن فترات التوتر والاضطهاد لغير المسلمين في الحضارة الإسلامية كانت قصيرة، وكان يحكمها ثلاثة عوامل:

العامل الأول: هو مزاج الخلفاء الشخصي، فأخطر اضطهادين تعرض لهما الذميون وقعا في عهد المتوكل [٢٠٦-٢٤٧هـ - ٨٢١-٨٦١م] الخليفة الميالي بطبعه إلى التعصب والقسوة. وفي عهد الخليفة الحاكم بأمر الله [٣٧٥-٤١١هـ - ٩٨٥-١٠٢١م] الذي غالى في التصرف معهم بشدة.

العامل الثاني: هو تردى الأوضاع الاقتصادية الاجتماعية لسواد المسلمين، والظلم الذي يمارسه بعض الذميين المعتلين لمناصب إدارية عالية، فلا يعسر أن ندرك صلتها المباشرة بالاضطهادات التي وقعت في عدد من الأمصار.

أما العامل الثالث: فهو مرتبط بفترات التدخل الأجنبي في البلدان الإسلامية، وقيام الحكام الأجانب بإغراء واستدراج الأقليات الدينية غير المسلمة إلى التعاون معهم ضد الأغلبية المسلمة.. إن الحكام الأجانب - بمن فيهم الإنجليز - لم يحجموا عن استخدام الأقلية القبطية في أغلب الأحيان ليحكموا الشعب ويستنزفوه بالضرائب - وهذه ظاهرة نلاحظها في سوريا أيضاً، حيث أظهرت أبحاث «جب» و«بولياك» كيف أن هيمنة أبناء الأقليات في المجال الاقتصادي أدت إلى إثارة قلق دنيّة خطيرة بين النصارى والمسلمين في دمشق سنة ١٨٦٠م، وبين الموارنة والدروز في جبال لبنان سنة ١٨٤٠م وسنة ١٨٦٠م. ونهاية الحملات الصليبية قد أعقبتها، في أماكن عديدة، أعمال نأر وانتقام ضد الأقليات المسيحية - ولا سيما الأرمن - التي تعاونت مع الغازي.

بل إنه كثيراً ما كان موقف أبناء الأقليات أنفسهم من الحكم الإسلامي، حتى عندما كان يعاملهم بأكبر قدر من التسامح، سبباً في نشوب قلق طائفية، فعلاوة على غلو الموظفين الذميين في الابتزاز، وفي مراعاتهم وتحيزهم، إلى حد الصفاقة، أحياناً، لأبناء دينهم، ما كان يندر أن تصدر منهم استفزازات طائفية بكل معنى الكلمة..»^(١١).

تلك هي شهادة الباحث النصراني اللبناني، التي تشي على شهادة المستشرق النصراني الإنجليزي.. حول أسباب التوترات الطائفية العابرة في تاريخنا الإسلامي..

وإذا شئنا وقائع من التاريخ - غير ما أشار إليه «جورج قرم» - شاهدة على صدق هذا التحليل والتعليل، فما علينا إلا أن ننظر فيما كتبه «المقریزی» [٧٦٦ - ٨٤٥هـ - ١٣٦٥ - ١٤٤١م] عن استعلاء النصارى واليهود الذين تولوا الوزارة والجباية والإدارة في العصر الفاطمي^(١٢).. وما كتبه «المقریزی» - أيضاً - عن استقواء نصارى دمشق «بهولاكو» والتتار، وقائد التتار - النصراني النسطوري - «كُتبغا»، إبان الاجتياح التتاري للمشرق العربي والإسلامي.. وما

أثارته هذه الخيانة من رد فعل جعل السلطان «قطز» [٦٥٨هـ - ١٢٦٠م] يوقع بهم عقاباً شديداً عقب الانتصار على التتار في «عين جالوت» [٦٥٨هـ - ١٢٦٠م] ^(١٣) . وأن نقرأ - أيضاً - ما كتبه «الجبرتي» [١١٦٧ - ١٢٣٧هـ - ١٧٥٤ - ١٨٢٢م] عن خيانة «المعلم يعقوب حنا» [١٧٤٥ - ١٨٠١م] - والذي يسميه «الجبرتي» «يعقوب اللعين» - والفيلق القبطي الذي جنّده وقاده وحارب به الشعب المصري لحساب الحملة الفرنسية التي قادها «بوناپارت» [١٧٦٩ - ١٨٢١م] ضد مصر [١٢١٣هـ - ١٧٩٨م]، وكيف «عهد الجنرال «كليبر» [١٧٥٣ - ١٨٠٠م] إلى الجنرال يعقوب أن يفعل بالمسلمين ما يشاء.. حتى تطاول هو وأنصاره على المسلمين بالسب والضرب، ونالوا منهم أغراضهم، وأظهروا حقدهم، ولم يبقوا للصلح مكاناً! وصرحوا بانقضاء ملة المسلمين وأيام الموحدين!..» ^(١٤) .

وما أحدثته هذه الاستجابات لغوايات الغزاة والمستعمرين من توترات طائفية في النسيج الوطني والقومي الحضاري في تلك الفترات من التاريخ . . لكنها ظلت في إطار «التوترات العابرة»، التي ارتبطت بفترات الغزو، وبلاستجابات المحدودة من قطاعات محدودة لغوايات الغزاة . . بينما ظل النسيج الوطني والقومي والحضاري مجسداً للتنوع في إطار الوحدة، وللأختلاف في إطار الأمة الواحدة، والحضارة الواحدة، والقومية الواحدة، والدولة الواحدة، تلك الجوامع التي أفجزتها سماحة الإسلام . .

* * *

وإذا كان الشيء يظهر حسنه الضد . . وبضدها تتميز الأشياء . . فما علينا إلا أن نقارن بين هذه الأمثلة :

* مثال: انتصار الإسلام على الشرك الوثني، ذلك الذي فتن المسلمين في دينهم، وأخرجهم من ديارهم . . وعلى الخيانة اليهودية، التي تحالفت مع الشرك الوثني ضد التوحيد الإسلامي . . انتصار الإسلام عليهم، في عشرين

موقعة هى التى دار فيها قتال . . ما بين سنة ٢هـ وسنة ٩هـ . . هذا الانتصار الذى غيّر وجه الدنيا والحضارة والتاريخ ، وكيف أن ضحايا كل هذه المعارك - من الفريقين - لم تتجاوز ٣٨٦ قتيلًا - ١٨٣ هم مجموع شهداء المسلمين و ٢٠٣ هم كل قتلى المشركين!! (١٥).

بينما نجد الحرب الدينية - التى دامت أكثر من قرنين - داخل النصرانية ذاتها، بين الكاثوليك والبروتستانت، فى القرنين السادس عشر والسابع عشر - قد أريد فيها ٤٠٪ من شعوب وسط أوروبا . . ووفق إحصاء «فولتير» [١٦٩٤ - ١٧٧٨م] بلغ ضحاياها عشرة ملايين نصرانى!! (١٦).

هذا مثال . .

* ومثال ثان: نقارن فيه بين ترك الإسلام الناس وما يدينون؛ لأنه ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦] . . ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] . . و﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦] . . و﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [المائدة: ٤٨] . . وهى المبادئ والقواعد والتشريعات القرآنية التى جسدتها عهود ومواثيق رسول الله ﷺ، مع اليهود والنصارى . .

نقارن بين هذا المثال الإسلامى وبين اغتيال الكنيسة الأوروبية لحرية الاعتقاد الدينى بمحاكم التفتيش التى أعملت التعذيب والسجن والإحراق والإغراق والإعدامات على الخوازيق لأكثر من ثلاثة قرون (١٧)!! . . وكذلك، ما صنعه الملوك والأمراء والقساوسة عندما فرضوا على الناس بحد السيف ديانة النصرانية . . رغم صوفييتها المسالمة وسلامها المتصوف ووصاياها بحب الأعداء ومباركة اللاعنين! . . وبشهادة «السير. توماس أرنولد»، فإن «شارلمان» [٧٤٢ - ٨١٤م] قد فرض المسيحية فى السكسونيين بحد السيف.. وكذلك صنع الملك «كنوت» فى الدانمرك.. وجماعة إخوان السيف فى بروسيا.. والملك «أولاف ترايجفيسون» فى جنوب النرويج.. والأمير «فلاديمير» فى روسيا سنة ٩٨٨م..

والأسقف «دانيال بيتروفتش» فى الجبل الأسود.. والملك «شارل روبرت» فى المجر.. والملك «سيف أرعد» فى الحبشة.. كل هؤلاء استأصلوا المخالفين لمسيحياتهم، وقطعوا أيديهم، وأرجلهم، وذبحوهم ونفوهم وشردوهم، بمجرد تدين هؤلاء الملوك والأمراء بالنصرانية!! (١٨) ..

* ومثال ثالث: نقارن فيه بين سماحة الإسلام، التى جعلت الدولة الإسلامية «متنبدى» تتعدد فيه الديانات والمذاهب واللغات والقوميات والأجناس والألوان، على امتداد تاريخ الإسلام، منذ دولة النبوة فى المدينة المنورة وحتى هذه اللحظات. . وبين ضيق الغرب بالتعددية حتى داخل النصرانية- أى بالتعددية المذهبية- حتى إنه لم يعرف التعددية إلا على أنقاض سلطان النصرانية، وفى ظل العلمانية، ثم رأينا -حتى فى ظل هذه العلمانية، ودعاوى الحرية وحقوق الإنسان- لا يزال ضيق الصدر «بالآخر الإسلامى» .. ففى داخل المجتمعات الغربية يرى الوجود الإسلامى غزواً وفتحاً إسلامياً لأوروبا!، فىقول كبار قساوسة الغرب: «إن الإسلام يشكل تحدياً بالنسبة لأوروبا وللغرب عموماً.. وإن العالم الإسلامى قد بدأ يسطر سيطرته بفضل دولارات النفط.. وهو يبنى المساجد والمراكز الثقافية للمسلمين المهاجرين فى الدول المسيحية.. فكيف يمكننا ألا نرى فى ذلك برنامجاً واضحاً للتوسع، وفتحاً جديداً؟» (١٩) ..

أما فى ديار المسلمين، فلقد سعى هذا الغرب النصرانى -برعاية ودعم العلمانية الغربية للكنائس الغربية! - سعى إلى تنصير المسلمين فى ديارهم. . فجاء فى «پروتوكولات قساوسة التنصير، الذين اجتمعوا فى مؤتمر «كولورادو» بأمريكا مايو سنة ١٩٧٨م: «إن الإسلام هو الدين الوحيد الذى تناقض مصادره الأصلية أسس النصرانية.. والنظام الإسلامى هو أكثر النظم الدينية المتناسقة، اجتماعياً وسياسياً.. ونحن بحاجة إلى مئات المراكز، لفهم الإسلام، ولاخترقه فى صدق ودهاء.. ولذلك، لا يوجد لدينا أمر أكثر أهمية وأولوية من موضوع تنصير المسلمين» (٢٠) ..

ولقد خططوا - فى وثائق هذا المؤتمر - لاختراق الثقافة الإسلامية، والوصول إلى تنصير المسلمين بالاعتماد المتبادل مع الكنائس الوطنية المحلية! .. والعمالة الفنية المدنية الأجنبية! .. وبالتركيز على المرأة! .. والمبعوثين المسلمين فى المجتمعات الغربية. .. وباستخدام الفنون والآداب! .. بل وبصناعة الكوارث التى تُخل بتوازن المسلمين فتسهل تحولهم عن الإسلام إلى النصرانية! .. فقالوا: «لكى يكون هناك تحول إلى النصرانية، فلا بد من وجود أزمات ومشاكل وعوامل تدفع الناس -أفراداً وجماعات- خارج حالة التوازن التى اعتادوها! .. وقد تأتى هذه الأمور على شكل عوامل طبيعية، كالقفر والمرض والكوارث والحروب، وقد تكون معنوية، كالتفرقة العنصرية، أو الوضع الاجتماعى المتدنئ .. وفى غياب مثل هذه الأوضاع المهيئة فلن تكون هناك تحولات كبيرة إلى النصرانية! .. ولذلك، فإن تقديم العون لذوى الحاجة قد أصبح أمراً مهماً فى عملية التنصير! .. وإن إحدى معجزات عصرنا، أن احتياجات كثير من المجتمعات الإسلامية قد بدلت موقف حكوماتها التى كانت تناهض العمل التنصيرى، فأصبحت أكثر تقبلاً للنصارى! ..» (٢١).

وكذلك سعى الغرب «السياسى - العلمانى» إلى شن حرب داخل الإسلام، لإرغام الإسلام على قبول «العلمانية الغربية»، التى تجعله صيغة نصرانية، يدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله .. وعلى قبول «الحداثة» -بمعناها الغربى- التى تقيم قطيعة معرفية كبرى مع الله والغيب، عندما «تؤنَّس» الدين، فتفرغه من الدين! (٢٢) ..

هذه «الحداثة الغربية»، التى عرفها أنصارها بأنها: «إحلال «الدين الطبيعى» محل «الدين الإلهى» فالدين الطبيعى هو الدين الحقيقى! (٢٣) .. وبأنها «القول بمرجعية العقل وحاكميته .. وإحلال سيادة الإنسان وسيطرته على الطبيعة مكان إمبريالية الذات الإلهية وهيمنتها على الكون..»! (٢٤).

تلك مجرد أمثلة ثلاثة، من الجانب الآخر، للذين يحتاجون إلى المقارنات.

* * *

هكذا بدأت السماحة فى تاريخ الإنسانية بظهور الإسلام . . وهكذا وضعت الدولة الإسلامية والحضارة الإسلامية هذه السماحة فى الممارسة والتطبيق، عبر تاريخ الإسلام والمسلمين . . ومن حق المسلمين أن يباهوا الدنيا بهذا المستوى الإسلامى، غير المسبوق، والمنقطع النظير، فى السماحة التى تجاوزت الاعتراف بالآخر -الذى يبادل الإسلام اعترافاً باعتراف- إلى مستوى الاعتراف بالآخر الذى لا يعترف بالإسلام، وإنما يجحده وينكره ويكفر به . . والتى جعلت تمكين هذا الآخر من إقامة كفره بالإسلام جزءاً من عقيدة الإسلام، وواجباً من واجبات الدولة الإسلامية . . حتى لقد بلغ الإسلام -على هذا الدرب- إلى الحد الذى جعل فيه هذا «الآخر» جزءاً لا يتجزأ من «الذات» الوطنية والقومية والحضارية، كما جعل الأقوام والأمم والشعوب والقبائل والحضارات تنوعاً فى إطار الإنسانية، التى أراد الله، سبحانه وتعالى، لها هذا التنوع وهذه التعددية سنة دائمة وقائمة إلى يوم الدين . .

وإذا كان الشئ يظهر حسنه الضد . . وبضدها تتميز الأشياء . . فإن عظمة هذه السماحة الإسلامية تزداد بهاء وجلالاً عندما نراها فى ضوء هذا «البؤس» الذى صنعه ولا يزال يصنعه الآخرون!

وإذا كان من حق المسلمين أن يباهوا بهذه السماحة الإسلامية، فإن من شيم العقلاء، وواجباتهم فقه هذه السماحة، والتعلم منها، والاستجابة إلى كلمتها الإسلامية السواء . . وذلك بدلاً من شن الحروب الصليبية . . والدينية . . والحديث عن صدام الحضارات وحروب الثقافات . .

وآخر دعوانا أن الحمد لله على نعمة الإسلام، وسماحة الإسلام.

* * *

الهوامش:

- (١) يوحنا النقيوسى [تاريخ مصر ليوحنا النقيوسى] ص ٩٠ - ٩٥ : ترجمة ودراسة وتعليق: د. عمر صابر عبد الجليل . طبعة القاهرة ٢٠٠٠م.
- (٢) المصدر السابق : ص ١٢٢ ، ١٢٥ ، ١٣٠ . و: د. صبرى أبو الخير سليم [تاريخ مصر فى العصر البيزنطى] ص ٤٠ ، ٤١ ، ٤٩ ، ١٢٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ . طبعة القاهرة ٢٠٠٠م.
- (٣) انظر كتاب [تاريخ نقد العهد القديم من أقدم العصور حتى العصر الحديث] تحرير: زلمان شارار. ص ٣١ ، ٣٣ - ٣٥ ، ٣٧ - ٣٩ ، ٤٤ ، ٥٠ - ٥٢ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٥ - ٦٨ ، ٧٠ - ٧٤ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٣ - ٩٦ ، ٩٨ - ١٠١ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١١١ ، ١١٧ ، ١٣١ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٥٦ - ١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٧٤ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٩٠ - ١٩٢ ، ١٩٤ - ١٩٦ ، ٢٠٥ - ٢٠٧ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٦ . ترجمة: أحمد محمد هويدى . مراجعة: محمد خليفة حسن . طبعة القاهرة سنة ٢٠٠٠م.
- (٤) ابن عبد الحكم [فتوح مصر وأخبارها] ص ٤٦ : طبعة ليدن سنة ١٩٢٠م.
- (٥) البلاذرى [فتوح البلدان] ص ٣٢٧ . تحقيق: د. صلاح الدين المنجد . طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م.
- (٦) [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة] ص ١٧ - ٢١ . جمعها وحققها: د. محمد حميد الله الحيدر آبادى . طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م.
- (٧) المصدر السابق: ص ٢٠ .
- (٨) المصدر السابق: ص ١١٢ ، ١٢٣ - ١٢٧ .
- (٩) آدم متز [الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى] ج ١ ص ١٠٥ . ترجمة: د. محمد عبد الهادى أبو ريدة . طبعة بيروت سنة ١٩٦٧م.
- (١٠) سيرتوماس أرنولد [الدعوة إلى الإسلام] ص ٧٢٩ ، ٧٣٠ : ترجمة: د. حسن إبراهيم حسن ، د. عبد المجيد عابدين ، إسماعيل النحراوى . طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠م.
- (١١) جورج قرم [تعدد الأديان ونظم الحكم: دراسة سوسولوجية وقانونية مقارنة] ص ٢١١ - ٢٢٤ . طبعة بيروت سنة ١٩٧٩م . والنقل عن: د. سعد الدين إبراهيم [الملل والنحل والأعراق] ص ٧٢٩ ، ٧٣٠ . طبعة القاهرة سنة ١٩٩٠م.
- (١٢) المقرئى [اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء] ص ٢٩٧ ، ٢٩٨ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٧م . [الخطوط] ج ٢ ص ١٢٣ . طبعة دار التحرير القاهرة .

- (١٣) المقرئى [كتاب السلوك إلى دول الملوك] ج ١ ق ٢ ص ٤٢٥، ٤٣٢. تحقيق: د. محمد مصطفى زيادة. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦ م.
- (١٤) الجبرتي [عجائب الآثار فى التراجم والأخبار] ج ٥ ص ١٣٦، تحقيق: حسن محمد جوهر، عمر الدسوقي، السيد إبراهيم سالم: طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥ م.
- (١٥) انظر: ابن عبد البر [الدرر فى اختصار المغازى والسير] تحقيق: د. شوقي ضيف. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ م. وانظر كتابنا [الإسلام والآخر] ص ٦٥ طبعة القاهرة سنة ٢٠٠١ م.
- (١٦) انظر فى هذه الحروب الدينية: ول ديورانت [قصة الحضارة] مجلد ٦ ج ٣، ٤. ترجمة: د. عبد الحميد يونس. طبعة القاهرة سنة ١٩٧١ م، سنة ١٩٧٢ م.
- وسير توماس أرنولد [الدعوة إلى الإسلام] ص ٣٠-٣٢، ٧٢، ٧٣، ١٢٢ - ١٢٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٤١، ١٤٣، ١٥٤ - ١٥٦، ٢٢٣، ٢٢٦، ٢٧٤، ٢٧٦. وبطرس البستاني [دائرة المعارف] - مادة «حروب دينية» - طبعة القاهرة الأولى. وهاشم صالح - صحيفة «الشرق الأوسط» - لندن - فى ٢٦/٢/٢٠٠٠ م.
- (١٧) د. توفيق الطويل [قصة الاضطهاد الدينى فى المسيحية والإسلام] ص ٧، ٧٠، ٧٣، ٧٦، ٧٧، ٨٠، ٨١، ٨٣ طبعة القاهرة سنة ١٩٩١ م.
- (١٨) [الدعوة إلى الإسلام] ص ٣٠، ٣٢، ٧٢، ٧٣، ١٢٢، ١٤٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٤١، ١٤٣، ١٥٤، ١٥٦، ٢٢٣، ٢٢٦، ٢٧٤، ٢٧٦.
- (١٩) الكاردينال «بول بويار» - مساعد بابا الفاتيكان، ومستول المجلس الفاتيكانى للثقافة - من حديث إلى صحيفة «الفيجارو» الفرنسية. والمونسنيور «جوزيبى برناردى» - فى حضرة بابا الفاتيكان - انظر صحيفة «الشرق الأوسط» - لندن - فى ١، ١٣/١٠/١٩٩٩ م.
- (٢٠) [التنصير: خطة لغزو العالم الإسلامى] ص ٢٢، ٢٣، ٤٥٢ - وهو وثائق مؤتمر «كولورادو» - الطبعة العربية. مالطا سنة ١٩٩١ م.
- (٢١) المصدر السابق: ص ٢٤٢، ٨٢٦، ٨٢٧، ٤٦٩، ٣٦٤، ١٤٧. وانظر كذلك ص ٧٨٩، ٧٩٠، ٥٣، ٥٦، ٤، ٥، ٦٢٧، ٦٣٠، ٣٨٣، ٨٤٥، ٧٣٢، ٧٣٣، ٨٨٠، ٦٤٤، ٨٣٩، ٢٤، ٢٦.
- ٢٨، ٣٣٨، ٣٣٩. وانظر كتابنا [الغارة الجديدة على الإسلام] طبعة القاهرة سنة ١٩٩٨ م.
- (٢٢) فوكوياما - مجلة «نيوزويك» - الأمريكية - العدد السنوى - ديسمبر سنة ٢٠٠١ م - فبراير سنة ٢٠٠٢ م.
- (٢٣) هاشم صالح - صحيفة «الشرق الأوسط» - لندن - فى ١٣/١٢/٢٠٠١ م.
- (٢٤) د. على حرب - صحيفة «الحياة» - لندن - فى ١٨/١١/١٩٩٦ م.

صورة الإسلام فى خطاب الهيمنة الغربية

مقدمات ثلاث:

فى الحديث عن «صورة الإسلام» وأمته وحضارته فى الخطاب الغربى، لا بد من التقديم بين ىدى هذا الحديث بعدد من المقدمات:

أولاهـا: أننا لسنا بإزاء «صورة» واحدة؛ لأن الغرب ليس كتلة واحدة صماء، ومن ثم فإننا لسنا بإزاء خطاب غربى واحد فيما يتعلق بالإسلام..

وهذا الموقف، الذى يميز بين القوى والتيارات وألوان الخطاب، عن الإسلام فى الحضارة الغربية، ليس مجرد «ضرورة مصلحية» يقتضيها البحث عن الأصدقاء وتجنب تكثير الأعداء - وهى ضرورة مشروعة ومطلوبة- وإنما هو موقف نابع من «العدل» الذى يعلمنا إياه ويفرضه علينا القرآن الكريم..

ونحن نقول، للذين يسطحون القضايا العميقة، ويسطّون الأمور المعقدة والمركبة، عندما يرددون عبارة: «إن الكفر ملة واحدة».. نقول لهم: ولكن الإسلام لا يضع كل عالم الكفر فى سلة واحدة، ولا فى مرتبة واحدة وإنما يميّز الإسلام بين المشركين وبين الكتائبين.. بل إن الإسلام لم يضع المشركين جميعاً فى سلة واحدة، وإنما يميّز بين المحاربين منهم وبين المعاهدين الذين لم ينقصوا المسلمين شيئاً من العهود التى تعاقدوا معهم عليها، فدعا إلى قتال المقاتلين من المشركين، ودعا إلى الوفاء بعهود المعاهدين من المشركين.. بل وميّز الإسلام بين شرك الجاحد للحق الذى يعرفه، وبين شرك الجاهل، فإذا استجار هذا المشرك الباحث عن المعرفة، فعلى المسلمين إجارته، وتقديم المعرفة إليه، ثم إيصاله آمناً إلى مأمنه، وتركه لضميره، دونما إكراه ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ

الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجَرَهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلَغَهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿التوبة: ٦٠﴾ . .

بل لقد ميز الإسلام بين الدهريين، الذين استبدلوا الدهر بالخالق، سبحانه وتعالى، وبين المشركين الذين لم يجحدوا وجود الخالق وخلقه للخلق، لكنهم أشركوا مع الخالق الوسائط التي زعموا أنها تقربهم إليه زلفى! . . وتحدث آيات القرآن الكريم عن هذا التنوع في أصناف المشركين، فصاغت المنهاج العلمي في دراسة الواقع، والموقف العادل في التعامل مع الآخرين . .

وكذلك صنع المنهاج الإسلامى في التعامل مع الكتائبين، فميز بين اليهود - الذين هم أشد الناس عداوة للذين آمنوا - وبين النصارى - الذين هم أقرب مودة للمؤمنين - . . ثم هو لم يضع جميع النصارى في سلة واحدة وإنما ميز بين الموحدون منهم ، الذين يتعبدون على شريعة عيسى، عليه السلام، وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ﷺ ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق . . يميز الإسلام بين هؤلاء النصارى، وبين النصارى الذين عبدوا المسيح وأمه والأحبار والرهبان من دون الله، فوصفوا في القرآن بصفات الكفر، بل وبالشرك أيضاً.

وكذلك صنع المنهاج القرآنى مع فصائل ومذاهب اليهود . . فمع حديثه عن عداوتهم الأشد للمؤمنين، نجد القرآن يبلغ قمة العدل عندما يقول إنهم ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣- ١١٥] . . بينما منهم الذين لا يتناهون عن منكر فعلوه ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرِ فَعْلُوهُ لِبَئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩] . .

ويؤكد القرآن الكريم هذا المنهاج العادل في التعامل مع الآخر الكتابي عندما يستخدم حرف التبويض -«من»- للتمييز بين فرقائهم ومذاهبهم، فيقول: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩].. وعندما يتحدث عن ﴿طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران: ٦٩].. أو ﴿كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [البقرة: ١٠٩].. دونما إطلاق أو تعميم..

ومع اشتراك الفرس والروم -يوم ظهر الإسلام- في التجبر والظلم والهيمنة والاستعمار، وإعلان الإسلام عن سعيه لتحرير الأرض من استعمارهم وتحرير الضمائر من تجبرهم وإكراههم، إلا أن الإسلام لم يسوّ بين هذين الطاغوتين -الفرس والروم- فميز القرآن بين الكتائبين منهم -الروم- وبين المجوس- الفرس- عندما تحدث عن حزن المسلمين لتغلب الفرس على الروم، وفرحهم يوم يأذن الله بانتصار الروم النصارى على الفرس المجوس: ﴿الَّذِينَ غَلِبَتْ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الروم: ١-٥]..

ففي إطار قوى التجبر والهيمنة هناك أيضاً فروق، لا يغفلها منهاج الإسلام في رؤية الآخرين، وفي العلاقات مع هؤلاء الآخرين.. ولقد جاء فقهاء الإسلام وفلاسفته، انطلاقاً من هذا المنهاج القرآني، فميزوا أصناف الكفر ودرجاته.. فهناك كفر جحود للحق الذي عرفه الجاحدون.. وهناك كفر جهل وتقصير.. وهناك كفر من بلغته الدعوة.. وكفر من لم تبلغه الدعوة.. أو بلغته مشوهة، ودون إقامة الحجة عليها وإزالة الشبهات عنها.. وفي ذلك يقول حجة الإسلام أبو حامد الغزالي [٤٥٠-٥٠٥هـ- ١٠٥٨-١١١١م]: «إن أكثر نصارى الروم والترك في هذا الزمان تشملهم الرحمة إن شاء الله تعالى، أعنى الذين هم في أقاصى الروم والترك، ولم تبلغهم الدعوة، فإنهم ثلاثة أصناف: صنف لم يبلغهم اسم محمد ﷺ أصلاً، فهم معذورون.

وصنف بلغهم اسمه ونعته وما ظهر عليه من المعجزات، وهم المجاورون لبلاد الإسلام والمخالطون لهم، وهم الكفار الملحدون.

وصنف ثالث بين الدرجتين، بلغهم اسم محمد ﷺ ولم يبلغهم نعته وصفته، بل سمعوا أيضاً منذ الصبا أن كذاباً مُلبساً اسمه محمد ادعى النبوة، كما سمع صبياننا أن كذاباً يقال له المقفع^(١) بعثه الله تحدى بالنبوة كاذباً. فهؤلاء عندي فى معنى الصنف الأول - [الذين لم يبلغهم اسم الرسول] - فإنهم مع أنهم سمعوا اسمه، سمعوا ضد أوصافه، وهذا لا يحرك داعية النظر فى الطلب^(٢).

بل وتحدث الفقهاء، أيضاً، عن «كفر النعمة» الذى هو مغاير «الكفر الاعتقاد» . وقالوا بوجود «كفر دون كفر» وبكفر «المقولة» دون كفر «القائل»، الذى قد يكون لديه تأويل حتى ولو كان فاسداً. فلم يضعوا كل ألوان الكفر فى سلة واحدة ولا فى فسطاط واحد. كما يصنع الذين يسيطون أمور التعامل مع الآخرين.

* * *

ولقد وضع علماء مدرسة الإحياء والتجديد الحديثة، فى بلادنا، وقادة التحرر الوطنى، الذين انطلقوا من هذا المنهاج الإسلامى، لتحرير بلادنا من الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة. وضعوا هذا المنهاج الإسلامى - الذى لا يضع كل الآخر فى سلة واحدة - فى الممارسة والتطبيق، وهم يتعاملون مع الاستعمار الغربى لعالم الإسلام، ومع الخطاب الغربى الذى كان يمهد ويبرر لهذا الاستعمار.

فجمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ - ١٨٣٨ - ١٨٩٧ م] قد تحدث عن هذا المنهاج فى المقال الافتتاحى لمجلة «العروة الوثقى» التى صدرت [١٣٠٠ هـ - ١٨٨٣ م] لسان حال «الجمعية العروة الوثقى» التى تكونت عقودها وخلاياها فى الشرق الإسلامى - وذلك عندما تحدث عن تحالف هذه الجمعية مع الأحرار الأوروبيين فى البلاد الاستعمارية ذاتها. . فقال: «ولما كانت بدايتهم تستدعى

مساعدة من يضارعهم فى مثل حالهم رأوا أن يعقدوا الروابط الأكيدة مع الذين يتململون من مصابهم، ويحبون العدالة العامة، ويحامون عنها من أهل أوربا»^(٣).

ولقد سارت الحركات الوطنية فى بلادنا على هذا المنهج . . فوجدنا مصطفى كامل باشا [١٢٩١-١٣٢٦ هـ ١٨٧٤-١٩٠٨ م] -باعتث الوطنية المصرية ضد الاحتلال الإنجليزى، وداعية الجامعة الإسلامية، وزعيم «الحزب الوطنى» - يتحالف مع القوى الحرة والليبرالية فى فرنسا وأوروبا . . بل ويراهن على التناقضات بين الاستعمار الفرنسى والاستعمار الإنجليزى فى جلب التأييد لإجلاء الانجليز عن مصر . .

وعلى درب مصطفى كامل باشا، سار خليفته فى زعامة الحزب الوطنى - بمصر- محمد بك فريد [١٢٨٤-١٣٣٨ هـ ١٨٦٨-١٩١٩ م] الذى لم يكتف بالتحالف مع الدولة العثمانية، والحركات الوطنية الإسلامية، وإنما تحالف أيضاً مع الاشتراكيين الأوربيين وشارك فى المؤتمرات التى عقدوها . . بل وراهن على التناقضات بين الألمان وبين الإنجليز فى هذا الميدان . .

وعلى نفس الدرب سارت حركات التحرر الوطنى المعاصرة فى بلادنا، عندما استفاد كثير منها من التناقضات التى قامت إبان الحرب الباردة بين المعسكر الاشتراكى والمعسكر الرأسمالى . . سواء أكانت هذه الاستفادة فى التسليح . . أم فى التصنيع . . أم فى قضايانا بالمحافل الدولية . .

ذلك هو المنهاج الإسلامى فى النظر إلى الآخر -كل آخر- وفى التعامل معه، ومع الخطاب الصادر عنه . . فالبلاغ القرآنى القائل: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً...﴾ هو عنوان المنهاج الإسلامى فى هذا المقام . .

* * *

والمقدمة الثانية: هى أن الخطاب الغربى عن الإسلام وأمته وحضارته، ليس مجرد «مقولات نظرية»، ولا تعبيرات عن صور ذهنية مجردة، وإنما هو بناء فكرى مركب، نما عبر تاريخ الاحتكاك العنيف بين الغرب والشرق، لا ليقف

عند أفكار المفكرين وكتابات الكاتبين ونظريات المنظرين، وإنما ليكون التبرير المسوّغ لهيمنة الغرب على الشرق، واحتلال أرضه، ونهب ما فيها من ثروات.. فهو خطاب تبريري لتسويق ممارسات لا أخلاقية، تجسدها الإمبريالية والاستعمار في أرض الواقع.. وهذا الخطاب الغربى عن الإسلام وأمنه وحضارته، تتوجه به الدوائر الاستعمارية الغربية إلى العقل الشرقى، لتغريب عقول شريحة من نخب مفكرينا ومثقفينا، الذين يتبنون هذه الصورة الغربية عن الإسلام وحضارته فيصباحون -بيننا- «عملاء حضاريين» للغرب، ييشرون بالتبعية للمركز الغربى.. على النحو الذى تحدث عنه جمال الدين الأفغانى عندما قال: «إن المقلدين لتمدن الأمم الأخرى ليسوا أرباب تلك العلوم التى ينقلونها.. ولقد علمتنا التجارب أن المقلدين من كل أمة، المتحلين أطوار غيرها، يكونون فيها منافذ لتطرق الأعداء إليها، وطلائع لجيوش الغالبيين وأرباب الغارات، يمهّدون لهم السبيل، ويفتحون لهم الأبواب، ثم يثبتون أقدامهم»^(٤).

كما يتوجه الغرب الاستعماري بهذه الصورة التى صنعها ويصنعها للإسلام وحضارته، إلى شعوبه هو، كى يبرر أمامها سلوكه العدوانى الاستعماري ضد الشعوب التى يستعمرها، وكى يخيف شعوبه من الإسلام، فيجرها إلى التضحية فى معاركه -الفكرية.. والقتالية- ضد الإسلام وعالمه..

والآن.. وبعد نمو الوجود الإسلامى فى المجتمعات الغربية.. بأوروبا.. وأمريكا.. وأستراليا- غدا المسلمون فى تلك البلاد يعانون معاناة مضاعفة من آثار ذلك الخطاب، حتى لقد أصبحوا محرومين من مميزات الليبرالية الغربية، وامتيازات الحريات والحقوق المدنية، وغدوا متهمين لمجرد أنهم مسلمون، ومحرومين من أبسط ثوابت وضوابط وشروط العدالة فى المحاكمات أمام القضاء- إذ يحاكمون ويدانون «بأدلة سرية» لا يعلمون عنها شيئاً!!- بل وغدوا ضحايا لاعتداءات وإيذاءات مادية ومعنوية، زادت فى أمريكا بعد قارعة ١١ سبتمبر ٢٠٠١م، أكثر من ١٦٠٠ ٪ عما كانت عليه قبل هذه القارعة -كما رصدت ذلك منظمات أمريكية لحقوق الإنسان-^(٥).. حتى ليوشك الخطاب

الغربي، والممارسات الغربية أن تدخل المسلمين- لمجرد أنهم مسلمون- في دورة جديدة من دورات «محاكم التفتيش» التي نصبها الغرب للإسلام والمسلمين عقب سقوط «غرناطة»، واقتلاع الإسلام من الأندلس [١٩٧هـ-١٤٩٢م]..!

فنحن - إذن- بإزاء خطاب غربي عن الإسلام، له آثار كارثية في أرض الواقع.. ولسنا بإزاء مجرد أفكار نظرية، وصور ذهنية سلبية عن الإسلام.

* * *

والمقدمة الثالثة: هي أن نزعة «المركزية الغربية»، التي لا تعترف بالآخر غير الغربي- الديني منه والثقافي والحضاري- بل ولا تعترف بالغربي الأبيض إذا كان مسلماً، كما هو حالها إزاء الأوروبيين المسلمين- في ألبانيا.. والبوسنة.. والسنجق.. وكوسوفا.. ومقدونيا.. وتركيا- إن هذه «النزعة المركزية الغربية» تلعب دوراً محورياً وكبيراً في تراكم ثقافة هذا الخطاب الغربي عن الآخر الإسلامي، فعدم الاعتراف بالآخر «كأمر واقع»، فإن عدم الاعتراف بشرعيته ومشروعيته وحقه في الوجود المتميز والمستقل، يزكى دائماً وأبداً السعى إلى إلغائه وطى صفحته من الوجود.. فالغرب الليبرالي الرأسمالي ظل لأكثر من سبعين عاماً يعترف بالشمولية الشيوعية «كأمر واقع»، ولكنه لم يعترف أبداً بشرعيتها ومشروعيتها وحقها في الوجود المستقل والمتميز.. ولذلك، ظل موقفه الدائم هو موقف الساعي إلى إسقاطها وطى صفحتها من الوجود، وعندما تحقق له ذلك اعتبر هذا الانتصار «نهاية التاريخ»!!..

ولقد لعبت هذه «النزعة المركزية»- نزعة عدم الاعتراف بشرعية ومشروعية الوجود الحر والمستقل والمتميز للآخر- لعبت الدور المحوري في التعبئة الفكرية والمادية لإلغاء وجود هذا الآخر، ولتبرير وراثته ما في حوزته من أوطان وثروات!!..

بل لقد استعان الغرب -فى سبيل تأكيد «نزعته المركزية» هذه- بالنظريات العلمية الزائفة، مثل «الداروينية» التى زعمت أن الصراع هو قانون العلاقة بين الأحياء، وأن البقاء للأقوى؛ لأن الأقوى هو الأصلح. . فانطلق الغرب الاستعماري من هذا الزيف لتبرير إغائه لثقافات وحضارات الأمم والشعوب التى ابتليت باستعمارهم لبلادها. . بحجة أنها الضعيفة، وأنه الأقوى. . فلها الفناء، وله وحده ولحضارته البقاء!! . . وفى سبيل تكريس هذا الزيف الغربى، بلور الغرب علماً سماه «علم الأثروبولوجيا الاجتماعية»، والخاص بدراسات «المجتمعات البدائية»، التى هى- فى عرف الغرب- المجتمعات غير الغربية. . فهى بدائية. . وهو المتقدم. . وهى الضعيفة. . وهو الأقوى. . فلها الإبادة، وله البقاء. . بحكم هذا الزيف الذى جعله الغرب «علماً»!! . . والذى توجه «بخطابه» إلى شعوبه. . وإلى شعوبنا أيضاً! . .

وفى الموقف الغربى من الآخر الإسلامى تنهض هذه «النزعة المركزية» بالدور المحورى فى اختراع الصور الغربية عن الإسلام، وفى إذكاء روح العداء الغربى للحضارة الإسلامية، وفى التبرير لحروب الغرب - الفكرية. . والقتالية- ضد عالم الإسلام وأمتة وحضارته. .

وإذا كانت المواجهة- التاريخية. . والحديثة. . والمعاصرة- إنما هى قائمة بين «المشروع الغربى» الذى ينفى «المشروع الإسلامى»، فإن هذا النفى الغربى للإسلام وحضارته له جذور عميقة فى تصورات الثقافة الغربية عن الإسلام، وهذه الجذور الرافضة والنافية للآخر الإسلامى حية وفاعلة -بل ونامية- حتى هذه اللحظات. .

نجد ذلك فى «المشروع الكنسى» الغربى، الذى أعلن -بلسان البيروتستانت فى «مؤتمر كولوراڊو» سنة ١٩٧٨م -ضرورة اختراق الإسلام، لتنصير كل المسلمين! . . كما أعلن هذا «المشروع الكنسى» -بلسان الكاثوليك- ضرورة أن تصبح أفريقيا نصرانية سنة ٢٠٠٠م. . فلما خاب الرجاء غير الصالح، أجلوا

التاريخ إلى سنة ٢٠٢٥م!! وتعبّر عن هذا «المشروع الكنسى» حتى فرنسا العلمانية- بلسان رئيسها الأسبق «فلرى جيسكار دى ستان» عندما أعلن استحالة قبول تركيا فى الاتحاد الأوروبى، لأنها مسلمة، والاتحاد الأوروبى «نادى مسيحى»!! .

أما «لسان» الغرب الأرثوذكسى، فلقد مارس هذا النفى للإسلام، بالمجازر والمقابر الجماعية، على أرض البلقان والشيشان.. كما تمارسه الصهيونية -وهى امتداد غربى- متحالفة مع الصليبية الغربية- على أرض فلسطين!! .

بل إن كنائس الغرب -التي خانت نصرانيتها- لا تستحى عندما تعلن هذا النفى للإسلام، حتى فى المؤتمرات التى «تُحاور» فيها رموز الإسلام، فى عقر دار الإسلام!!.. ففى مؤتمر «الحوار الإسلامى - المسيحى»، والذي عقد بالقاهرة - بدعوة من «المنتدى العالمى للحوار» -بجدة- ومؤتمر «العالم الإسلامى»- والذي انعقدت جلساته فى فندق «شيراتون هليوبوليس» فى ٢٨ - ٢٩ أكتوبر سنة ٢٠٠١م.. رفض ممثل القاتيكان، نائب الأمين العام للمجلس البابوى للحوار بين الأديان، القس «خالد أكشة».. ومثل «مجلس الكنائس العالمى» الدكتور «طارق م ترى».. رفضا التوقيع على البيان الختامى للمؤتمر؛ لأنه وضع الإسلام -مع اليهودية والنصرانية- تحت وصف «الأديان السماوية الربانية»، وقالوا: «إن وصف الإسلام كدين سماوى وربانى، لا يزال محل خلاف لم يُحسم بعد»!!..

ولقد علق الدكتور يوسف القرضاوى -وكان مشاركاً مع شيخ الأزهر فى هذا المؤتمر- على هذا الموقف فقال: «إننى أستغرب من توجس بعض رجال الدين المسيحى من وصف الإسلام بالربانية والسماوية.. وإذا كان القاتيكان والكنائس العالمية لا تعترف بالإسلام كدين سماوى فلماذا نجتمع إذن؟! وإذا لم يقر رجال الدين المسيحى والقاتيكان بأن الإسلام دين ربانى فلا داعى من اللقاء والحوار»..^(٦)

إنهم يعترفون بالإسلام «كأمر واقع»، ويصنفونه ضمن «الديانات الوضعية»، غير السماوية وغير الربانية، وذلك لتبرير السعى الكنسى الدائب والدائم لتنصير

المسلمين، وطمى صفحة الإسلام من الوجود، انطلاقاً من «النزعة المركزية» التى لا تعترف بالآخرين.. فتسعى إلى إلغائهم، بضمير مستريح!..

كذلك نجد هذا النفى للآخر، والرفض لمشروعية وجوده المتميز والمستقل، فى «المشروع الحضارى» الغربى، الذى لا يعترف بالتعددية الحضارية العالمية.. وإن اعترف بالحضارات غير الغربية «كأمر واقع»، فهو يسعى - بالتغريب وعولة نموذج الحضارى - إلى إلغاء هذه التعددية الحضارية، والانفراد الغربى بالعالم كله.. وفى سبيل ذلك يستخدم «نزعة صدام الحضارات».. وصراع الثقافات» كحتمية مزعومة - لتبرير سيادة هذه النزعة المركزية على النطاق العالمى..

وفيما يتعلق بالنفى الغربى للإسلام - على وجه الخصوص - يكفى أن نشير إلى كلمات المستشرق الفرنسى «جاك بيرك» [١٩١٠-١٩٩٥م] التى يقول فيها: «إن الإسلام، الذى هو آخر الديانات السماوية الثلاث، والذى يدين به أكثر من مليار نسمة فى العالم، والذى هو قريب من الغرب جغرافياً، وتاريخياً، وحتى من ناحية القيم والمفاهيم.. قد ظل، ويظل حتى هذه الساعة، بالنسبة للغرب: ابن العم المجهول، والأخ المرفوض.. والمنكور الأبدى.. والمبعد الأبدى.. والمتهم الأبدى.. والمشتبه فيه الأبدى»!..(٧).

لقد قال «جاك بيرك» هذا الكلام، المعبر - وهو الخبير فى الثقافة الغربية.. وفى الإسلام معاً - عن نفى الغرب للإسلام وحضارته وأمته، كموقف ثابت ودائم.. وقدم هذه الصورة للإسلام فى الثقافة الغربية، والحضارة الغربية والمنارسات الغربية، قبل «قارعة سبتمبر سنة ٢٠٠١م» بسبع سنوات!.. وكأنه كان يصف «طوفان» ثقافة الكراهية السوداء التى انهالت على الإسلام وأمته وحضارته عقب سبتمبر سنة ٢٠٠١م!..

فنحن أمام موقف ثابت ودائم، من قبل المشروع الكنىسى الغربى.. والمشروع السياسى والحضارى الغربى.. وهو موقف ينفى الآخر الإسلامى، ليبرر العدوان الاستعمارى والهيمنة الحضارية على عالم الإسلام.

* * *

تلك هي المقدمات التي رأيناها ضرورية بين يدي الحديث عن صورة الإسلام في الخطاب الغربى . . . وهي مقدمات تؤكد على ضرورة التمييز في الخطاب الغربى بين الحق والباطل . . . بين الصواب والخطأ . . . بين الإنصاف والتزيف . . . وذلك كثمرة للتمييز فى الغرب بين : «الإنسان الغربى» . . . وبين «مشروع الهيمنة الغربى» . . . فالمشكلة هى مع المشروع الغربى ، بشقيه : السياسى الاستعمارى . . . والكنسى التنصيرى . . . على وجه الحصر والتحديد . . . وليست هناك مشكلة مع الإنسان الغربى ، ولا مع العلم الغربى ، على وجه الإطلاق . . .

التاريخ الصانع للصورة

إن «الجدل» بين «الواقع» وبين «الفكر» هو حقيقة علمية ، لا تنفرد بها بعض الفلسفات الاجتماعية الغربية . . . بل لقد سبق الإسلام إلى تقرير هذه الحقيقة فيما عرفناه من العلاقة بين آيات القرآن الكريم و«مناسبات» نزولها . . . والعلاقة بين الأحاديث النبوية «وأسباب ورود» هذه الأحاديث . . . وهذا «الجدل» بين «الواقع» وبين «الفكر» هو مما تكاد تلمسه العقول فى الدراسات الاجتماعية لنشأة الأفكار وتطورها . . .

ولقد كان «واقع» الاستعمار الغربى للشرق منبعاً أصيلاً لكثير من الصور الزائفة التى صنعها الغرب للشرق . . . وهى الصور التى عادت لتزكى ولتبرر ، فى المخيلة الغربية ، نزعة الاستعمار والاستعلاء والاحتواء والاستغلال . . .

ولأن تاريخ الاستعمار الغربى للشرق سابق على ظهور الإسلام ، فلقد صنع الغرب الرومانى والبيزنطى للنصرانية المصرية والشرقية ، ولثقافة الشرق وحضارته الصور الزائفة التى بررت القهر والاضطهاد والإبادة التى مارسها الرومان والبيزنطيون عشرة قرون ضد الشرق والشرقيين - من «الإسكندر الأكبر» [٣٥٦ - ٣٢٣ ق.م] - فى القرن الرابع قبل الميلاد - وحتى «هرقل» [٦١٠ - ٦٤١ م] - فى القرن السابع للميلاد . . .

ولأن الإسلام هو الذى حرر -بفتوحاته- أرض الشرق من الاستعمار

والاستغلال الرومانى البيزنطى، وحرر ضمائر الشرقيين من الاضطهاد والقهر الدينى والحضارى، فلقد بدأت الصورة الغربية المعادية للإسلام وحضارته وأمته ودولته وعالمه تتبلور فى الثقافة الغربية -الدينية.. والمدنية- منذ ذلك التاريخ.. . لقد كانت الحضارة الشرقية، بنصرانياتها اليعقوبية، هى «العدو -البربرى- الهمجى»، بنظر الرومان البيزنطيين.. . فلما أصبحت الحضارة الشرقية إسلامية، أصبحت هى العدو الجديد، الذى حلت صورته محل صورة العدو القديم.. . تماماً كما صنع الإعلان الغربى عقب سقوط الشيوعية -فى العقد الأخير من القرن العشرين- عن أن الإسلام هو العدو الذى حل محل إمبراطورية الشر الشيوعية!.. .

لقد بدأ العداء الغربى للإسلام منذ ظهور الإسلام وتحريره الشرق والشرقيين من هيمنة الرومان.. . وفى هذا المقام يقول الكاتب والقائد الإنجليزى «جلوب باشا» [١٨٩٧-١٩٨٦م] كلمته التى توقظ النيام:

- «إن تاريخ مشكلة الشرق الأوسط إنما يعود إلى القرن السابع للميلاد»!!.. .

ومنذ ذلك التاريخ توالى محاولات الغرب إعادة اختطاف الشرق من الإسلام:

* فكانت الموجة الاستعمارية الصليبية، التى دامت قرنين [٤٨٩-٦٩٠هـ ١٠٩٦-١٢٩١م] والتى شارك فيها الغرب كله، بقيادة الكنيسة الكاثوليكية، وتمويل المدن التجارية الأوروبية، وسيوف أمراء الإقطاع الأوروبيين.. . ولقد انتهت هذه الموجة بالهزيمة على يدى الفروسية الإسلامية، التى اقتلعت قلاعها، وهدمت حصونها، وأزالت كل آثارها.. .

* ثم جاءت الموجة التتيرية زاحفة على الشرق الإسلامى، بدعوة من الصليبيين الأوروبيين- الذين تحالفوا مع الوثنية التتيرية ضد التوحيد الإسلامى!- ولقد هدبت هذه الموجة التتيرية التى كان يقود جيوشها نصارى نساطرة!- هددت الوجود الإسلامى ذاته.. . ثم كانت هزيمتها الساحقة على

يدى الفروسية الإسلامية فى «عين جالوت» [٦٥٨هـ - ١٢٦٠م].. ثم انتهت بانتصار الإسلام فى عقول وقلوب التتار، فدخلوا الإسلام، وتحولوا إلى سيوف فى معارك هذا الدين!..

* ومنذ سقوط «غرناطة» [٨٩٧هـ - ١٤٩٢م] ونجاح الصليبية الأوروبية فى اقتلاع الإسلام وحضارته المشرقة وثقافته السمحة من الأندلس، بدأت مرحلة جديدة فى هذه الحرب الغربية على الإسلام وأمته وحضارته وعالمه.. بدأت مرحلة الالتفاف حول العالم الإسلامى -مرحلة التطويق- مروراً بسواحل أفريقيا الغربية والجنوبية.. ووصولاً إلى الأطراف الإسلامية فى الجنوب الشرقى لآسيا- الفيليبين.. والهند.. وإندونيسيا.. وذلك تمهيداً لضرب قلب العالم الإسلامى -الوطن العربى- بحملة «بونابارت» [١٧٦٩ - ١٨٢١م] على مصر [١٢١٣هـ - ١٧٩٨م]..

وبان هذه المرحلة -مرحلة الغزوة الاستعمارية الحديثة- تميز التحدى الغربى عن الحقبة الصليبية الأولى بالغزو الفكرى، المصاحب لاحتلال الأرض، ونهب الثروات.. أى بصناعة الصورة الغربية للإسلام وحضارته وأمته، تلك الصورة التى نمت مكوناتها لتزكى وتبرر للغرب نفى الآخر الإسلامى، ولتشحن الشعوب الأوروبية بالعداء للإسلام، حفزاً لها على مواصلة الغزو والاحتلال لبلاد الإسلام..

وخلال هذه القرون -من طمع الغرب باستعادة الشرق من الإسلام- تبلور الخطاب الغربى حول الشرق، على النحو الذى يخدم تحقيق هذه الاستراتيجية الاستعمارية الغربية.. وهو خطاب متنوع ومتكامل فى ذات الوقت.. متنوع بتنوع الدوائر الصادر منها.. ومتكامل لتحقيق هذه الاستراتيجية الغربية الواحدة.. ومتنوع كذلك بتنوع الجمهور الذى يتوجه إليه هذا الخطاب..

* فالغرب الكنسى اللاهوتى، له خطاب دينى يسعى به إلى تنصير المسلمين.. وحتى الدوائر العلمانية فى النظم السياسية الغربية- بما فيها

العمانية الفرنسية المتطرفة- تدعم هذا المشروع الكنسى التنصيرى وخطابه
اللاهوتى؛ لأنه يصب -بالنهاية- فى تحقيق استراتيجية إلحاق الشرق بالغرب،
وهيمنة الحضارة الغربية- المسيحية بمعنى من المعانى- على حضارة الإسلام..
ومن هنا كان دعم حكومات فرنسا العلمانية لمدارس الإرساليات التنصيرية فى
الشرق العربى؛ لأنها -وفق عبارة قناصل الحكومة الفرنسية فى بيروت-:
«تستهدف جعل سوريا -[أى الشام الكبير]- حليفًا أكثر أهمية من مستعمرة!..
وتأمين هيمنة فرنسا على منطقة خصبة ومنتجة!.. وتحويل الموارد إلى جيش متفان
لفرنسا فى كل وقت!.. وجعل البربرية العربية -[كذا]- تنحنى لا إرادياً أمام
الحضارة المسيحية لأوروبا»!!^(٨)..

فالهدف الاستراتيجى، الذى يجتمع عليه الغرب الاستعمارى -الكنسى منه
والسياسى- هو إعادة اختطاف الشرق من الإسلام، والتوصل إلى ذلك بتشويه
صورة الإسلام، أو طى صفحة وجود هذا الإسلام!..

* والغرب السياسى - القائد لهذا المواجهة - بعد إزاحة الكنيسة عن مركز
القيادة- له خطاب سياسى وثقافى وحضارى، يسعى إلى تغريب
الشرق، واحتلال عقل النخب من أبنائه، لتأييد احتلال الأرض ونهب الثروات،
عندما يصبح الغرب وغودجه الحضارى والقيمى هو قبلة عقول هذه النخب من
المفكرين والمثقفين..

* ومع توجيه هذا الخطاب الغربى.. الثقافى واللاهوتى- فى الأساس- إلى
عقول المسلمين الشرقيين.. فلقد توجهوا به كذلك إلى رأى العام الغربى،
لإقناعه بضرورته، ولكسب تأييده لمراميه.. ولإشراكه فى الإنفاق عليه،
والتهوض بتبعاته، والحرب فى سبيله..

* وإذا كان طمع الغرب الاستعمارى -السياسى والكنسى- قد شمل العالم
كله، وليس فقط عالم الإسلام، فلقد تميّز الخطاب الغربى للعالم الإسلامى عن
خطابه للحضارات غير الإسلامية؛ بسبب تميز الإسلام ودوره فى هذه المواجهة

التاريخية بين الغرب والإسلام.. فالإسلام ليس مجرد حضارة متميزة عن الحضارة الغربية - كما هو الحال مع الحضارات الأخرى: الصينية.. والهندية.. واليابانية- وإنما هو- مع هذا التميّز- حضارة عالمية، وليست محلية كتلك الحضارات، ومن ثم فهو المنافس الأول والأخطر للحضارة الغربية على النطاق العالمى، بل وفى عقر دار الحضارة الغربية ذاتها!.. ومن هنا كان إحياء الغرب وإنعاشه لذاكرة شعوبه بذكريات:

- الفتوحات الإسلامية الأولى التى حررت الشرق من هيمنة الغرب - فى القرن السابع الميلادى- بعد عشرة قرون من القهر الحضارى -الإغريقى.. والرومانى.. والبيزنطى- للشرق..

- وذكريات الوجود الإسلامى فى الأندلس - والذى استمر ثمانية قرون [٩٢- ٨٩٧هـ - ٧١١ - ١٤٩٢م] -وهو الوجود الذى كاد يدخل كل جنوب أوروبا ووسطها فى دائرة الإسلام، لولا الهزيمة الإسلامية فى معركة «بلاط الشهداء» [١١٤هـ - ٧٣٢م]..

- وذكريات الهزيمة الصليبية أمام الفروسية الإسلامية، وفشل الحملات الصليبية فى إعادة اختطاف الشرق والقدس من الإسلام، رغم استمرار هذه الحملات قرنين من الزمان [٤٨٩ - ٦٩٠هـ - ١٠٩٦ - ١٢٩١م]..

- وذكريات المطاردة العثمانية للتحدى الأوروبى على أرضه.. وفيها تم فتح القسطنطينية [٨٥٧هـ - ١٤٥٣م].. ثم أوغلت هذه المطاردة على أرض البلقان.. حتى وصلت إلى أسوار «قينا» فى [٩٣٥هـ - ١٥٢٩م] وفى [١٠٩٤هـ - ١٦٨٣م]..

- وذكريات السيطرة الإسلامية على البحار الكبرى للكرة الأرضية - الأبيض.. والأحمر.. والعرب.. والأسود.. - لأكثر من عشرة قرون، كان المسلمون فيها هم «العالم الأول» على ظهر هذا الكوكب..

كان المشروع الغربى - السياسى منه والكنسى- حريصًا دائمًا وأبدًا، على

إنعاش ذاكرة الشعوب الغربية بذكريات «خطر العالمية الإسلامية» على استراتيجيته، وذلك لتأجيج حماس تلك الشعوب فى معركة الغرب لاستعادة الشرق مرة أخرى من الإسلام..

وفى كل مفردات هذا الخطاب الغربى -اللاهوتى منه والسياسى والثقافى والتعليمى والإعلامى- كان الغرب حريصاً على توجيه أمضى أسلحته وأخطرها إلى الإسلام- الدين .. والثقافة .. والحضارة- باعتباره النموذج الذى حرر الشرق من الرومان ومن الصليبيين، والطاقة المقاومة لكل محاولات هيمنة الغرب على الشرق من جديد..

ولقد أثمرت تراكمات مفردات هذا الخطاب الغربى، الخاص بالشرق الإسلامى، أثمرت مخزوناً من «ثقافة الكراهية السوداء» التى شاعت وترسبت، بل وتكلست، فى كثير من ميادين الثقافة واللاهوت والتعليم والإعلام بأوروبا وأمريكا.. وهو المخزون الداعم للمشاريع الغربية لاستعمار الشرق، والذى تطفح به منابر الثقافة والإعلام والتنصير الغربية إبان الأزمات الحادة فى علاقة الغرب بالإسلام، على النحو الذى رأيناه ونراه بعد «قارعة ١١ سبتمبر ٢٠٠١م» فى الولايات المتحدة الأمريكية.

وفى هذا الميدان يستطيع العقل المسلم أن يتابع ويعى دلالات المواقف والأفكار، التى غدت مكونات أساسية فى ثقافة الخطاب الغربى حول الإسلام والحضارة الإسلامية.. وهى مواقف وأفكار رصدتها وانتقدتها علماء غربيون منصفون.. وذلك من مثل:

* تصوير نبي الإسلام ﷺ باعتباره المنشق الكاثوليكي الأكبر، الذى اختطف الشرق من الغرب الرومانى، ومن الكاثوليكية!!.. وكما يقول المفكر الألمانى «هوبرت هيركومر» -فى دراسته عن [صورة الإسلام فى الأدب الوسيط]-: «فإن الأوروبيين ادعوا أن رسول الإسلام كان فى الأصل كاردينالاً كاثوليكيًا، تجاهلته الكنيسة فى انتخابات البابا، فقام بتأسيس طائفة ملحدة فى الشرق، انتقاماً من

الكنيسة. واعتبرت أوروبا المسيحية - فى القرون الوسطى - محمداً المرتد الأكبر عن المسيحية، الذى يتحمل وزر انقسام نصف البشرية عن الديانة المسيحية!!^(٩)

* وتصور الكاثوليكية الأوروبية - بلسان فيلسوفها الأكبر «توما الأكوينى» [١٢٢٥ - ١٢٧٤م] - رسول الإسلام ﷺ، بأنه «الذى أغوى الشعوب من خلال وعوده الشهوانية.. وقام بتحريف جميع الأدلة الواردة فى التوراة والأنجيل من خلال الأساطير والخرافات التى كان يتلوها على أصحابه، ولم يؤمن برسالة محمد إلا المتوحشون من البشر، الذين كانوا يعيشون فى البادية..!!»^(١٠)

* وتصور البروتستانتية الأوروبية - بلسان رائدها الأول «مارتن لوتر» [١٤٨٣ - ١٥٤٦م] - للقرآن الكريم «بأنه كتاب بغى وفظيع وملعون، وملئ بالكاذب والخرافات والفضائح».. وحديثه عن أن «إزعاج محمد، والإضرار بالمسلمين، يجب أن تكون هى المقاصد من وراء ترجمة القرآن، وتعرف المسيحيين عليه!». وأن «على القساوسة أن يخطبوا أمام الشعب عن فظائع محمد، حتى يزداد المسيحيون عداوة له، وأيضاً ليقوى إيمانهم بالمسيحية، ولتضعف جسارتهم وبسالتهم فى الحرب ضد الأتراك المسلمين، وليضحوا بأموالهم وأنفسهم» فى هذه الحروب!!^(١١)..

* وتصور الغرب للمسلمين - فى الثقافة الشعبية الأوروبية، ومن خلال الملاحم الشعبية، مثل «ملحمة رولاند» سنة ١١٠٠م - بأنهم «الجنس الحيوانى الحقيقى.. والكلاب والخنازير»!!.. وأنهم «يعبدون أصنام الثالوث: «أبوللين-Apollin» و«تيرفاجانت - Tervagant» و«حوميت (محمد) - Mahamet»!!^(١٢)..

وهى الأوصاف المزيفة والكاذبة، التى لا تزال تجترها حتى الآن «أفلام هوليوود، والأعمال الأدبية» التى يفوز أصحابها بجوائز «نوبل» فى هذه الأعوام!!..

* ووضع «دانتي» [١٢٩٥ - ١٣٢١م] - صاحب «الكوميديا الإلهية» - رسول الإسلام ﷺ وعلى بن أبى طالب، كرم الله وجهه «فى الحفرة التاسعة فى ثامن

حلقة من حلقات جهنم.. وقد قطعت أجسامهم وشوهت أجسادهم فى دار السعير؛ لأنهم كانوا فى الحياة الدنيا -[بكذبه وافترائه]- أهل شجار وشقاق»!!.. (١٣)

* وحديث «جوته» [١٧٤٩ - ١٨٣٢م] عن القرآن الكريم، باعتباره «الكتاب الذى يكرر نفسه تكرارات لا تنتهى فيثير اشمئزازنا دائماً، كلما شرعنا فى قراءته»!!
* وحديث المستشرق الألمانى «تيودور نولدكه» [١٨٣٦ - ١٩٣٠م] فى كتابه «من تاريخ القرآن» -عن «لغة القرآن المتراخية والركيكة.. وتكراراته التى لا تنتهى، والتى لا يستحى الرسول من استخدام الكلمات نفسها فيها. والبراهين التى تعوزها الدقة والوضوح، والتى لا تقنع إلا المؤمنين من البداية بالعاقبة النهائية.. والقصص التى لا تقدم إلا قليلاً من التنوع، والتى كثيراً ما تجعل آيات الوحي أقرب إلى الملل والسآمة.. فأسلوب القرآن فيه عيوب كثيرة، عيوب غير موجودة فى القصائد العربية القديمة ولا فى أخبار العرب.. وأفكاره ضحلة، وساذجة، وبدائية»!!..

* أما «توماس كارليل» [١٧٩٥ - ١٨٨١م] -الذى تحدث عن رسول الإسلام ﷺ حديثاً إيجابياً، حتى جعله -كزعيم مصلح، وليس كنبى ورسول- أول العظماء المائة -فإنه هو القائل: «محمد شىء، والقرآن شىء آخر مختلف تماماً.. ولا يوجد شىء غير الشعور بالواجب يمكن أن يحمل أى أوروبى على قراءة القرآن.. إنه خليط طويل وممل ومشوش.. جاف.. وغليظ.. باختصار، هو غباء لا يحتمل»!!.. (١٤)

هذه هى صورة الإسلام.. وقرآنه.. ورسوله.. وصورة المسلمين وحضارتهم، التى شاعت فى الثقافة الغربية، وفى الخطاب الغربى عن الشرق الإسلامى، منذ ظهور الإسلام وحتى العصر الحديث.. والتى كونت الأصول والجذور لثقافة الكراهية السوداء، التى تستكن حيناً، وتطفو أحياناً، إبان الأزمات بين الغرب والإسلام..

حدث هذا ويحدث، بينما يؤمن المسلمون ويقدسون كل الكتب والشرائع

والنبوات والرسالات لا يفرقون بين أحد من رسل الله ، ويتلون آيات القرآن التى تقول عن التوراة والإنجيل إن فيهما هدى ونوراً! . .

* * *

ولقد سعت الغزوة الاستعمارية الأوروبية الحديثة -كى تؤبد احتلالها لعالم الإسلام، ونهبها لثرواته -إلى تجريد الإسلام من شموله للدنيا مع الآخرة، ومن مرجعيته للدولة والسياسة والاجتماع مع منظومة القيم والأخلاق الحاكمة لسلوك الأفراد. . . سعت إلى فك الارتباط بين شريعته الإلهية وبين حركة الواقع فى المجتمعات الإسلامية التى استعمرتها هذه الغزوة، وذلك لتلحق هذا الواقع بالقانون الوضعى الغربى العلمانى، حتى لا يبقى للإسلام إلا ملكوت السماء والغيب والدار الآخرة -كما هو حال النصرانية المهزومة أمام العلمانية الغربية- وسعت هذه الغزوة الاستعمارية كذلك إلى فك الارتباط بين الإسلام وبين العربية -لغة القرآن الكريم- وذلك لتغريب اللسان، مع تغريب الفقه والقانون. . . وكان خطاب الاستعمار الفرنسى فى هذا الميدان نموذجياً، فلقد أعلن فلاسفته ومنظروه:

« أن الأسلحة الفرنسية هى التى فتحت البلاد العربية، وهذا يخولنا اختيار التشريع الذى يجب تطبيقه فى هذه البلاد!.. ويجب فصل الدين الإسلامى عن القانون المدنى.. وحصر الإسلام فى الاعتقاد وحده.. والحيلولة دون اندماج العادات والأعراف فى الشرع الإسلامى، ليتيسر دمجها فى القانون الفرنسى بدلاً من القانون الإسلامى..! »

« كذلك، يجب الفصل بين الإسلام والاستعراب.. فالعربية هى رائد الإسلام، لأنها تُعَلِّم من القرآن، وإذا سادت الفرنسية بدلاً من العربية، وأصبحت لغة التفاهم، فلن يهتما كثيراً أن تضم الديانة الإسلامية الشعب كله، أو أن آيات من القرآن يتلوها رجال بلغة لا يفهمونها، كما يقيم الكاثوليك القداديس باللغات اللاتينية والإغريقية والعبرانية!..! » (١٥)

فالمطلوب - في خطاب الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة - هو تجريد الإسلام من خصوصياته ومقومات تميزه عن النموذج الحضارى الغربى - وذلك بتغريب الفقه والقانون بالعلمانية، بعد تغريب الواقع، لعزل الشريعة عن الحياة. وتغريب اللسان فى بلاد الإسلام، لعزل القرآن عن الحياة، وإلحاق المسلمين بالثقافة الغربية، ومنظومة قيمها.. .

والدارس لواقع بلاد المغرب العربى - تونس والجزائر والمغرب - حتى بعد ما يقرب من نصف قرن من الاستقلال السياسى - يدرك حجم الكارثة التى أحدثها «التغريب الفرنكفونى» فى ميادين اللغة والثقافة والتعليم والإعلام، بل والقيم أيضاً، حتى هذه اللحظات.. .

* * *

وفى واقعنا المعاصر:

ولم تكن مقاصد الخطاب الغربى - خطاب الهيمنة - الموجه إلى العالم الإسلامى المعاصر، بأفضل كثيراً من خطاب الغزوة الاستعمارية فى العصر الحديث.. . بل ربما كان الأمر أسوأ فى كثير من مفردات هذا الخطاب.. .

* فالخطاب الكنسى اللاهوتى، الذى طمح - بل وطمع - إلى تنصير كل المسلمين، قد تحدث عن الإسلام - فى وثائق «مؤتمر كولورادو سنة ١٩٧٨م» فقال:

«إن الإسلام هو الدين الوحيد الذى تناقض مصادره الأصلية أسس النصرانية.. والنظام الإسلامى هو أكثر النظم الدينية المتناسقة اجتماعياً وسياسياً.. ونحن بحاجة إلى مئات المراكز، لفهم الإسلام، ولاخترافه فى صدق ودهاء!.. ولذلك، لا يوجد لدينا أمر أكثر أهمية وألوية من موضوع تنصير المسلمين.. فعلى مديرى إرساليات أمريكا الشمالية والقادة المنصرين الآخرين أن يكتشفوا ويوطدوا أساليب جديدة للتعاون والمشاركة مع كنائس العالم الثالث وعملها المنظم للوصول إلى المسلمين.

لقد وطينا العزم على العمل بالاعتماد المتبادل مع كل النصارى والكنائس الموجودة في العالم الإسلامي.. إن نصارى البروتستانت - في الشرق الأوسط وأفريقيا وآسيا - منهمكون بصورة عميقة في عملية تنصير المسلمين.. ويجب أن تخرج الكنائس القومية من عزلتها، وتقتحم بعزم جديد ثقافات ومجتمعات المسلمين الذين تسعى إلى تنصيرهم.. وعلى المواطنين النصارى في البلدان الإسلامية وإرساليات التنصير الأجنبية العمل معاً، بروح تامة، من أجل الاعتماد المتبادل والتعاون المشترك لتنصير المسلمين.. إذ يجب أن يتم كسب المسلمين عن طريق منصرين مقبولين من داخل مجتمعاتهم.. ويُفضّل النصارى العرب في عملية التنصير.. إن تنصير هذه البلاد سوف يتم من خلال النصارى المنتمين إلى الكنيسة المحلية، ويتم ذلك بعد تكوين جالية محلية نصرانية قوية..» (١٦).

وبعد هذا التخطيط لاختراق الإسلام في «صدق.. ودهاء!..» تحدث قساوسة پروتوكولات التنصير هذه عن ضرورة صناعة الكوارث في بلاد الإسلام، لإحداث الخلل في توازن ضحايا هذه الكوارث، باعتبار ذلك هو الشرط الضروري لتحويل هؤلاء الضحايا من الإسلام إلى النصرانية!.. معتبرين ذلك «نعمة» كبرى و«معجزة» تهبّ لهم تنصير المسلمين!!.. فقالوا: «لكي يكون هناك تحويل إلى النصرانية، فلا بد من وجود أزمات ومشاكل وعوامل تدفع الناس - أفراداً وجماعات - خارج حالة التوازن التي اعتادوها!.. وقد تأتي هذه الأمور على شكل عوامل طبيعية، كالقفر والمرض والكوارث والحروب، وقد تكون معنوية، كالتفرقة العنصرية، أو الوضع الاجتماعي المتدنّي.. وفي غياب مثل هذه الأوضاع المهيئة فلن تكون هناك تحويلات كبيرة إلى النصرانية!.. ولذلك، فإن تقديم العون لذوى الحاجة قد أصبح أمراً مهماً في عملية التنصير!.. وإن إحدى معجزات عصرنا، أن احتياجات كثير من المجتمعات الإسلامية قد بدلت موقف حكوماتها التي كانت تناهض العمل التنصيري، فأصبحت أكثر تقبلاً للنصارى!..» (١٧).

ولقد كشف هذا الخطاب التنصيري عن المقاصد الحقيقية من وراء ما يسمونه «الحوار بين الأديان»، فإذا بهذه المقاصد هي التمهيد للتحويل القسرى -نعم القسرى- إلى النصرانية.. . وبنص عباراتهم يقولون: «إن بيانات مجلس الكنائس العالمي، التي تشدد على «حرية الإقناع والافتناع» لا تلزم المجلس!..! فالحوار -عند مجلس الكنائس العالمي- ليس بديلاً عن تحويل غير النصارى إلى النصرانية.. وهذه البيانات -عن «حرية الإقناع والافتناع»- لا تعنى تخلى المجلس عن مواقفه المناصرة «للجهود القسرية والوعائية والمتعمدة والتكتيكية لجذب الناس من مجتمع ديني ما إلى آخر.. إنه بينما يوافق المنصرون على أن التحويل لدين آخر لا يجب ولا يمكن أن يتم بالقوة، فإنهم ما زالوا يشعرون أيضاً بأننا ينبغي «أن نجبرهم على الدخول» في النصرانية..!!» (١٨)

✽ وإذا كان هذا هو الخطاب الكنسى الپروتستانتى، إزاء الإسلام والمسلمين، فإن خطاب الكاثوليكية الغربية يقطر، هو الآخر، بالعداء للإسلام.. .

فالمونسنير «جوزيبى برناردى» يصرح -بحضرة بابا الفاتيكان يوحنا بولس الثانى- فى سنة ١٩٩٩م- فيقول: «إن العالم الإسلامى سبق أن بدأ ييسط سيطرته بفضل دولارات النفط.. وهو يبنى المساجد والمراكز الثقافية للمسلمين المهاجرين فى الدول المسيحية، بما فى ذلك روما عاصمة المسيحية، فكيف يمكننا ألا نرى فى ذلك برنامجاً واضحاً للتوسع، وفتحاً جديداً؟» (١٩)

وفى نفس التاريخ، يتحدث الكاردينال «بول بوبار» -مساعداً بابا الفاتيكان.. . ومسئول المجلس الفاتيكاني للثقافة- إلى صحيفة «الفيجارو» الفرنسية، فيقول: «إن الإسلام يشكل تحدياً بالنسبة لأوروبا وللغرب عموماً. وإن المرء لا يحتاج إلى أن يكون خبيراً ضليعاً لكى يلاحظ تفاوتاً متزايداً بين معدلات النمو السكانى فى أنحاء معينة من العالم، وفى البلدان ذات الثقافة المسيحية يتراجع النمو السكانى بشكل تدريجى، بينما يحدث العكس فى البلدان الإسلامية

النامية. وفي مهد المسيح، يتساءل المسيحيون بقلق عما سيجمله لهم الغد، وعما إذا لم يكن موتهم مبرمجاً بشكل ما؟! «إن التحدى الذى يشكله الإسلام يكمن فى أنه دين وثقافة ومجتمع وأسلوب حياة وتفكير وتصرف، فى حين أن المسيحيين فى أوروبا يميلون إلى تهميش الكنيسة أمام المجتمع، ويتناسون الصيام الذى يفرضه عليهم دينهم، وفى الوقت نفسه ينهرون بصيام المسلمين فى شهر رمضان!» (٢٠)

ويعضى هذا الخطاب الكنسى الكاثوليكي ليرفض التعايش بين الإسلام والمسيحية فى أوروبا! . . . يقول الكاردينال «جاكومو بيفي» - أسقف مدينة «بولونيا» - بإيطاليا - فى رسالته يوم ١٣-٩-٢٠٠٠م - داعياً إلى استئصال المسلمين من أوروبا-: «... فإما أن تتحول أوروبا إلى مسيحية فوراً، وإلا ستكون إسلامية مؤكداً!» (٢١)

هذا هو الخطاب الكنسى الغربى، إزاء الإسلام، وتلك هى صورة الإسلام فى هذا الخطاب - الپروتستانتى منه والكاثوليكي - فى الواقع المعاصر الذى نعيش فيه . . . والسابق على «قارعة سبتمبر ٢٠٠١م» التى أملت بأمريكا . .

* أما خطاب المشروع السياسى والحضارى الغربى المعاصر إزاء الإسلام، فلقد بدأته أمريكا عقب الحرب العالمية الثانية - عندما ورثت الإمبراطوريات الاستعمارية القديمة: الإنجليزية والفرنسية - بمحاولة «استغلال» الإسلام فى حربها الباردة ضد الشيوعية. . . وبعبارات الشهيد سيد قطب [١٣٢٤ - ١٣٨٦هـ - ١٩٠٦ - ١٩٦٦م]: «إن الإسلام الذى يريده الأمريكان، وحلفاؤهم فى الشرق ليس هو الإسلام الذى يقاوم الاستعمار، وليس هو الإسلام الذى يقاوم الطغيان، ولكنه فقط الإسلام الذى يقاوم الشيوعية. إنهم لا يريدون للإسلام أن يحكم، ولا يطبقون من الإسلام أن يحكم، لأن الإسلام حين يحكم سينشئ الشعوب نشأة أخرى، وسيعلم الشعوب أن إعداد القوة فريضة، وأن طرد المستعمر فريضة، وأن الشيوعية كالاستعمار وباء، فكلاهما عدو، وكلاهما اعتداء..

الأمريكان وحلفاؤهم إذن يريدون للشرق «إسلاماً أمريكانياً»، يجوز أن يُستفتى في منع الحمل، ويجوز أن يُستفتى في دخول المرأة البرلمان، ويجوز أن يُستفتى في نواقض الوضوء، ولكنه لا يُستفتى أبداً في أوضاعنا الاجتماعية أو الاقتصادية أو نظامنا المالي، ولا يُستفتى أبداً في أوضاعنا السياسية والقومية، وفيما يربطنا بالاستعمار من صلات. فالحكم بالإسلام، والتشريع بالإسلام، والانتصار للإسلام لا يجوز أن يمسه قلم، ولا حديث، ولا استفتاء...»^(٢٢) في الإسلام الأمريكي! ..

هذا هو نوع «الإسلام الأمريكي»، الذى أرادت أمريكا «استغلاله» فى حربها الباردة ضد الشيوعية - كما استغلت النصرانية أيضاً. . وأنشأت، لذلك، «مجلس الكنائس العالمى» فى ذات التاريخ! ..

✽ فلما تعاضم مد اليقظة الإسلامية - فى سبعينيات القرن العشرين - عقب سقوط نماذج التحديث على النمط الغربى... .

اتخذت أمريكا - ومن ورائها الغرب - من الإسلام المجاهد.. . إسلام اليقظة والصحوه عدواً، حتى قبل «قارعة سبتمبر سنة ٢٠٠١م».. . وحتى عندما كانت كل الحركات الإسلامية - التى يسمونها «أصولية ومتطرفة»- تقف مع أمريكا فى خندق واحد إبان الجهاد الأفغانى ضد الاتحاد السوفييتى والشيوعية، فى ثمانينيات القرن العشرين! ..

وفى ذلك التاريخ، كتب الرئيس الأمريكى «ريتشارد نيكسون» - وهو مفكر استراتيجى - عن هذه اليقظة الإسلامية، التى يقودها من أسماهم «الأصوليين الإسلاميين»، الذين هم - كما يقول -: «مصممون على استرجاع الحضارة الإسلامية السابقة، عن طريق بعث الماضى، ويهدفون إلى تطبيق الشريعة الإسلامية، وينادون بأن الإسلام دين ودولة. وعلى الرغم من أنهم ينظرون إلى الماضى فإنهم يتخذون منه هداية للمستقبل، فهم ليسوا محافظين، ولكنهم ثوار!»

ودعا «نيكسون» إلى اتحاد الغرب .. الأمريكى .. والأوروبى .. والروسى- لمواجهة هذا السبعث الإسلامى، وإلى: «تحديد الخيار الذى تختاره

الشعوب المسلمة!! ليكون «نموذج تركيا العلمانية المنحازة نحو الغرب» والساعية إلى ربط المسلمين بالغرب سياسيًا واقتصاديًا .. وذلك حفاظًا على مصالح الغرب في الشرق .. لأن أكثر ما يهمنى في الشرق الأوسط هو النفط وإسرائيل .. وإن التزامنا نحو إسرائيل عميق جدًا، فنحن لسنا مجرد حلفاء، ولكننا مرتبطون ببعضنا بأكثر مما يعنيه الورق! نحن مرتبطون معهم ارتباطًا أخلاقيًا .. ولن نستطيع أى رئيس أمريكى أو كونجرس أن يسمح بتدمير إسرائيل!

ولقد أفصح «نيكسون» عن الموقف الأمريكى - والغربى - الذى اتخذ الإسلام والمسلمين عدوًا، عندما قال: «إن الكثيرين من الأمريكىين قد أصبحوا ينظرون إلى كل المسلمين كأعداء.. ويتصور كثير من الأمريكىين أن المسلمين هم شعوب غير متحضرة، ودمويون، وغير منطقيين .. وليس هناك صورة أسوأ من هذه الصورة - حتى بالنسبة للصين الشيوعية - فى ذهن وضمير المواطن الأمريكى عن العالم الإسلامى.. ويحذّر بعض المراقبين من أن الإسلام والغرب متضادان .. وأن الإسلام سوف يصبح قوة جيوبوليتيكية متطرفة .. وأنه مع التزايد السكانى والإمكانات المادية المتاحة، سوف يؤلف المسلمون مخاطر كبيرة .. وأنهم يوحّدون صفوفهم للقيام بثورة ضد الغرب.. وسوف يضطر الغرب إلى أن يتحد مع موسكو لمواجهة الخطر العدوانى للعالم الإسلامى»!! (٢٣)

تلك هى صورة الإسلام فى الخطاب الاستراتيجى الأمريكى - والغربى - فى ثمانينيات القرن العشرين .. إبان «شهر العسل» أمريكا والغرب وبين كل الحركات الإسلامية - والدول الإسلامية - إبان الجهاد المشترك ضد الشيوعية فى أفغانستان .. وقبل «قارعة سبتمبر ٢٠٠١م» بنحو خمسة عشر عامًا! ..

فلما سقطت الشيوعية سنة ١٩٩١م .. وأعلن الغرب أن الإسلام هو العدو الذى حل محل إمبراطوريتها الشريرة .. عللت مجلة [شئون دولية] - الصادرة فى «كمبردج» - بالانجلترا - فى يناير سنة ١٩٩١م - سبب سرعة هذا الإعلان الغربى .. أن الإسلام هو العدو .. فقالت: «لقد شعر الكثيرون - فى الغرب -

بالحاجة إلى اكتشاف تهديد يحل محل التهديد السوفييتي .. وبالنسبة إلى هذا الغرض فإن الإسلام جاهز في المتناول .. فالإسلام من بين الثقافات الموجودة في الجنوب هو الهدف المباشر للحملة الغربية الجديدة، ليس لسبب سوى أنه الثقافة الوحيدة القادرة على توجيه تحد فعلى وحقيقى للثقافة الغربية .. ذلك أن النظرية التى يعتنقها علماء الاجتماع، والتى تقول: إن المجتمع الصناعى والعلم الحديث يقوض الإيمان الدينى - مقولة العلمنة - صالحة على العموم .. فالتأثير السيکولوجى للدين قد تناقص عملياً فى كل المجتمعات، وبدرجات متفاوتة وأشكال مختلفة .. لكن عالم الإسلام قد مثل استثناء مدهشاً وتاماً جداً من هذا، فلم تتم أى علمنة فى عالم الإسلام. إن سيطرة الإسلام على المؤمنين به هى سيطرة قوية، وهى بطريقة ما أقوى الآن مما كانت من ١٠٠ سنة مضت. إن الإسلام مقاوم للعلمنة نوعاً ما، والأمر المدهش هو أن هذا يظل صحيحاً فى ظل مختلف النظم السياسية .. وإن وجود تقاليد محلية للإسلام قد مكن العالم الإسلامى من أن يفلت من معضلة تقليد العلمانية الغربية .. وإن عملية الإصلاح الذاتى، استجابة لدواعى الحداثة، يمكن أن تتم باسم الإيمان المحلى، وذلك هو التفسير الأساسى لمقاومة الإسلام المرموقة للعلمنة.. وإن أوروبين كثيرين يتساءلون: عما إذا كان يمكن جعل الإسلام يقبل بقواعد المجتمع العلمانى، مثلما فعلت المسيحية بعد صراعات كثيرة وطويلة ومؤلمة؟ أم أن رسوخ الإسلام فى المجال السياسى والاجتماعى يجعله يرفض القبول بالمبدأ المسيحى / الغربى الذى يميز بين ما لله وما لقيصر، فبينما لا يسمح لمعتنقيه أن يصبحوا مواطنين خاضعين للقانون بصورة يعول عليها فى ديموقراطية علمانية..؟ ..

فتخيير الإسلام بين العلمنة، أى التحول إلى صورة شرقية للنصرانية الغربية، يقف عند الشعائر والعبادات فيتنازل - بذلك - عن خصوصياته ومميزاته، فاتحاً الطريق أمام تغريب العقل المسلم، وهيمنة العولمة الغربية على دنيا المسلمين .. إن تخيير الإسلام والمسلمين بين هذه التبعية الفكرية وبين أن يكونوا العدو الذى توجه إليهم آلة الحرب وحملات الإعلام التى كانت موجهة للشيوعية وأحزابها وحكوماتها، هو أمر سابق على «قارعة سبتمبر سنة

٢٠٠١م» . . وسابق على الانشقاق الذى حدث بين الجماعات الإسلامية «الراдикаلية» وبين أمريكا . . فنحن بإزاء موقف قديم . . وثابت . . وأصيل فى مواجهة بين الغرب والإسلام . . وكما قال «جلوب باشا»: «فإن تاريخ مشكلة الشرق الأوسط - أى مشكلة الغرب مع الشرق - إنما يعود إلى القرن السابع للميلاد»!.. أى إلى ظهور الإسلام، وتحريره الشرق من هيمنة الغرب . . وبقائه القوة الشرقية المجاهدة ضد محاولات اختطاف الغرب للشرق من جديد . . وليست القضية هى قضية «قارة سبتمبر» فى القرن الواحد والعشرين! .

بعد قارة سبتمبر سنة ٢٠٠١م:

فى ضوء هذا الذى قدمناه عن تزيف «المشروع الغربى: السياسى . . والكنسى» لصورة الإسلام . . وبدء هذا التزيف مع بدء ظهور الإسلام وتحريره للشرق من هيمنة الغرب الرومانى البيزنطى . . ومقاصد الغرب من وراء هذا التزيف:

أ - تغريب عقول مفكرينا ومثقفينا، ليتبنوا نموذج الحضارى بدلاً من النموذج الإسلامى، فتصبح المركزية الغربية هى قبلتنا، طوعية وتطوعاً! . .

ب - وتضليل شعوبه الغربية، لتتخرط فى مواجهة مع الإسلام، دعماً لمشروع الهيمنة . .

ج - وإراحة ضميره، عندما يصدق الصورة التى زيفها للإسلام - باعتباره نمطاً من الفكر البدائى والمتخلف، تؤمن به شعوب بدائية ومتخلفة، يحول بينها وبين «التقدم» - بمعناه الغربى - فيقتنع «الضمير» الغربى عندئذ - بمنطق الداروينية - أنه صاحب رسالة تنويرية وتقدمية وتحضيرية عندما يحارب خصوصياتنا الحضارية، ويعادى مميزاتنا القيمية، ويعمل على إبادة البنى الموروثة لثقافتنا الإسلامية . . فهو الأقوى . . وبمنطق الداروينية، فهو الأصلح للبقاء فى هذا الصراع الحتمى!! . .

وذلك وصولاً إلى تحقيق الهيمنة على عالم الإسلام، ونهب ثرواته، الذى هو المقصد الأعظم لمشروع الهيمنة الغربى.. فى ضوء هذا الذى قدمناه حول هذا الموضوع - الذى هو موضوع الساعة.. كما هو موضوع التاريخ - نفهم كيف أن طوفان ثقافة الكراهية السوداء للإسلام وأمته وحضارته، الذى تفجرت ينباعه الأمريكية والغربية فى وجوهنا، عقب «قارعة سبتمبر سنة ٢٠٠١م»، لم يكن من «إنشاء» هذه القارعة، ولا كانت أسبابه «جماعات العنف العشوائى» التى ترفع رايات الإسلام.. وإنما كان هذا الطوفان «تصعيداً حاداً» لموقف تاريخى قديم، و«كشفاً» عن مخزون مكنون، وضع الغافلين منا واللاهين عن الحقائق فى موقف الذين تحدث عنهم القرآن الكريم عندما قال: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢].

وإذا كان استعراض وقائع هذا الطوفان - بل والبركان - الذى تفجرت حممه فى وجه الإسلام وأمته وحضارته وعالمه: سلاحاً يقتل.. وحصاراً يخنق.. وحملات نفسية وفكرية وثقافية ودينية وإعلامية.. وتهديداً ووعيداً - إذا كان استعراض وقائع هذا الطوفان والبركان يحتاج إلى دراسة مطولة ومتخصصة^(٢٤).. فإننا نختار نماذج شاهدة على أن هذه الحرب التى أعلنها الغرب على الإسلام - تحت اسم «الأصولية الإسلامية» أو «الراديكالية الإسلامية» أو «الإرهاب الإسلامى».. وفى بعض الأحيان على الإسلام وقرآنه ورسوله ﷺ مباشرة وفى صراحة ووقاحة - إنما هى حرب المشروع الغربى - السياسى والحضارى والكنسى - وليست مجرد تعصب كاتب هنا أو حماقة أديب هناك.. نختار نماذج شاهدة من كلمات القيادات المسئولة، المعبرة عن أركان النظام الأمريكى والغربى، ومشروع الهيمنة الذى يعلنون عنه الآن عندما يكتبون ويقولون: إن القرن الواحد والعشرين إنما هو قرن الإمبريالية الأمريكية، والإمبراطورية الأمريكية دوغما منافس أو شريك!..

إنها حرب معلنة - وليس مؤامرة سرية تدبر في الخفاء - على «الإسلام المقاوم» لمشروع الهيمنة الأمريكى/الغربى، وليست حرباً على الإسلام الذى يقف عند الشعائر والعبادات، وتقصير الثياب، وإطالة اللحى، وفقه الغناء والموسيقى والدخان والتصوير!.. ولا الإسلام الذى يغرق فى بحار الدروشات والشعوذات والخرافات!..

وهذا الإسلام المقاوم للهيمنة هو الذى يسمونه «الأصولية الثورية».. وتعريفهم لها - حتى لا يخدعنا مخادع - قد حدده الرئيس الأمريكى الأسبق- ورجل الاستراتيجية - «ريتشارد نيكسون» عندما وصف هؤلاء الأصوليين الإسلاميين الثوار بأنهم: «هم المصممون على:

- استرجاع الحضارة الإسلامية السابقة عن طريق بعث الماضى..

- والذين يهدفون إلى تطبيق الشريعة الإسلامية..

- وينادون بأن الإسلام دين ودولة..

- وعلى الرغم من أنهم ينظرون إلى الماضى، فإنهم يتخذون منه هداية للمستقبل، فهم ليسوا محافظين، ولكنهم ثوار»! (٢٥)

وإذا كانت هذه «الأصولية الإسلامية الثورية»، التى أعلنت أمريكا - والغرب - الحرب عليها، عقب «قارعة سبتمبر»، فإنها هى بعينها الإسلام الشامل والمقاوم لمشروع الهيمنة الأمريكى/الغربى.. وهى البعث الإسلامى، على وجه الدقة والتحديد.. وليست «جماعات العنف العشوائى» بحال من الأحوال..

وإذا نحن تجاوزنا - مجازاة للبعض - عن دلالات وصف الرئيس الأمريكى «بوش - الصغير» هذه الحرب بأنها «حملة صليبية».. وقبلنا - تجاوزاً - ما يقوله هذا البعض من أن هذه العبارة هى «زلة لسان»!.. فإننا نقدم هنا نماذج «للتصريحات - الحيثيات» الصادرة من أعمدة السياسة والإدارة والفكر

الاستراتيجى، للمشروع الأمريكى والغربى والتى تشهد على أن هذه الحرب إنما هى معلنة ضد الإسلام، أو داخل الإسلام. . والإسلام المقاوم للهيمنة على وجه الخصوص والتحديد:

* فوزير العدل - نعم العدل! - الأمريكى «جون أشكروفت»، لم يكتف بالحديث عن حرب الحضارة ضد البربرية، والخير ضد الشر، والمدنية ضد التخلف - كما صنع آخرون- وإنما ذهب ليتفوق على غلاة القساوسة المنصرين، فسب إله العالمين، الذى يؤمن به مليار ونصف المليار من المسلمين. . فقال: «إن المسيحية دين أرسل الرب فيه ابنه ليموت من أجل الناس، أما الإسلام فهو دين يطلب الله فيه من الشخص إرسال ابنه ليموت من أجل هذا الإله»!!^(٢٦) . .

* والسيناتور الأمريكى «جوزيف ليبرمان» - الذى كان مرشحاً ديمقراطياً لمنصب نائب الرئيس فى الانتخابات الأمريكية سنة ٢٠٠٠م. . ومرشح الرئاسة القادمة - يعلن: «أنه لا حل مع الدول العربية والإسلامية إلا أن تفرض عليها أمريكا القيم والنظم والسياسات التى نراها ضرورية.. فالشعارات التى أعلنتها أمريكا عند استقلالها لا تنتهى عند الحدود الأمريكية، بل تتعداها إلى الدول الأخرى»!!^(٢٧) . .

* ووزيرة الخارجية الأمريكية السابقة «مادلين أولبرايت»، تعلن: «إننا، معشر الأمريكين، أمة ترتفع قامتها فوق جميع الشعوب، وتمتد رؤيتها أبعد من جميع الشعوب»!!^(٢٨) . . فتتحدث إلى الشعوب الإسلامية بلغة النازية، التى سبق أن عانت منها! . .

* والزعيم «الدينى - السياسى» «بات روبرتسون»، مؤسس جماعة التحالف السياسى المسيحى - التى تسيطر على الكونجرس الأمريكى، والحزب الجمهورى، والإدارة الأمريكية - وهو مرشح أسبق للرئاسة الأمريكية، والأب الروحى للرئيس «بوش - الصغير»، الذى وُلد - بوش - على يديه ولادته المسيحية الجديدة، بعد انحرافه الذى استمر حتى سن التاسعة والثلاثين - . .

يعلن «بات روبرتسون»: «أن الدين الإسلامي دعا إلى العنف.. وأنه بالنظر إلى المعنى الحقيقي لآيات قرآنية، فإن أسامة بن لادن أكثر وفاء لدينه الإسلامي من آخرين.. وأن أمريكا بحاجة إلى إنذار ضد خطر المسلمين الذين يكرهون أمريكا ويحاولون تدمير إسرائيل.. وأننا - في هذه الحرب - إنما نعلى كلمة الله الذي يقف معنا، مع الحق في هذا الصراع الديني الذي نخوضه، ويحيطنا بعنايته...»!! (٢٩)

* والمستشرق الأمريكي الصهيوني «برنارد لويس» - وهو من أعمدة المشيرين على صانع القرار الأمريكي - يقول، في كتابه الذي أصدره بعد «قارعة سبتمبر» بعنوان [ما هو الخطأ في العلاقة بين الإسلام والغرب؟]: «إن إرهاب اليوم هو جزء من كفاح طويل بين الإسلام والغرب.. فالنظام الأخلاقي الذي يستند إليه الإسلام مختلف عما هو في الحضارة اليهودية / المسيحية - [الغربية] - وآيات القرآن تصدق على ممارسة العنف ضد غير المسلمين.. وهذه الحرب هي حرب بين الأديان»!! (٣٠)

* و«توني بلير»، رئيس وزراء إنجلترا، يعلن - في ١٧ سبتمبر سنة ٢٠٠١م - أى بعد ستة أيام من «قارعة سبتمبر»، أن هذه الحرب التي أعلنها الغرب على الإسلام: «هي حرب المدنية والحضارة - [في الغرب] - ضد البربرية - [في الشرق]..»!

* أما «مارجريت تاتشر»، رئيسة وزراء إنجلترا الأسبق، فإنها تكتب عن «تحدى الإرهاب الإسلامى الفريد، الذى لا يقف عند أسامة بن لادن، بل يشمل حتى الذين أدانوا هجمات الحادى عشر من سبتمبر.. على أمريكا - والذين انتقدوا بشدة أسامة بن لادن وطالبان، لكنهم «يرفضون القيم الغربية، وتتعارض مصالحهم مع مصالح الغرب».. فالذين يرفضون القيم الغربية، وتتعارض مصالحهم مع المصالح الغربية، تصفهم «تاتشر» بأنهم «أعداء أمريكا.. وأعداؤنا»، وتشبههم بالشيوعية، وتدعو الغرب إلى معاملتهم كما عامل الشيوعية»!! (٣١)

* ورئيس وزراء إيطاليا «سيلفيو بيرلسكوني» يعلن - في ٢٦ سبتمبر سنة

٢٠٠١م - : «أن الحضارة الغربية أرقى من الحضارة الإسلامية.. ولا بد من انتصار الحضارة الغربية على الإسلام، الذى يجب أن يهزم؛ لأنه لا يعرف الحرية ولا التعددية ولا حقوق الإنسان.. وأن الغرب سيواصل تعميم حضارته، وفرض نفسه على الشعوب.. وأنه قد نجح - حتى الآن - فى تعميم حضارته وفرض نفسه على العالم الشيوعى وقسم من العالم الإسلامى»!! (٣٢)

* وغير أعمدة النظم والسياسة والإدارة فى أمريكا والمجلترا وإيطاليا، نجد وزير الداخلية فى ألمانيا «أوتوشيلى» يبلغ الحد الذى يصف فيه «عقيدة الإسلام بأنها هرطقة وضلال»!! (٣٣)

* أما وزير خارجية ألمانيا «يوشكا فيشر»، فإنه يعلن - فى محاضرة «حول آفاق السياسة الدولية إثر اعتداءات ١١ سبتمبر» أمام طلبة جامعة «فراي» - ببرلين - يعلن شكوكه فى «قدرة الإسلام على التطور»!! ويتساءل: «هل يوجد طريق إسلامى إلى الحداثة؟» - بمعناها الغربى! - ثم يصف الأصولية الإسلامية - الرافضة للحداثة والقيم الغربية - بأنها «التوتاليتارية الجديدة»! (٣٤) - أى الديكتاتورية والشمولية الجديدة - ..!!

* أما أساطين الفكر الاستراتيجى الأمريكى المشيرون على صانع القرار، والذين توضع نظرياتهم فى الممارسة والتطبيق - من مثل «فرانسوا فوكوياما» الذى أعلن أن «الليبرالية الرأسمالية المنتصرة على الشيوعية هى نهاية التاريخ، التى يجب تعميمها وقبولها فى كل الفضاءات العالمية».. ومن مثل «صموئيل هنتنجتون»، الكاشف عن الموقف الغربى فى نزعة صدام الحضارات.. والذى أشار على صانع القرار الأمريكى بتحجيد الحضارات العالمية حتى يفرغ من مصادمة ومصارعة الإسلام. فإن المشروع الغربى للهيمنة يضع نظريات هؤلاء المفكرين فى الممارسة والتطبيق، ونراها رأى العين، وتلمسها حواسنا فى طوفان التصريحات والقرارات التى توالى وانهارت عقب «قارعة سبتمبر».. وفى مواجهة الحادة التى قام بها الغرب ضد الإسلام، والحروب.. والمحاصرات.. والتهديد والوعيد، الذى يمثل هذا «الكابوس» القائم فى عالم الإسلام..

أما أساطين الفكر الاستراتيجي هؤلاء .. فلقد كانت لهم فضيلة «الصراحة العارية» في التعبير عن حقيقة هذه الحرب، ومقاصدها ..

فهى ليست حرباً على «جماعات العنف العشوائي» الإسلامية .. ولا على ما يسمى «بالإرهاب» .. وإنما هى «حرب داخل الإسلام»، لتغيير طبيعته وخصوصيته، «وحتى يقبل الحداثة - بمعناها الغربى»، أى القطيعة مع خصوصيته وماضيه، «فيصبح علمانياً يقبل المبدأ المسيحى: دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله»، فيقف عند ما لله فى ملكوت السماء والدار الآخرة، وخلص الروح، ويترك دنيا العالم الإسلامى وثوراته للهيمنة الأمريكية والغربية ..!

وبعبارات «فوكوياما»: «فإن الحداثة، التى تمثلها أمريكا وغيرها من الديمقراطيات المتطورة، ستبقى القوة المسيطرة فى السياسة الدولية، والمؤسسات التى تجسد مبادئ الغرب الأساسية ستستمر فى الانتشار عبر العالم .. وهذه القيم والمؤسسات تلقى قبولا لدى الكثير من شعوب العالم غير الغربية، إن لم نقل جميعها .. لكن السؤال الذى نحتاج إلى طرحه هو:

- هل هناك ثقافات أو مناطق فى العالم ستقاوم، أو تثبت أنها منيعة على عملية التحديث - بهذا المعنى الأمريكى والغربى؟!

ثم يجيب «فوكوياما» عن هذا التساؤل الذى طرحه، فيقول:

«إن الإسلام هو الحضارة الرئيسية الوحيدة فى العالم التى يمكن الجدل بأن لديها بعض المشاكل الأساسية مع الحداثة .. فالعالم الإسلامى يختلف عن غيره من الحضارات فى وجه واحد مهم، فهو وحده قد ولد تكراراً خلال الأعوام الأخيرة حركات أصولية مهمة، ترفض لا السياسات الغربية فحسب، وإنما المبدأ الأكثر أساسية للحداثة: التسامح الدينى .. والعلمانية نفسها .. وأنه بينما تجد شعوب آسيا وأمريكا اللاتينية ودول المعسكر الاشتراكى وأفريقيا الاستهلاكية الغربية مغرية، وتود تقليدها، لو أنها فقط استطاعت ذلك، فإن الأصوليين المسلمين يرون فى هذه الاستهلاكية دليلاً على الانحلال الغربى».

فالفرض الإسلامى ليس فقط لظلم السياسات الأمريكية والغربية . . وإنما هو للتبعية لمنظومة القيم الغربية . . ولذلك، يعلن «فوكوياما» أن هذه الحرب التى أعلنتها أمريكا والغرب على الإسلام المقاوم، ليست حرباً على «جماعات العنف العشوائى» ولا على هذا الذى سموه «إرهاباً» وإنما هى حرب على الإسلام الرافض للحدثاثة الغربية والعلمانية الغربية والاستهلاكية الغربية . . يعلن ذلك، فى «صراحة عارية» - يحمد عليها - فيقول:

«إن المسألة ليست -ببساطة- حرباً على الإرهاب، كما تظهرها الحكومة الأمريكية بشكل مفهوم - [!؟] - وليست المسألة الحقيقية - كما يجادل الكثير من المسلمين - هى السياسة الخارجية الأمريكية فى فلسطين، أو نحو العراق. إن الصراع الأساسى الذى نواجهه، لسوء الحظ، أوسع بكثير، وهو مهم، ليس بالنسبة إلى مجموعة صغيرة من الإرهابيين، بل لمجموعة أكبر من الراديكاليين الإسلاميين، ومن المسلمين الذين يتجاوز انتماءؤهم الدينى جميع القيم السياسية الأخرى.. إن الصراع الحالى ليس -ببساطة- معركة ضد الإرهاب، ولا ضد الإسلام كدين أو حضارة، ولكنه صراع ضد العقيدة الإسلامية الأصولية التى تقف ضد الحدثاثة الغربية... وإن التحدى الذى يواجه الولايات المتحدة اليوم هو أكثر من مجرد معركة مع مجموعة صغيرة من الإرهابيين، فبحر الفاشية الإسلامية، الذى يسبح فيه الإرهابيون يشكل تحدياً أيديولوجياً هو، فى بعض جوانبه، أكثر أساسية من الخطر الذى شكلته الشيوعية»!!.

ثم يتحدث «فوكوياما» عن «التطور الأهم» الذى يجب أن يحدث للإسلام ذاته، والذى يجب أن يتم داخل الإسلام، لتعديل الإسلام حتى يصبح قابلاً للحدثاثة الغربية والعلمانية الغربية والاستهلاكية الغربية، فيقول:

«إن التطور الأهم ينبغى أن يأتى من داخل الإسلام نفسه، فعلى المجتمع الإسلامى أن يقرر فيما إذا كان يريد أن يصل إلى وضع سلمى مع الحدثاثة، خاصة فيما يتعلق بالمبدأ الأساسى حول الدولة العلمانية»؟.. أم لا؟! . . (٣٥)

فالقضية - فى التحليل الأعمق - ليست «إرهاب» جماعات العنف العشوائى.. ولا هى «قارعة سبتمبر سنة ٢٠٠١م» ولا حتى السياسة الخارجية الأمريكية المعادية لقضايا المسلمين العادلة.. فكل ذلك تجليات للصراع بين المشروع الغربى وبين النزوع الإسلامى إلى التمايز الحضارى والاستقلال القيمى والثقافى، والذي يرفض الهيمنة الغربية التى تفرض أحداثها وعلمانياتها على العالم، بما فى ذلك عالم الإسلام..

وحتى لا يخلط الوهم بين هذه «الحداثة الغربية» - التى تقيم قطيعة معرفية كبرى مع الموروث الدينى، وبين «التجديد الإسلامى»، الذى يستصحب الثوابت ويطور فى المتغيرات.. نسوق كلمتين لاثنتين من دعاة هذه الحداثة فى بلادنا..

* أولاها كلمة «هاشم صالح»، المتخصص فى ترجمة وتسويق المشروع الحداثى للدكتور محمد أركون.. فلقد كتب - عقب قارعة سبتمبر - داعياً إلى انتهاز فرصة الهجمة الغربية على الإسلام، لتبنى الحداثة الغربية، التى أحلت وتحل «الدين الطبيعى» محل «الدين الإلهى»!! فقال: «إننا يجب أن نلتحق بقولتير [١٧٣٤ - ١٧٧٨م] وتصوره الطبيعى عن الدين والأخلاق، فالدين الحقيقى هو الدين الطبيعى.. وإن العبرة هى بأعمال الإنسان وليس بمعتقداته، أو حتى صلواته وعباداته.. ولا بد من تأويل جديد لتراثنا يختلف عن تأويل الأصولية، بل وينقضه.. تأويل يكشف عن تاريخية النصوص التأسيسية، ويحل القراءة التاريخية محل القراءة التبجيلية لهذا التراث»!!.. (٣٦)

* أما الكلمة الثانية فهى للدكتور على حرب، والذي قال عن حداثة مشروع أركون وهاشم صالح: «إنها القول بمرجعية العقل وحاكميته.. وإحلال سيادة الإنسان وسيطرته على الطبيعة مكان إمبريالية الذات الإلهية وهيمنتها على الكون..»!! (٣٧)

فالعدو - عند المشروع الأمريكى - هو الإسلام المقاوم للعلمانية الغربية

والحدثة الغربية، والاستهلاكية الغربية.. أى الإسلام المقاوم للمسح الغربى
والأمريكى..

والعدو - عند الحدائين الذين يحملون الأسماء المسلمة - ليس الإمبريالية
الأمريكية وهيمنتها، وإنما «إمبريالية الذات الإلهية وهيمنتها على الكون».. ولا
حول ولا قوة إلا بالله!!..

هذه هى حقيقة الموقف الذى نحن فيه .. وحقيقة التحدى الذى نواجهه
الآن..

صحيح أنه يشبه «الكابوس»، خصوصًا إذا رأيناه فى ضوء حال الأمة -
حكامًا ومحكومين - وفى ضوء نجاح الغرب فى استغلال مشكلة الأرثوذكسية
الروسية مع المسلمين الشيعة.. ومشكلة الهندوسية الهندية مع المسلمين فى
كشمير.. ومشكلة الكونفشيوسية الصينية مع المسلمين فى تركستان الشرقية..
نجاح الغرب فى استغلال هذه المشكلات لإقامة تحالفات - بعض أطرافها
متعاون.. وبعضها صامت - فى هذه الحرب الغربية على الإسلام، حتى
ليتذكر المحلل للموقف الراهن مشورة «صموئيل هنتنجتون» سنة ١٩٩٣م على
صانع القرار الأمريكى، بتحييد الحضارات الأخرى، وبدء صدام الحضارات
أولاً بالإسلام!!..

إننا، أمام هذا «الكابوس»، فى موقف شبيه بموقف المسلمين يوم غزوة
الأحزاب.. عندما تحالفت كل أطراف الشرك - رغم ما بينها من تناقضات -
مع اليهود - رغم ما بينهم وبين الشرك والوثنية من تناقضات.. تحالفوا جميعًا
ضد الدولة الإسلامية الوليدة، والدين الإسلامى الجديد.. حتى لقد زاعت من
الصحابة الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، وزلزل المسلمون زلزالًا شديدًا من
هول هذا «التحالف - الكابوس».. بل وظنوا بالله الظنون!!.. ﴿إِذْ جَاءُوكُمُ

مَنْ فَوْقَكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ
الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١] ..

أو لكأننا أمام الحلف «الصليبي - التتري»، الذى اجتاحت فيه التتر ودمروا
مشرق العالم الإسلامى، وهددوا بقية الوجود الإسلامى فى مصر والمغرب ..
يوم أعلنوا - بعد دمارهم لبغداد والمشرق - :

«لقد فتحنا بغداد، وقتلنا فرسانها، وهدمنا بنيانها، وأسروا سكانها»!! ثم وجهوا
التهديد لمن بمصر، قائلين: «إنهم إن كانوا فى الجبال نسفناها، وإن كانوا فى الأرض
خسفناها» .. وأرسل «هولاكو» [١٢١٧ - ١٢٦٥ م] إنذاره إلى الملك المظفر «قطنز»
[٦٥٨ هـ - ١٢٦٠ م] قائلاً فيه: «لقد فتحنا البلاد، وقتلنا معظم العباد.. فأى أرض
تؤويكم، وأى طريق ينجيكم، وأى بلاد تحميكم؟!!.. فما لكم من سيوفنا خلاص،
ولا من مهابتنا مناص، ونحن ما نرحم من بكى، ولا نرق لمن اشتكى، فخيولنا
سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال، فمن
طلب حربنا ندم.. فاتعظوا بغيركم، وسلموا إلينا أمركم، وعليكم بالهرب، وعلينا
بالطلب.. ولقد أعذر من أنذر»!!.. حتى لقد حسب الناس يومئذ «أن القيامة قد
قامت»!! (٣٨)

فما كان من العلماء والأمراء والخاصة والعامة إلا أن نفروا للجهاد، فكان
نصر الله فى «عين جالوت» [٦٥٨ هـ - ١٢٦٠ م] .. وانهزم التتار لأول مرة فى
تاريخهم .. ثم دخلت دولتهم وقبائلهم بعد ذلك فى الإسلام ..

والآن.. ما العمل؟

ما العمل أمام هذا «التحالف - الكابوس»، الذى جمع على الإسلام وأمته
وحضارته «أحزاب القرن الواحد والعشرين»، كما اجتمعت عليها الأحزاب فى
تاريخها القديم والوسيط؟!!.. حتى لقد أصبح الإسلام - بنظرهم - متهمًا ..
والمسلمون يعاملون كما كانوا يعاملون من قبل «محاكم التفتيش»!!..

صحيح أن أمتنا فى موقف شبيه بموقفها يوم غزوة الأحزاب [٥هـ ٦٢٧م]
ولكن دون أن تكون لها القيادة النبوية، ولا جند الجيل الفريد الذين صنعهم
على عينه رسول الله ﷺ . .

لكن . . هل نحن اليوم أقل من الممالك أمام التتار؟!

إننا نملك المنهاج الإسلامى، الذى تعامل المسلمون على هديه ووفق سننه مع
حصار غزوة الأحزاب . . ومع حملات الصليبيين . . والتتار . . المنهج الذى
يقول: إن هذه التحديات الشرسة التى تواجه الإسلام اليوم، إنما هى التعبير عن
أننا بإزاء ظاهرة صحية، ولسنا بإزاء حالة مرضية . . أننا بإزاء أمة تستيقظ،
لتنفلت بدينها وحضارتها وعالمها من المأزق الحضارى الذى يأخذ منها
بالخناق . . مأزق الوهن أمام التخلف الموروث والهيمنة الغربية . . وما هذه
التحديات الشرسة إلا محاولات الغرب لإجهاض يقظة أمة الإسلام، وإلا فلو
كانت أمتنا ميتة وميتوساً من إحيائها وحياتها، لما تداعت عليها كل أحزاب
العصر، ولما ضربوها بهذه القسوة . . «فالضرب فى الميت حرام» - كما يقولون-
وهو لا يستأهل ما يبذل فيه من جهد، ولا ما ينفق عليه من أموال! . . وإذا
كان هناك من يشك أو يشكك فى هذه الحقيقة، فليعد قراءة هذا الذى كتبه
المفكرون الاستراتيجيون الغربيون - والذى أوردناه - عن أن هذه الحرب إنما
تُشن على أمتنا لأنها الوحيدة على النطاق العالمى العصىة والمستعصية على
الانصياع للتغريب، والقبول بالحدثة الغربية، والعلمانية الغربية، والاستهلاكية
الغربية، والقيم الغربية، اعتصاماً بخصوصياتها الإسلامية، واستمسكاً بمنهاج
الإسلام . . فنحن نُضرب لأننا نقاوم ما يريده بنا ولنا جبروت «أحزاب القرن
الواحد والعشرين»! .

وهذا «المنهج: السنة والقانون» هو الذى اهتدى به المؤمنون يوم الأحزاب،
وتحدث عنه القرآن الكريم عندما أشار إلى هؤلاء الذين زاغت منهم الأبصار
وبلغت قلوبهم الحناجر، وظنوا بالله الظنون، وزلزلوا زلزالاً شديداً . . فقال:

﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

إن هذه الحرب المعلنة ضد الإسلام، من قبل مشروع الهيمنة الغربى، منذ ظهور الإسلام وحتى هذه اللحظات، هى سنة إلهية من سنن الابتلاء والاختبار والتدافع بين الحق والباطل، ليس لها تبديل ولا تحويل، ولن تقف عند نهايات هذا الطور الذى نواجهه الآن: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧]، ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨]، ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢].

وإذا كان الله سبحانه وتعالى، قد حفظ دينه، فإن إقامة هذا الدين هى مهمة المؤمنين به.. وكذلك أعمال السنن الإلهية فى التدافع الحضارى والفكرى، لا يتم إلا بواسطة الذين ينهضون بوضع هذه السنن - بعد فقهاها والوعى بها - فى الممارسة والتطبيق بأرض الواقع المعيش.. وليس فقط بالأمانى، وعلى الألسنة والأوراق.. ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣].

لذلك، فنحن -أمام هذا «الكابوس» - بإزاء عدد من الخيارات:

أولها: خيار الاستسلام، يأساً وقنوطاً من روح الله ونصره.. وهو خيار بائس، ينسى أصحابه أننا لسنا بإزاء شىء جديد غير مسبوق فى تاريخ الإسلام والمسلمين، وإنما أمام «دورة» من دورات التدافع والصراع، واجهت أمتنا أسوأ منها، وتعاملت مع ما هو أشد قسوة منها.. فكان تاريخ الشرق الإسلامى، دائماً وأبداً، مقبرة الغزاة والإمبراطوريات.. من الرومان.. وحتى الإمبراطوريات الغربية الحديثة..

وذلك فضلاً عن أن هذا اليأس - الذى لا يقرأ أهله ولا يعون سنن التاريخ

يخرجهم - والعياذ بالله - من حظيرة الإيمان بحقيقة الإسلام ﴿إِنَّهُ لَا يَأْسُ مِنَ
رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

والخيار الثانى: هو خيار «العنف العشوائى».. وهو خيار يحرم قضايانا
العادلة من أصدقاء كثيرين - حتى فى إطار الشعوب الغربية وتيارات الفكر
الغربى -.. فضلاً عن أنه يسيء إلى حقيقة الجهاد الإسلامى.. ناهيك عن
عدم جدواه أمام شراسة التحديات التى تواجهها أمتنا فى هذا المنعطف من
منعطفات المواجهة بين الفرعونية والقارونية الأمريكية وبين الإسلام.. بل لربما
أعطى هذا «العنف العشوائى» بعض الذرائع لهذه الفرعونية كى تستر بعضاً من
مقاصدها الكالحة، واستبدادها القبيح.

أما الخيار الثالث: فهو خيار المقاومة الإسلامية لهذه التحديات الغربية -
بالمعنى الشامل للمقاومة -.. ونقطة البداية فى هذه المقاومة هى «إرادة
الصمود»، التى هى المعيار الحقيقى، والفارق الجوهرى بين النصر والهزيمة..
فهناك أمة انكسرت إرادتها فى الحروب والمواجهات، فلم يعوضها عن انكسار
الإرادة وفرة أسباب القوة المادية - كاليابان مثلاً -.. وهناك حالات تتعاضد
فيها إرادة الصمود كلما تعاظمت شراسة التحديات - والحالة الإسلامية نموذج
جيد لهذا النوع - والحمد لله.

وبعد «إرادة الصمود»، تلزمنا «الإدارة» التى ترمم وترتب «البيت العربى
والإسلامى»، فى إطار الحد الأدنى الذى يعظم الإمكانيات العقيدية والفكرية
والبشرية والمادية الهائلة التى تملكها أمتنا..

وهذا الاجتماع العربى الإسلامى على هذا الحد الأدنى من التضامن، ليس
لمحاربة أمريكا والغرب.. فنحن لا نريد ذلك، ولا قبل لإمكاناتنا بمثل ذلك..
ولما نريد هذا الحد الأدنى من التضامن لتحسين أوراقنا ومواقع أقدامنا أمام هذه
التحديات.. و لتمكيننا من التدافع، الذى هو حراك يعدل الموازين، ويغير
المواقف، ويحسن الأوضاع، ويزيل الخلل الفاحش، ويكثر الأصدقاء، ويقلل

الأعداء، أو يحدّ بعضهم، دون أن يبلغ حد الصراع والقتال: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٢٤].

إننا نريد المقاومة، بمعناها العام، والجهاد بمعناه الشامل. . . وليس القتال أو الحرب، بمعناها الخاص. . . وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاثبتوا، وأكثروا ذكر الله» [رواه الدارمي].

وإن تحقيق الحد الأدنى من التضامن والتكامل والتكاتف والتساند بين دول وإمكانات العالم الإسلامي - بدءاً ببعض الدول المحورية - هو الإعداد والاستعداد الذى يحقق الردع للأعداء فلا يطمعون فى أن يبلغ الغنى والتجبر الحدود القصوى. . . وفى ذلك بداية التغيير لاتجاه الخط البيانى فى معادلة العلاقة بين الإسلام وأمتة وحضارته وبين التحديات الشرسة التى فرضها ويفرضها علينا مشروع الهيمنة الغربية هذه الأيام.

تلك هى جذور المواجهة التى تعيشها أمتنا الآن. . . وهذه هى حقيقة صورة الإسلام فى الخطاب الغربى. . . وهذا هو المخرج من المأزق الذى يأخذ منا بالحناق. . . والذى تزيغ منه الأبصار. . . وتبلغ القلوب الحناجر. . . ويزلزل الكثيرين منا زلزالاً شديداً. . .

وعلىنا أن نتذكر دائماً وأبداً، أننا إذا قصرنا بنا الهمم عن التأسى بصحابة رسول الله ﷺ يوم الأحزاب. . . فحرام أن تقصر بنا الهمم عن التأسى بالمماليك أمام التتار! . .

والله نسأل أن يهينى لنا من أمرنا رشداً. . . وأن يهدينا إلى الأخذ بسننه فى التدافع والنصر. . . إنه، سبحانه وتعالى، خير مسئول وأكرم مجيب.

الهوامش:

- (١) الإشارة إلى عبد الله بن المقفع [١٠٦ - ١٤٢ هـ - ٧٢٤ - ٧٥٩ م] كان في الأصل مجوسياً - مزدكياً - فأسلم، وألف وترجم في الفلسفة .. وقتل بتهمة الزندقة .
- (٢) [فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة] ص ٢٣ طبعة القاهرة سنة ١٩٠٧ م .
- (٣) [الأعمال الكاملة] ج ٢ ص ٣٤٢ دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٨١ م .
- (٤) [الأعمال الكاملة] ص ١٩٥ - ١٩٧ . دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨ م .
- (٥) في التقرير السنوي لمكتب التحقيقات الفيدرالية - بالولايات المتحدة الأمريكية - أن الاعتداءات على المسلمين في أمريكا كانت سنة ٢٠٠٠ م ٢٨ حالة، وارتفعت سنة ٢٠٠١ م إلى ٢٠٠٠ جريمة، أي بنسبة ١٦٠٪ - صحيفة «الأهرام» - القاهرة: في ٢٧-١١-٢٠٠٢ م . وفي تقرير المنظمة الأمريكية لحقوق الإنسان أن النسبة قد ارتفعت إلى ١٧٠٪ .
- (٦) صحيفة «الأسبوع» - القاهرة - في ٥-١١-٢٠٠١ م . وصحيفة «العالم الإسلامي» - مكة - في ١٦-١١-٢٠٠١ م . وصحيفة «عقيدتي» - القاهرة - في ٦-١١-٢٠٠١ م .
- (٧) من حديث جال بيرك في ٢٧-٦-١٩٩٥ م . انظر: حسونة المصباحي «العرب والإسلام في نظر المستشرق الفرنسي جاك بيرك»، صحيفة «الشرق الأوسط» - لندن - في ١-١١-٢٠٠٠ م .
- (٨) من مراسلات القناصل - أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية - باريس - سنوات ١٨٤٠ - ١٨٤٢ - ١٨٤٨ - ١٨٩٧ - ١٨٩٨ م . انظر كتابنا [هل الإسلام هو الحل؟] ص ٢٢ طبعة القاهرة سنة ١٩٩٥ م .
- (٩) [صورة الإسلام في التراث الغربي] ص ٢٣ ، ٢٤ . ترجمة: ثابت عيد، طبعة القاهرة سنة ١٩٩٩ م .
- (١٠) المرجع السابق: ص ٣٢ ، ٣٣ .
- (١١) المرجع السابق: ص ٢١ .
- (١٢) المرجع السابق: ص ١٨ ، ٢٥ .
- (١٣) المرجع السابق: ص ٢٤ .
- (١٤) ترجم هذه النصوص عن الألمانية: ثابت عيد، ضمن ملف - تحت الطبع - عن «تقييمات غربية لأسلوب القرآن» .
- (١٥) محمد السماك [الأقليات بين العروبة والإسلام] ص ٥٧ - ٥٩ . طبعة بيروت سنة ١٩٩٠ م .
- (١٦) [التنصير: تخطئة لغزو العالم الإسلامي] - الترجمة العربية لوثائق مؤتمر كولورادو - ص ٤٥٢ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٧٨٩ ، ٧٩٠ ، ٥٣ ، ٥٦ ، ٤ ، ٥ ، ٦٢٧ ، ٦٣٠ ، ٣٨٣ ، ٨٤٥ . طبعة مركز دراسات العالم الإسلامي .. مالطا - سنة ١٩٩١ م .

- (١٧) المصدر السابق، ص ٢٤٢، ٨٢٦، ٨٢٧، ٤٦٩، ٣٦٤، ١٤٧.
- (١٨) المصدر السابق، ص ٧٧٠.
- (١٩) صحيفة «الشرق الأوسط» في ١٣-١٠-١٩٩٩م.
- (٢٠) صحيفة «الشرق الأوسط» في ١-١٠-١٩٩٩م.
- (٢١) صحيفة «العالم الإسلامي» في ٦-١٠-٢٠٠٠م.
- (٢٢) من كتاب [أمريكا من الداخل] - والنقل عن: د. جابر قميحة «سيد قطب والإسلام الأمريكاني» - صحيفة «آفاق عربية» - القاهرة - في ٢٧-١٢-٢٠٠١م - والدكتور جابر ينقل عن مجلة «الرسالة» سنة ١٩٥١م.
- (٢٣) ريتشارد نيكسون: [الفرصة السانحة] ص ٢٨، ١٤٠، ١٤١، ١٥٢، ١٥٣، ١٣٥، ١٣٨، ١٣٩.
- ترجمة: أحمد صدقي مراد. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٢م.
- (٢٤) انظر دراستنا عن «الهجمة الأمريكية على الإسلام» بكتابنا [في فقه المواجهة بين الغرب والإسلام] طبعة القاهرة، سنة ٢٠٠٣م.
- (٢٥) [الفرصة السانحة] ص ١٤٠.
- (٢٦) صحيفة «الشرق الأوسط» في ٢١-٢-٢٠٠٢م.
- (٢٧) صحيفة «الأهرام» في ١٦-١-٢٠٠٢م.
- (٢٨) صحيفة «الأهرام» في ٣٠-١٠-٢٠٠١م.
- (٢٩) صحيفة «الشرق الأوسط» في ٣-٢-٢٠٠٢م و«الحياة» - لندن - في ٢٦-٢-٢٠٠٢م. و«الأهرام» في ١١-١٢-٢٠٠٢م.
- (٣٠) «صحيفة الأهرام» في ٢-٣-٢٠٠٢م، ٣-٣-٢٠٠٢م - والأهرام ينقل عن مقال «زخاري كاربيل» في «النيوزويك» - الأمريكية - بتاريخ ١٤-١-٢٠٠٢م.
- (٣١) صحيفة «الشرق الأوسط» في ١٤-٢-٢٠٠٢م.
- (٣٢) صحيفة «الحياة» في ٣٠-٩-٢٠٠١م.
- (٣٣) صحيفة «الأهرام» في ٢-٣-٢٠٠٢م.
- (٣٤) صحيفة «الشرق الأوسط» في ٢٦-٤-٢٠٠٢م.
- (٣٥) «النيوزويك» العدد السنوي - ديسمبر سنة ٢٠٠١م - فبراير سنة ٢٠٠٢م.
- (٣٦) صحيفة «الشرق الأوسط» في ٢٦-١٢-٢٠٠١م.
- (٣٧) صحيفة «الحياة» في ١٨-١١-١٩٩٦م.
- (٣٨) المقريري [كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك] ج ١ ق ١ ص ٤٢٧، ٤٢٨. تحقيق: د. محمد مصطفى زيادة. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م.

الديانات السماوية والحروب الدينية

١- وحدة الدين..وتعدد الشرائع

كل الديانات السماوية - وفي مقدمتها اليهودية . . والنصرانية . . والإسلام - هي في حقيقتها وأصولها وحى سماوى معصوم، وشرائع إلهية فى إطار الدين الإلهى الواحد . . فدين الله واحد، من آدم إلى محمد عليهم جميعاً الصلاة والسلام . . وأصول الإيمان فى هذا الدين الواحد ثابتة :

* وحدانية الإله الخالق والمعبود.

* والإيمان بالغيب والحساب والجزاء .

* والعمل الصالح فى هذه الحياة الدنيا .

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا (١٦٣) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء : ١٦٣ ، ١٦٤] . .

وفى إطار هذا الدين الإلهى الواحد، الذى هو الإسلام - من إسلام المؤمن وجهه لله، أى إفراده بالعبودية والطاعة دون كل الشركاء وجميع الطواغيت - فى إطار هذا الدين الإلهى الواحد تعاقت، وتمايزت الشرائع الإلهية، بتتابع الرسالات والنبوات، وبتمايز مكونات ومقتضيات ومصالح ومراحل تطور أمم هذه الرسالات . .

ولأن مصدر الدين والشرائع واحد - وهو الله، سبحانه وتعالى - ولأن مقاصد الدين هي هداية الإنسان إلى عبادة الله وفق شعائر شريعته ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].. ولأن الهداية هي ثمرة للإيمان، الذى هو تصديق قلبى، استحال أن يكون الإكراه طريقاً إلى تحصيل الهداية والإيمان.. ومن ثم استحال أن تكون الحرب - التى هى العنف القتالى، والقتال المزهق للأرواح - سبيلاً من سبل الإيمان بالدين، أو النشر الحقيقى لحقيقة الدين..

٢- منهاج الدعوة فى الشريعة الموسوية

وإذا نحن التمسنا الموقف الحقيقى والأصلى لليهودية - التى هى شريعة موسى عليه السلام، من هذه القضية - موقف الدين من الحرب الدينية - فسنجد منهاج الدعوة اليهودية، كما حدده الله، سبحانه وتعالى، لموسى وهارون، عليهما السلام، عندما بعثهما إلى فرعون، فقال: ﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ (٤٢) اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤) قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ (٤٦) فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَاقِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿

[طه: ٤٢ - ٤٧]..

فالقول اللين هو منهاج الدعوة، حتى فى مواجهة الطغيان الفرعونى.. ولما تخوَّف موسى وهارون من رد فعل الطغيان الفرعونى، جاء التأكيد الإلهى على هذا المنهاج السلمى واللين فى الدعوة.. وعلى أن العون الإلهى، وإعلان السلام لمن اتبع الهدى هو المنهاج فى الدعوة إلى الشريعة الموسوية، وليس العنف أو الحرب والقتال..

وحتى عندما ظل فرعون على كفره وجبروته.. وتصاعد هذا الكفر والجبروت بعد هزيمته فى المواجهة التى تمت - يوم الزينة - بين آية الله التى ظهرت على يد موسى - عليه السلام - وبين سحر السحرة الذين حشدتهم

فرعون، عندما آمن هؤلاء السحرة بإله موسى، فعاقبهم فرعون بقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وصلبهم في جذوع النخل. . حتى عندما تصاعد الكفر والجبروت والطغيان الفرعونى إلى هذه الحدود، لم يتغير منهاج الدعوة اليهودية، فالإيمان القلبى بالله، سبحانه وتعالى، لا يغير من يقينه ولا من منهاجه السلمى هذا الحكم المتجبر على الأجساد فى هذه الدنيا الفانية: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ (٧٠) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ (٧١) قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (٧٣) إِنَّهُ مِنْ يَأْتِ رَبِّهُ مُجِرِّمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ (٧٤) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾ (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾ [طه: ٧٠-٧٦].

فحتى فى مواجهة الجبروت والإكراه الفرعونى، ظل منهاج الدعوة فى الشريعة الموسوية هو اللين والتزكية للنفس، والصبر الجميل على الإيذاء. .

ولأن موسى - عليه السلام - لم يقم دولة، ولم يقد جيشاً، ولم يخض حرباً ولا قتالاً. . وإنما وُلد ونشأ وبُعث فى مصر. . ومات ودُفن فى تيه سيناء المصرية، فلقد ظلت شريعته بريئة من أى إكراه أو حرب دينية، تتوسل بالقتال لنشر هذا الدين. .

هذا عن حقيقة اليهودية الحققة، كما تجلت فى شريعة موسى - عليه السلام. .

٣- الحرب الدينية فى التراث اليهودى

لقد نزلت شريعة اليهودية على موسى - عليه السلام - بمصر، وتلقى الألواح باللغة الهيروغليفية. . ثم تمرد اليهود على شريعة التوحيد، فعبدوا العجل

الذهبي، حتى أشربوا في قلوبهم هذا العجل الذهبي!... وتعلقوا بالوثنية - التي كانت شائعة في شعوب كثيرة - قائلين لموسى عليه السلام: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]..

وبعد موت موسى - عليه السلام - قادهم «يشوع بن نون» في غزو أجزاء من بلاد كنعان - فلسطين - فتكلموا إحدى اللهجات الكنعانية - التي تطورت فيما بعد إلى العبرية - وعبدوا آلهة كنعانية، وانطبعوا بعبادات وتقاليد وثقافات مغايرة كل المغايرة لشريعة موسى - عليه السلام.. وقتلوا كثيرًا من الأنبياء الذين قاموا فيهم لردهم إلى الشريعة الإلهية التي نزلت على موسى - عليه السلام.. حتى لقد جاء في سفر «إشعيا» - إصحاح ٥٧ : ٤، ٥ - في وصف ما آلت إليه حالهم: «أما أنتم يا أولاد المعصية، نسل الكذب، المتوقدون على الأصنام تحت كل شجرة خضراء، القاتلون لأولادهم في الأودية تحت شقوق المعازل».

وجاء في سفر «حزقيال» - إصحاح ١٧ : ٢٠ - قول الرب لأورشليم: «أخذت بنيك وبناتك الذين ولدتهم لى وذبحتهم لها طعامًا».. وهى عبارة جاء في شرحها: «إن أهل أورشليم قد مارسوا كل عبادة الكنعانيين الفاسدة، كما مارسوا وثنية غيرهم من الأمم الوثنية كالأشوريين والمصريين والكلدانيين والأموريين والحيتيين، بل إنهم فاقوهم في ممارسة هذه الوثنية، حيث أخذوا بنيتهم وبناتهم وذبحوهم للآلهة الوثنية طعامًا، بل وأجازوهم في النار»^(١). فحدثت القطيعة الكبرى بين اليهود وبين شريعة موسى - عليه السلام - إن في العقيدة، أو في القيم، أو في القانون..

ثم انتهت بهم الانحرافات والصراعات والمحاربات، مع الشعوب الأخرى ومع بعضهم البعض.. انتهت بهم هذه المسيرة وهذا التاريخ إلى الدمار الذى أوقعه بهم الملك البابلي «نبوختنصر» [٦٠٥ - ٥٦٢ ق.م] وإلى محنة السبي البابلي [٥٨٦ ق.م]..

وأمام هذه الكارثة التى حلت بهم، وحفاظاً على الوجود، وإنعاشاً للذاكرة بالتاريخ، قام أحبارهم بإعادة كتابة «التراث اليهودى»، فى تلك الأسفار التى زادت على العشرين.. وهى الأسفار التى سماها «بولس - الرسول» - فيما بعد - ولأول مرة بـ [العهد القديم] - وذلك فى رسالته الثانية إلى أهل «كورنثوث» - إصحاح ٣ : ١٤ ..

ولقد عكس هذا «التراث اليهودى» نفسية الاضطهاد وعقلية السبى، وروح الانتقام من كل الأغيار، فشاعت فيه النصوص التى تدعو إلى الحرب وإلى إبادة الآخرين، وإلى تدمير كل مظاهر الحياة والأحياء عند الشعوب الأخرى، باعتبارها - كما زعموا - أوامر الرب، الذى جعلوه محارباً، ومتعطشاً إلى الدماء، بل وسموه «رب الجنود»! ..

وهكذا تبلور لليهود «تراث» عنصرى.. دموى.. يمجّد الحرب الدينية، منقلباً بذلك على الشريعة الموسوية الحقة، التى نهجت منهاج «القول اللين» حتى فى مواجهة الطغيان الفرعونى الشديد والفريد.. وهكذا وجدنا فى هذا «التراث اليهودى» اليهود شعباً مختاراً لله، بل وشعباً مقدساً، دون سائر الشعوب، وفوق جميع الشعوب، لا بحكم التوحيد لله والتقوى فى عبادته، وإنما بحكم «الولادة والدم والعنصر»! .. بل لقد أضفوا هذه القداسة والعصمة حتى على بهائمهم!! .. ووجدنا الأوامر «الإلهية» التى تدعوهم إلى تدمير كل الأغيار - من البشر إلى الشجر إلى الحجر.. ومن الحيوان إلى الطبيعة.. ومن الكبار إلى الأطفال.. ومن الرجال إلى النساء - فكان هذا الدستور اليهودى للحروب الدينية، الذى جاء فيه - على سبيل المثال - :

* «فقال الرب لموسى: اكتب هذا تذكاراً فى الكتاب، وضعه فى مسامع يشوع: فإننى سوف أمحو ذكر عماليق من تحت السماء» - سفر الخروج. إصحاح ١٧ : ١٤ - .. ثم أصبح كل الأغيار مثل العماليق عبر تاريخ هذا التراث! ..

* «إن سمعت عن إحدى مدنك، التى يعطيك الرب إلهك لتسكن فيها، قولا..

فضرِبًا تضرب سكان تلك المدينة بحد السيف وتحرمها.. [أى تدمرها وتبيدها] بكل ما فيها من بهائمها بحد السيف. تجمع كل أمتعتها إلى وسط ساحتها وتحرق بالنار، المدينة، وكل أمتعتها كاملة للرب إلهك، فتكون تلاً إلى الأبد لا تُبنى بعد.. لكى يرجع الرب عن حُمُو غضبه ويعطيك رحمة» سفر التثنية. إصحاح ١٣ : ١٢ ، ١٥ - ١٧ . فرحمة الرب مرهونة ومشروطة بإبادة الأغيار وكل مكونات الحياة عند هؤلاء الأغيار، لمجرد أنهم «قالوا قولاً» سمعه اليهود! ..

«وكلم الرب موسى فى عربات موآب على أُرْدن أريحا قائلاً: كلّم إسرائيل وقل لهم: إنكم عابرون للأردن إلى أرض كنعان، فتطردون كل سكان الأرض من أمامكم.. تملكون الأرض وتسكنون فيها، وإن لم تطردوا سكان الأرض من أمامكم يكون الذين تستبقون منهم أشواكاً فى أعينكم ومناخس فى جوانبكم ويضايقونكم فى الأرض التى أنتم ساكنون فيها، فىكون أنى أفعل بكم كما هممت أن أفعل بهم» - سفر العدد. إصحاح ٣٣ : ٥٠ - ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٦ ..

«وحين تقترب من مدينة لكى تحاربها استدعها إلى الصلح. فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير، ويسُتعبد لك، وإن لم تسالمك، بل عملت معك حرباً فحاصرها. وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، أما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة، كل غنيمتها، فتغنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب إلهك. هكذا تفعل بجميع المدن.. فلا تستبق منها نسمة ما. بل تحرمها - [أى تبيدها]..» - سفر التثنية. إصحاح ٢٠ : ١٠ - ١٦ .

فالذين يصلحون ويسلمون، لهم العبودية والاستعباد.. والذين لا يصلحون ولا يسلمون لهم الإبادة والدمار! ..

«سبع شعوب دفعهم الرب إلهك أمامك وضربتهم، فإنك تحرمهم - [أى تبيدهم وتدمرهم].. لا تقطع لهم عهداً ولا تشفق عليهم. ولا تصاهرهم.. لأنك أنت شعب مقدس للرب إلهك. إياك قد اختار الرب إلهك لتكون له شعباً أخص

من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض.. مباركًا تكون فوق جميع الشعوب لا يكون عقيم ولا عاقر فيك ولا فى بهائمك. ويرد الرب عنك كل مرض وكل أدواء مصر الرديئة التى عرفتها لا يضعها عليك، بل يجعلها على مبغضيك. وتأكل كل الشعوب الذين الرب إلهك يدفع إليك. لا تشفق عينك عليهم» - سفر التثنية..
إصحاح ٧ : ١ - ٣ ، ٦ ، ٧ ، ١٤ - ١٦ - فلا شفقة على أى من الشعوب.. بل أكلهم أكلًا!..

* وحتى يؤبد الأخبار.. - الذين كتبوا هذا «التراث» - هذه العنصرية ضد كل الأغيار، والكراهية لجميع غير اليهود، والحرب الدينية التى لا تبقى ولا تذر، نسبوا هذا «الانتقام الأبدى»، وهذا التأييد لروح الانتقام إلى الرب.. فكتبوا فى هذه الأسفار: «إن الرب لا يبرئ، بل يجعل ذنب الآباء على الأبناء إلى الجيل الثالث والرابع» - سفر العدد. إصحاح ١٤ : ١٨..

ثم جاءت تعليقاتهم على هذا التراث - فى التلمود.. وفتاوى الحاخامات - لتؤبد روح الانتقام من كل الأغيار.. فالحاخام «العقيد . أ. فيدان (زيمبل)» يصدر فتوى - فى سبعينيات القرن العشرين - تنشرها قيادة المنطقة الوسطى فى الجيش الإسرائيلى - التى تقع الضفة الغربية الفلسطينية تحت سلطتها - يحض فيها على قتل حتى «المدنيين الطيبين من الفلسطينيين»! باعتبار ذلك تكميلًا دينيًا، والتزامًا «بالهالاكاه» - الشريعة - وفى هذه الفتوى الدينية يقول الحاخام: «فى حالة احتكاك قواتنا بمدنيين خلال الحرب، أو خلال مطاردة حامية، أو غارة، إذا لم يتوافر دليل بعدم إلحاقهم الأذى بقواتنا، هناك إمكانية لقتلهم، أو حتى ضرورة للقيام بذلك حسب الهالاكاه.. بل تحض الهالاكاه على قتل حتى المدنيين الطيبين»! (٢) - ولقد ضُمنت هذه «المطاردة الحامية» فى اتفاقات «أوسلو» فى تسعينيات القرن العشرين -!..

أما الحاخام «شمعون وايزر»، فإنه يجيب عن رسالة الجندى الإسرائيلى «موشى» - الذى يخدم فى فلسطين المحتلة سنة ١٩٦٧م - والتى يسأل فيها:

«هل نعامل العرب مثل العماليق؟ أى نقتلهم حتى نستأصل ذكراهم فى الأرض؟.. «ولتمح ذكرى العماليق من تحت السماء» - [تثنية . إصحاح ٢٥ : ١٩] - أم نقوم بما يحدث فى الحرب العادلة التى يقتل فيها الإنسان الجنود فقط؟.. وهل يجوز لى تقديم الماء لعربى يستسلم؟».

يجيب الحاخام «شمعون وايزر» على هذه الرسالة فيقول للجندى «موشى»: «سأنقل لك بعض أقوال الحكماء، طيب الله ذكراهم، وأفسرها: الحرب لدى غير اليهود ذات قوانين خاصة، مثل قوانين اللعب، كرة القدم أو السلة. لكن الحرب كما يقول حکماؤنا، طيب الله ذكراهم، لا تعنى بالنسبة لنا لعبة، بل ضرورة حيوية، واستناداً إلى هذه المقاييس فقط ينبغى التفكير حول كيفية القيام بها.. أفضل غير اليهودى اقتلوه، وأفضل الأفاعى هشموا رأسها.. هذه هى قاعدة «طهارة السلاح» حسب الهالاكاه - الشريعة -».

فكانت الرسالة الجوابية من الجندى «موشى» لحاخامه «شمعون وايزر»: «تلقيت رسالتك، وفهمتها على النحو التالى: «لا يُسمح لى فى زمن الحرب بقتل كل عربى أو امرأة أصادفهما وحسب، بل من واجبى أيضاً القيام بذلك!»^(٣) وهكذا استمر إعلان الحرب الدينية اليهودية، فى هذا «التراث اليهودى»، الذى بدأ إعادة تدوينه «عزرا» - فى القرن الخامس قبل الميلاد - والذى اكتمل تدوينه قبل الميلاد بقرنين.. استمرت الحرب الدينية اليهودية معلنة ضد جميع الأغيار، حتى وضعتها الحركة الصهيونية فى الممارسة والتطبيق ضد الفلسطينيين والعرب والمسلمين فى القرن العشرين!..

٤ - القطيعة بين التراث اليهودى والشريعة الموسوية

ونحن عندما نقول إن هذا «التراث اليهودى» - العنصرى.. الذى أعلن الحرب الدينية على كل الأغيار - لا علاقة له باليهودية الحقيقية، التى هى الشريعة الإلهية التى أوحاها الله، سبحانه وتعالى إلى موسى عليه السلام فإننا لا نستند - فقط - إلى القرآن الكريم، الذى يقول: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ

الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿[النساء: ٤٦]﴾، ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿[المائدة: ١٣]﴾، ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿[المائدة: ٤١]﴾، ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَضُوبِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿[البقرة: ٧٤ - ٧٦]﴾، ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴿[البقرة: ٧٩]﴾.

لا نقول إن هذا «التراث اليهودي» فى التشريع للعنصرية والحرب الدينية، هو من وضع الذين قست قلوبهم فهى كالحجارة أو أشد قسوة.. وليس من شريعة موسى - عليه السلام - استناداً، فقط، إلى القرآن الكريم، الذى أوردنا بعض آياته.. ولا نقول ذلك، فقط، استناداً إلى المتخصصين فى دراسة هذا التراث اليهودى من ثقة علماء المسلمين - ومنهم المرحوم الأستاذ الدكتور فؤاد

حسنين على - أستاذ العبرية والتراث اليهودى بجامعة القاهرة الذى قال: «إنه لا يوجد بالتوراة التى بين أيدينا خبر يُشتم منه أن موسى هو الذى جاء بها أو نزلت عليه، بل على النقيض من هذا يوجد فيها ما يؤيد عكس هذا، ومن هذه الأدلة مثلاً:

ما جاء فى الآية السادسة من الإصحاح الرابع من سفر التثنية بخصوص وفاة موسى، فبعيد البعد كله أن يكون هذا الخبر صادراً عنه، فقد ورد فى هذه الآية: «لا يعرف شخص قبره حتى يومنا هذا».

وفى الآية العاشرة من نفس الإصحاح جاء: «ولم يقم بعد نبيُّ فى إسرائيل مثل موسى فكان حليماً جداً أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض».

فكل هذه الآيات وأمثالها تدلنا على أن المؤلف شخص آخر غير موسى، كما أن هناك زمناً بعيداً بين وفاة موسى وبين تأليف التوراة التى بأيدينا..

ومن الأدلة الأخرى على ذلك، الاختلافات والتناقضات فى النص كاستعمال (يهوه) و(ألوهيم)، وبعض الألفاظ الأخرى التى نعلم أن معانيها تختلف أحياناً حسب البيئة وحسب الزمن.. والتى لا يمكن أن تكون قد صدرت عن شخص واحد وفى عصر واحد:

فقصة الخلق مثلاً جاءت فى سفر التكوين - الإصحاح الأول: ٢٧ - وفيها: كان الإنسان آخر الخلق. وعرض لنفس القصة فى نفس السفر - الإصحاح الثانى: ٤-٢٥. فكان الإنسان هو الأول، وبعده جاءت الأشجار، فحيوانات الحقول، وطيور السماء.. الأمر الذى يجعل التوراة - كما هى الآن - وليدة عصور ونتاج عقليات متنوعة.

وقد استغلت فى سبيل وضعها مصادر عديدة، بعضها ذكر كما هو وبعضها حُذف منه أو أضيف إليه.. ومن أدلة تعدد هذه المصادر الاضطرابات الموجودة فى بعض القصص، مثلاً قصة الطوفان: فالآية الثانية عشرة من الإصحاح السابع من سفر التكوين تنص على أنه دام ٤٠ يوماً و ٤٠ ليلة، بينما نقرأ فى الآية الرابعة والعشرين من الإصحاح السابع فى نفس السفر أنه دام ١٥٠ يوماً..

ثم إن أقدم المخطوطات الموجودة للتوراة الحالية تفصل بينها وبين النسخة الأصلية التي كتبت عنها مدة تقرب من ألف عام، وفي هذه المدة طرأ على الكتابة العبرية شيء كثير من التغيير والتبديل...»^(٤).

إننا لا نبرئ موسى - عليه السلام - وشريعته الإلهية من هذا «التراث» العنصري والدموى في الحرب الدينية، استناداً - فقط - إلى القرآن الكريم، وإلى ما كتبه الثقة المتخصصون من علماء المسلمين، وإنما نستند كذلك إلى ما كتبه العلماء اليهود، الذين اشتغلوا وتخصصوا في الدراسات النقدية للسched القديم. . والذين أعلنوا نتائج دراساتهم هذه فقالوا - ضمن ما قالوا - : «إن هذه الأسفار المقدسة هي من طبقات مختلفة، وعصور متباينة، ومؤلفين مختلفين، حيث تستوعب هذه الأسفار ما يقرب من ثلاثة آلاف سنة من الزمن.. فلا ارتباط بينها، سواء في أسلوب اللغة أم في طريقة التأليف.. إن القسم الأكبر من توراتنا لم يكتب في الصحراء.. وموسى لم يكتب التوراة كلها.. وأقوال التوراة ليست إلا لفائف من أماكن وعصور مختلفة لرجال وحكام وعشائر وأسباط مختلفة.. ففيها ثمانى مجموعات تعود إلى عصور مختلفة، وهى:

- ١ - لفائف قديمة تعود إلى عصر الصحراء (فى سيناء) تم تحريرها من قبل أحد أبناء أفرايم.
- ٢ - ولفائف من تعاليم الكهنة، تمت إضافتها إليها حتى عصر يوشع بن صادق.
- ٣ - ولفائف أعداد الأسباط.
- ٤ - ولفائف باعترافات الأنبياء.
- ٥ - ومجموعات من روايات بيت داود.
- ٦ - وأقوال الأنبياء ومجموعاتهم فى بابل.
- ٧ - وأقوال الكهنة والأنبياء العائدين من السبي.
- ٨ - وتكملات مختارة من عصر الحشمونيين - [أى القرن الثانى قبل الميلاد].

... إن سفر التكوين قد أُلّف بعد مئات السنين من استيطان اليهود في فلسطين، وبعد أن تحصن الأسباط في إرث استيطانهم بزمان طويل، وإن مؤلف السفر لم يكن موجوداً على كل حال قبل عصر إشعيا - [أى حوالى ٧٣٤ - ٦٨٠ ق.م.] - ... أما بالنسبة لسفرى الخروج والعدد، فإنهما معالجة لأساطير وأشعار قديمة.. وإن الإصحاحات الثمانية والثمانين الموجودة في التوراة، بين أنشودة موسى - الموجودة في سفر الخروج - وحتى الإصحاح الأخير من سفر العدد - هى فى مجموعها كتاب أحكام مركب من أجزاء شعرية وتاريخية، وأحكام وقواعد الكهنة، وطبيعة الأحداث فيها تستلزم أن تتزايد التغييرات والازدواجيات والتعديلات حيث إن العلاقة بين الأحداث ضعيفة، ومن الصعب علينا فهمها. وفى كل الأسفار كانت أقوال موسى قليلة إلى حد ما. كما أن أقوال داود قليلة فى سفر آخر منسوب إليه...»^(٥).

ولو أننا ذهبنا نقتبس من هذا المصدر - الذى كتبه علماء يهود، وجمعه وحرره ونشره أحد علماء اليهود - النصوص التى تؤكد انقطاع صلة موسى - عليه السلام - بهذا «التراث» الذى أُلّف وجمع على امتداد آلاف السنين - وهى النصوص التى تؤكد - من ثم - براءة موسى - عليه السلام - وشريعته الإلهية من هذا الفكر العنصرى والدموى فى الحرب الدينية - لو ذهبنا إلى ذلك لاقتبسنا عشرات الصفحات! ..

إن الذين كتبوا هذا «التراث» ونسبوه إلى موسى - عليه السلام - لم يكذبوا فقط على موسى، وإنما ذهبوا فكذبوا على الله، سبحانه وتعالى.. وذلك عندما نسبوا إلى رسوله ما لم يوح إليه.. وأيضاً عندما صاغوا أحلامهم فى الغزو والإبادة «وحيّاً» و«أوامر» من الله إلى موسى - عليه السلام.. فالمعروف، والمجمع عليه أن موسى لم يدخل أرض كنعان، وأنه لم يقم بإبادة شعوب تلك البلاد.. ومع هذا، فلقد كتبوا فى سفر الخروج - على لسان الرب - أن موسى سيدخل أرض الكنعانيين والحيثيين والأموريين والحويين واليبوسيين.. وسيبّد شعوب تلك البلاد.. «ويكون متى أدخلك الرب أرض الكنعانيين والأموريين والحويين واليبوسيين.. أعادى أعداءك وأضايق مضايقيك. فإن ملاكى يسير أمامك،

ويجىء بك إلى الأموريين والحيثيين والفرزيين والكنعانيين والحويين واليبوسيين فأبيدهم.. احفظ ما أنا موصيك اليوم: ها أنا طارد من قدامك الأموريين والكنعانيين والحيثيين والفرزيين والحويين واليبوسيين. احترز أن تقطع عهداً مع سكان الأرض التى أنت آت إليها لئلا يصيروا فخاً فى وسطك..» - سفر الخروج. إصحاح ١٣ : ٥، ١١. وإصحاح ٢٣ : ٢٢، ٢٣. وإصحاح ٣٤ : ١١، ١٢..

ولو أن الرب وعد موسى وأمره بشيء من ذلك، لتحقيق وعد الرب وأمره.. لكن، بما أن شيئاً من ذلك لم يحدث، فنحن أمام كذب على الله، سبحانه وتعالى، وعلى رسوله موسى - عليه السلام.. ثم إن صورة موسى هذه تتعارض كل التعارض مع ما جاء فى وصفه فى الآية العاشرة من الإصحاح الرابع بسفر التثنية، من أنه «كان حليماً جداً أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض»..

كل ذلك الكذب من أجل التعبير عن نزعة الحرب الدينية، وعن أحلام الإبادة لكل الأغيار..

ويزيد من غرابة هذا التعصب الحاقد والحقد المتعصب ضد الأغيار، أن مبعثه ليس رفض هؤلاء الأغيار لليهودية، وحرص الحاخامات والكهنة على هدايتهم إلى اليهودية، فهم لا يدعون أحداً إلى دينهم الذى جعلوه احتكاراً لعنصرهم.. وإنما مبعث كل هذا الحقد وهذه الكراهية هو أنهم أغيار، وليسوا مولودين من أمهات يهوديات، فقط لا غير!!..

إذن، نحن أمام «تراث» دينى.. و«فكر» دينى، عندما خضع للنقد الداخلى، العلمى والموضوعى، ثبتت براءة اليهودية - كشريعة إلهية - من الانحراف إلى نزعة الحرب الدينية.. فهى، ككل الشرائع الإلهية، شريعة الدعوة إلى الله بالقول اللين: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿ [طه: ٤٣، ٤٤]..

لقد اخترعت النفوس الدموية التى كتبت أسفار العهد القديم - فى ظل محنة السبى البابلى - إلهاً دمويًا متعطشًا للارتواء بدماء كل الأمم والشعوب - غير اليهود- وتحريم - أى إبادة- كل مكونات الحياة لدى كل الأمم والشعوب- غير اليهود - فكتبوا، فى سفر حزقيال، إصحاح ٣٩ : ١٧ - ١٩ - : «هكذا قال السيد الرب: قل لطائر كل جناح ولكل وحوش البر. اجتمعوا وتعالوا احتشدوا من كل جهة إلى ذبيحتى التى أنا ذابحها لكم، ذبيحة عظيمة على جبال إسرائيل لتأكلوا لحمًا وتشربوا دمًا. تأكلوا لحم الجبابرة وتشربوا دم رؤساء الأرض، كباش وحمelan وأعتدة وثيران كلها من مسمنات باشان. وتأكلون الشحم إلى الشبع وتشربون الدم إلى السكر من ذبيحتى التى ذبحتها لكم».

وكتبوا - فى سفر إشعيا، إصحاح ٣٤ : ١ - ٦ - : «اقتربوا أيها الأمم لتسمعوا، وأيها الشعوب اصغوا لتسمع الأرض وملؤها، المسكونة وكل نتائجها. لأن للرب سخطًا على كل الأمم وحمومًا على جيشهم. قد حرّمهم دفعهم إلى الذبح. فقتلهم تطرح وجيفهم تصعد نتانتها وتسيل الجبال بدمائهم. ويغنى كل جند السموات.. للرب سيف قد امتلأ دمًا!!

هكذا بلغت القسوة بالقلوب التى كتب أصحابها هذا «التراث».. كتبه بأيديهم، ثم قالوا هو من عند الله!..

٥ - الحرب الدينية فى «التاريخ» اليهودى

وبعد اختلاق «الفكر والتراث».. ذهبوا إلى اختلاق «التاريخ»!.. فلم يكتفوا بهذا الذى كتبه بأيديهم ثم قالوا هو من عند الله.. ولا بهذه الصورة البشعة التى رسموها لله - تعالى الله عما يكذبون - وإنما ذهبوا «فاختلقوا واقعًا» - نعم «اختلقوا واقعًا» حدثت فيه معارك هذه الحروب الدينية التى تمنوها، وقاتمت فى هذه المعارك المتخيلة «الإبادة الإلهية» التى حلموا بها لكل من عدا اليهود.. «لأن للرب سخطًا على كل الأمم»!.. ولم يفكروا - وهم يكتبون هذا - أن هذه الإبادة الإلهية لكل الأمم والشعوب، لو حدثت - على النحو الذى كتبوا - لما بقى فى هذا العالم غير اليهود!..

ولقد أثبتت الدراسات التي قامت وتمت حول حروب العهد القديم هذه، أن هذا الاختلاق لواقع المعارك والحرب قد كان «إعادة إنتاج» لأخبار الحروب التي تحدثت عنها الملاحم الأسطورية في مواريث الشعوب الأخرى، فجعلها كتبة أسفار العهد القديم حروبًا لإسرائيل ضد كل الشعوب!..

ولقد أشار «روبرت كارول»، في دراسته عن الحرب في العهد القديم إلى أن قصة حرب الملك «آحاب» - في الإصحاح الثاني والعشرين من سفر الملوك - تتفق بشكل ما مع ما صوره «هوميروس» [القرن التاسع قبل الميلاد] في الإلياذة، مع اختلافات طفيفة.. وأن هذه الصورة الدموية التي رسموها للرب، هي إعادة إنتاج للصورة الدموية للآلهة اليونانية «زيوس» و«هيرا»!..^(٦)

بل لقد اخترعوا وجودًا لمدن كنعانية، حتى يخترعوا معارك وحروبًا يتم فيها - بهذه المدن - التنفيذ والتطبيق للفكر الدموي الذي كتبوه!.. فالمعركة التي قالوا إن «يشوع بن نون» قد خاضها ضد مدينة «عاى» وملكها وأهلها، قد أثبتت الحفريات الأثرية أنه لم تكن هناك - فى ذلك التاريخ - مدينة بهذا الاسم فى ذلك المكان.. «لم تكن هناك مدينة تدعى عاى ولا ملك يدعى ملك عاى.. وإنما مجرد أطلال خربة يرجع تاريخها إلى ١٢٠٠ سنة..» وكذلك الحال مع ما كتبوه عن معركة «يشوع» ضد مدينة «حاصور» - [إصحاح ١١ : ١٠ - ١٧] - فلقد تم تدمير هذه المدينة فى نهاية القرن الرابع عشر قبل الميلاد، ثم أعيد بناؤها لتدمر ثانية سنة ١٢٣٠ تقريبًا..»^(٧).

إذن، فنحن - كما يقول «روبرت كارول» - فى دراسته عن الحرب فى العهد القديم - : «أمام نصوص بشرية عبرية، تمثل «إنتاجًا فكريًا للمجتمعات القديمة.. ونصوص الحرب فيها إنما تنتمى إلى إنتاجات فكرية لكتاب العهد القديم أكثر من كونها أوصافًا للحرب» التى حدثت فى الواقع والتاريخ!..»^(٨)

بل إن مأساة الكذب وملهاته لتبلغ الذروة عندما نقرأ أرقام قتلى هذه

الحروب الدينية، التى حلم بها «واخترع» لها «واقعاً» هؤلاء الذين كتبوا هذه الأسفار. . . فلقد بلغوا بضحايا تلك الحروب المشتهاة أرقاماً ربما فاقت أرقام تعداد سكان مسرح أحداثها عدة مرات - فى ذلك التاريخ القديم - . . . بلغوا فيها نحو مليونين من الضحايا. . . ناهيك عن الضحايا الذين لم يتم إحصاء أعدادهم - فى زمن كان حال الإحصاء فيه على نحو ما يعرف الجميع-! . . .

وحتى نجسد للقارئ الفوارق الجوهرية والنوعية بين العقلية الإسلامية والتاريخ الحقيقى والموثق الذى صنعه المسلمون. . . وبين العقلية اليهودية والتاريخ الوهمى الذى تخيلته وحلمت به. . . نسوق رقم ضحايا كل الغزوات التى انتصر بها الإسلام على الشرك والوثنية، وغير بها مجرى التاريخ. . . والتى لا يتعدى رقمها ٣٨٦ قتيلاً، هم جملة قتلى المشركين وشهداء المسلمين. . . لنقارنه برقم المليونين من الضحايا فى الحروب الدينية التى أورد أخبارها الكهنة فى أسفار العهد القديم. . .

وزيادة فى التوثيق، نقدم هنا جدولاً بالغزوات الإسلامية التى تمت فى العصر النبوى. . . وآخر بالحروب التى وردت أخبارها وأرقام ضحاياها فى العهد القديم. . .

أما فتوحات الإسلام خارج إطار الشرك الوثنى فى شبه الجزيرة العربية، فلقد كانت جميعها حروب تحرير لشعوب الشرق من القهر الدينى والسياسى والحضارى الذى مارسه قوى وإمبراطوريات الاستعمار البيزنطى والفارسى ضد تلك الشعوب. . . ولقد دارت جميع معارك هذه الفتوحات ضد جيوش الاحتلال البيزنطى والفارسى. . . ولم تدر معركة واحدة منها ضد شعوب تلك البلاد. . . بل لقد حاربت شعوب تلك البلاد - وهى على دياناتها القديمة. . . مع العرب المسلمين ضد الروم والفرس. . . لتحرير بلادها. . . ولتحرير ضميرها من القهر والاضطهاد. . .

غزوات الإسلام التي حدث فيها قتال

رقم	الغزوة	تاريخها	عدد قتلى المشركين	عدد شهداء المسلمين	ملاحظات
١	غزوة بدر	٢هـ	٧٠	١٤	
٢	غزوة السويق	٢هـ	-	٢	
٣	بعث كعب بن الأشرف	٣هـ	١	-	
٤	غزوة أحد	٣هـ	٢٢	٧٠	
٥	غزوة حمراء الأسد	٣هـ	١	-	
٦	بعث الرجيع	٣هـ	-	٧	
٧	بعث بئر معونة	٣هـ	-	٢٧	
٨	غزوة الخندق	٥هـ	٣	٦	
٩	غزوة بنى قريظة	٥هـ	-	-	ال ٦٠٠ الذين قتلوا من بنى قريظة لم يقتلوا فى الحرب... وإنما قتلوا قضاء بالتحكيم - الذى ارتضوه - جزاء على خيانتهم... فلا يحسبون فى قتلى المعارك...
١٠	بعث عبدالله بن عتيك	٥هـ	١	-	
١١	غزوة ذى قرد	٦هـ	١	٢	
١٢	غزوة بنى المصطلق	٦هـ	-	١	
١٣	غزوة خيبر	٧هـ	٢	٢٠	
١٤	غزوة وادى القربى	٧هـ	-	١	
١٥	غزوة مؤتة	٨هـ	-	١١	
١٦	فتح مكة	٨هـ	١٧	٣	
١٧	غزوة حنين	٨هـ	٨٤	٤	
١٨	غزوة الطائف	٨هـ	-	١٣	
	المجموع		٢٠٣	١٨٣	المجموع الكلى من الجانين ٣٨٦ (٩)

ضحايا حروب العهد القديم

المصدر	عدد ضحايا غير اليهود	مسلسل
يشوع ٢٥ / ٨	١٢,٠٠٠ ضحايا عاي	١
قضاة ٤ / ١	١٠,٠٠٠ من الكنعانيين والفرزيين	٢
قضاة ٢٩ / ٣	١٠,٠٠٠ من موآب	٣
قضاة ١٠ / ٨	١٢٠,٠٠٠ من مديان	٤
قضاة ٤٩ / ٩	١٠٠٠ من شكيم	٥
قضاة ١٩ / ١٤	٣٠ من أشقلون	٦
قضاة ١٧ / ١٥	١٠٠٠ من الفلسطينيين	٧
قضاة ٢٧ / ١٦	٣٠٠ من الفلسطينيين	٨
صموئيل أول ١٤ / ١٤	٢٠ من الفلسطينيين	٩
صموئيل أول ٢٧ / ١٨	٢٠٠ من الفلسطينيين	١٠
صموئيل ثان ٥ / ٨	٢٢,٠٠٠ من آرام	١١
صموئيل ثان ١٣ / ٨	١٨,٠٠٠ من آرام	١٢
صموئيل ثان ١٨ / ١٠	٤٠,٠٠٠ من آرام	١٣
ملوك أول ٢٩ / ٢٠	١٠٠,٠٠٠ من آرام	١٤
ملوك ثان ٧ / ١٤	١٠,٠٠٠ من أدوم	١٥
ملوك ثان ٣٥ / ١٩	١٨٥,٠٠٠ من آشور	١٦
أخبار الأيام الأول ١٣ ، ٩ / ١٤	١,٠٠٠,٠٠٠ من الكوشيين	١٧
إستير ٥ / ٩	٥٠٠ من الفرس	١٨
إستير ١٦ / ٩	٧٥,٠٠٠ من الفرس	١٩
إستير ١٥ / ٩	٣٠٠ من الفرس	٢٠

مجموع الضحايا من غير اليهود ٦٥٠,٦٣٥,١

مستسل	عدد ضحايا اليهود في حروبهم الداخلية أو مع الأجانب	المصدر
٢١	٤٢,٠٠٠ من أفرايم	قضاة ٦/١٢
٢٢	٢٢,٠٠٠ من إسرائيل	قضاة ٢١/٢٠
٢٣	١٨,٠٠٠ من إسرائيل	قضاة ٢٥/٢٠
٢٤	٢٥,٠٠٠ من بنيامين	قضاة ٣٢/٢٠
٢٥	٣٠ من إسرائيل	قضاة ٣٩/٢٠
٢٦	١٨,٠٠٠ من بنيامين	قضاة ٤٢/٢٠
٢٧	٢,٠٠٠ من بنيامين	قضاة ٤٥/٢٠
٢٨	٤,٠٠٠ من إسرائيل	صموئيل أول ٢/٤
٢٩	٣٠,٠٠٠ من إسرائيل	صموئيل أول ١٠/٤
٣٠	٥٠,٠٧٠ من بيتشمن	صموئيل أول ١٩/٦
٣١	٨٥ من الكهنة	صموئيل أول ١٩/٢٢
٣٢	٢٠ من عبيد داود	صموئيل أول ٣٠/٢
٣٣	٣٦٠ من رجال أبنيير	صموئيل أول ٣٠/٢
٣٤	٢٠,٠٠٠ من إسرائيل	صموئيل ثانٍ ٧/١٨
٣٥	٤٢ من إخوة أخزيا	صموئيل ثانٍ ١٣/١٠
٣٦	٥٠ من الجلعاويين	صموئيل ثانٍ ٢٥/١٥
٣٧	١٢٠,٠٠٠ من يهوذا	أخبار الأيام: الثاني ٦/٢٨
٣٨	٧٠ من إخوة أبيمالك	قضاة ٥/٩

مجموع الضحايا من اليهود ٨٢٧,٣٥٢ ..
والمجموع الكلى للضحايا- المحصاة- من الجانبين ٤٧٧,٩٨٨, ١ قتيلاً! (١٠)

تلك هى حقيقة الانحراف اليهودى نحو الحرب الدينية . . والتراث اليهودى الحالم بإبادة الآخرين، والمشتهى لإبادة كل الأغيار . . والصياغات الفكرية . . والخيالات والأمنيات اليهودية فى هذا الميدان . .

فالرب، فى هذا التراث، هو «رب الجنود» «المحارب» . . و«الساخط على كل الأمم» - غير اليهود . . شعبه المختار . . والمقدس . . دون كل الشعوب وفوق جميع الشعوب - وهو الذى يبيد كل الأمم، ويدفعهم للذبح . . «فقتلهم تطرح، وجيفهم تصعد نتانتها، وتسيل الجبال بدمائهم، ويسغى كل جند السماوات للرب الذى امتلأ سيفه دمًا»! . . وهو قد اختار اليهود «ليأكلوا كل الشعوب أكلاً» . . دون أن تشفق عليهم الأعين أو أن يقطعوا لهذه الشعوب عهدًا!

وهو «تراث وتاريخ» ننزه الله، سبحانه وتعالى، وننزه رسوله موسى - عليه السلام - وننزه شريعة اليهودية الحقّة عن هذا الذى كتبوه . . وصدق الله العظيم: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

ولقد تم إحياء هذا «التراث» على يد الحركة الصهيونية الحديثة - التى عقدت حلفًا غير مقدس مع الإمبريالية الغربية - لا لتقف الحرب والإبادة عند الخيالات والتمنيات - كما كان الأمر قديمًا - وإنما لتوضع هذه الإبادة - للفلسطينيين والعرب والمسلمين - فى الممارسة والتطبيق! . . ولينفذ الجنود الصهاينة - فى الأرض العربية المحتلة - فتاوى الحاخامات - التى تطبعها الدولة الصهيونية - والتى تُطبق على العرب «التراث» الذى اخترعه الكهنة والحاخامات لإبادة العماليق . . فإلههم «يهوه» ساخط على كل الأمم، ومتعطش للارتواء بالدماء! . .

وإلى الذين يمارون فى أن الكيان الصهيونى القائم على أرض فلسطين الآن إنما يحيى ويمارس هذا «التراث اليهودى فى الحرب الدينية»، نشير إلى الدراسة التى قام بها العالم «ه. تمارين» بواسطة «الاستفتاء الذى أجراه فى عدد من مدارس تل أبيب والمدن والمستعمرات الإسرائيلية، حول الأساليب التى انتهجها

«يشوع بن نون» [فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد] فتوصل إلى أن نحو ٦٦٪ - ٩٥٪ من تلاميذ هذه المدارس قد يؤيدون إبادة يشوع لكل من عدا اليهود.. وأن ٣٠٪ من التلاميذ يؤيدون بصورة قطعية إبادة سكان العرب قداماً فى المناطق المحتلة من فلسطين.. ومن الأجوبة التى تلقها «هذا تمارين» : «لقد تصرف يشوع بن نون تصرفاً حسناً بقتله جميع سكان أريحا؛ ذلك لأنه كان من الضروري احتلال البلاد كلها، ولم يكن لديه وقت لإضاعته مع الأسرى!!»

وثمة إشارات عديدة فى أدبيات الجماعات الصهيونية المتدينة - مثل «جوش إيمونيم» و«كاخ» - إلى «يشوع بن نون»، وإلى أن أسوبه فى الإبادة هو الأسلوب الأمثل فى التعامل مع العرب.. وقد دعا «كاخ» - رئيس جماعة «كاخ» - المؤسسة الدينية اليهودية إلى تبيان أن أسلوب «يشوع بن نون» فى الإبادة لكل غير اليهود، هو جزء عضوى من الدين اليهودى والرؤية اليهودية لسكان الأرض العربية من غير اليهود^(١١).

هذه هى الحرب الدينية فى التراث اليهودى.. وهذا هو الإحياء لهذا التراث.. وممارسة نزعة الإبادة لكل الأغيار ضد الفلسطينيين والعرب والمسلمين.

٦- منهاج الدعوة فى النصرانية

إن رفض النصرانية، التى جاء بها المسيح عيسى ابن مريم - عليه السلام - للتعنف وللحرب - دينية وغير دينية - لا يحتاج إلى حديث كثير.. فهى شريعة الصوفية المسالمة، والسلام الصوفى، التى بلغت فى السلام والمسالمة حدوداً ربما عزّت على التطبيق خارج دائرة خواص الخواص.. فلقد جاءت النصرانية لتعالج «التراث اليهودى» - وليس الدين اليهودى والشريعة الموسوية - الذى وصل على طريق المادية والعنف وقسوة القلوب وغلظ الأعناق والأقفية حدوداً أخرجت هذا «التراث» - وتطبيقاته - عن منهاج موسى - عليه السلام.. فكان هذا السلام، فى النصرانية، على هذا النحو المغالى فى المسالمة، علاجاً للتراث اليهودى المغالى فى العنف والمادية، قصداً إلى الوصول إلى صيغة وسطى ومتوازنة بين هذين النموذجين المتقابلين والمتناقضين..

وفى هذه الحقيقة السر والتفسير للوصايا الإنجيلية، التى ذهبت على درب السلام والمسالملة إلى حد القول: «سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن. أما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر. بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً. ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً. ومن سخرّك ميلاً واحداً فاذهب معه اثنين.. سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك. وأما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم وباركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيك، وصلّوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم لكي تكونوا أبناء أبيكم الذى فى السماوات».. إنجيل متى. إصحاح ٥: ٣٨ - ٤١، ٤٣ - ٤٥....

هكذا بدأت وظلت منهجية الدعوة فى النصرانية: السلام المتصوف.. والصوفية المسالملة.. وخلاص النفوس.. وتقوى القلوب.. وإدارة الظهر للعالم والدولة والسياسة والاجتماع، على النحو الذى يباعد بين عالم النصرانية وبين هذا العالم المعيش، بما فيه من دولة ونظم وقوانين وإدانة وعقاب، فضلاً عما فى هذا العالم المعيش من عنف وحرب وقتال.. فمملكة النصرانية ليست فى هذا العالم.. وذروة سنام النصرانية الرهبنة، التى تجعل الراهب يغادر العالم المعيش!..

٧- الحرب الدينية فى تراث النصرانية الغربية

لكن.. كما حدث مع اليهودية، جاء «التراث النصرانى» - وبالذات تراث النصرانية الغربية - انقلاباً على هذا المنهاج الصوفى المسالم الذى جاء به المسيح - عليه السلام..

ونحن نقول: «تراث النصرانية الغربية»؛ لأنه لا بد من التمييز القاطع بين النصرانية الشرقية والنصرانية الغربية.. فالنصرانية الشرقية ظلت طوال تاريخها وفية للمبدأ النصرانى: «دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله»، فلم تدخل ميدان السياسة والدولة والسلطة، وإنما وقفت كنائسها عند خلاص الروح ومملكة السماء.. ومن ثم فإنها لم تمارس العنف القتالى ولا الحروب الدينية، بل لقد

كانت فى قرونها الأولى- السابقة على ظهور الإسلام وتحريره للشرق - ضحية للاضطهاد الدينى الذى مارسه ضدها الرومان، فى عصر وثنيّتهم، وفى عصر نصرانيّتهم على السواء، وهو اضطهاد قارب حد الإبادة، ومع ذلك اتخذت هذه النصرانية إزاء هذا الاضطهاد موقف المسالمة واللاعنف، على نحو فريد . ولم يحدث فى تاريخ هذه النصرانية الشرقية، اللجوء إلى العنف، اللهم إلا ضد الوثنية المصرية ومعابدها وفلاسفتها فى مرحلة من مراحل التاريخ . أما حال النصرانية الغربية وكنائسها، فكان مختلفًا -فى هذه القضية- كل الاختلاف .

فمنذ دخول النصرانية -على يد بولس- إلى العاصمة الرومانية -روما- ودولتها، تحولت عن طبيعتها الروحية الخالصة، والصوفية المسالمة، لتصبح جزءًا من الحضارة الغربية، ذات الجذور اليونانية، التى تعتمد فلسفة القوة، والطابع المادى . ولقد عبرت عن هذا التحول الكيفى والنوعى للنصرانية فى الغرب، تلك الكلمات العميقة التى قالها الفيلسوف المعتزلى قاضى القضاة عبد الجبار بن أحمد الهمدانى [٤١٥ هـ - ١٠٢٤ م]: «إن النصرانية عندما دخلت روما، لم تنتصر روما، ولكن النصرانية هى التى تروّمت»!

ومنذ ذلك التاريخ ، غدت النصرانية الغربية جزءًا من التراث الحضارى الغربى أكثر مما أصبح هذا التراث الحضارى الغربى نصرانيًا، بالمعنى الروحى والصوفى والسلمى للنصرانية الأولى .

* ولقد مارست كنيسة هذه النصرانية الغربية، ومعها الدولة الرومانية والبيزنطية -بعد تدين هذه الدولة بالنصرانية- مارستا حربًا من الاضطهاد البشع ضد النصرانية الشرقية، والمصرية منها على وجه الخصوص . حتى لقد اعتبر النصارى المصريون هزيمة الدولة البيزنطية أمام الفتح الإسلامى عقابًا إلهيًا لهذه الدولة وكنيستها على الاضطهاد الذى مارسوه ضد نصارى مصر، عندما أصبحوا - فى هذا الاضطهاد الدينى والحضارى - طعامًا للنار والأسود

وأسماء البحار!.. وصبت عليهم كل ألوان التعذيب!.. فكتب «ميخائيل السريانى» يقول: «لم يسمح الإمبراطور لكنيستنا المونوفيزتية -[أى القائلة بالطبيعة الواحدة للمسيح]- بالظهور، ولم يصغ إلى شكاوى الأساقفة فيما يتعلق بالكنايس التى نهبت، ولهذا فقد انتقم الرب منه.. لقد نهب الرومان الأشرار كنائسنا وأديرتنا بقسوة بالغة، وانهموننا دون شفقة، ولهذا جاء إلينا من الجنوب أبناء إسماعيل -[أى العرب المسلمون]- لينقذونا من أيدي الرومان، وتركنا العرب نمارس عقائدنا بحرية، وعشنا فى سلام» (١٢).

فبسبب اختلاف المذهب، وقفت الكنيسة الرومانية مع دولتها الاستعمارية، ومارست القهر الدينى والحضارى للنصارى الشرقيين..

* * *

* كذلك شنت الكنيسة الغربية ضد الشرق الإسلامى حرباً صليبية - «مقدسة»- استمرت حملاتها قرنين من الزمان [٤٨٩ - ٦٩٠ هـ - ١٠٩٦ م] وأشركت فيها الملوك وأمراء الإقطاع والرعاى من سائر أنحاء أوروبا- حتى لكأنها أولى الحروب العالمية التى مارسها الغرب ضد الشرق!- وفى هذه الحرب الصليبية استخدمت الكنيسة الدين لتحقيق المقاصد الاستعمارية، ولإعادة اختطاف الشرق من التحرير الإسلامى الذى أنقذ الشرق ونصرانيته من إبادة الاضطهاد «الإغريقى - الرومانى» الذى دام عشرة قرون -من الإسكندر الأكبر [٣٥٦ - ٣٢٤ ق.م] - فى القرن الرابع قبل الميلاد- إلى الفتوحات الإسلامية- فى القرن السابع للميلاد-..

إنها حرب قادتها الكنيسة وأعلنها البابا الذهبى «أوربان الثانى» [١٠٨٨ - ١٠٩٩ م] عندما خاطب فرسان الإقطاع الأوربيين سنة ١٠٩٥ م فى «كلير مونت» بجنوبى فرنسا- قائلاً: «يا من كنتم لصوصاً كونوا اليوم جنوداً! لقد آن الزمان الذى فيه تحولون ضد الإسلام تلك الأسلحة التى أنتم لحد الآن تستخدمونها بعضكم ضد بعض.. فالحرب المقدسة المعتمدة الآن.. هى.. فى حق الله عينه..

وليست هى لاكتساب مدينة واحدة.. بل هى أقاليم آسيا بجملتها، مع غناها وخزائنها العديمة الإحصاء..

فاتخذوا محجة القبر المقدس، وخلّصوا الأراضى المقدسة من أيادى المختلسين، وأنتم املكوها لذواتكم، فهذه الأرض -حسب ألفاظ التوراة- تفيض لبنًا وعسلًا.. ومدينة أورشليم هى قطب الأرض المذكورة، والأمكنة المخصصة المشابهة فردوسًا سماويًا..

اذهبوا وحاربوا البربر -[يقصد المسلمين!] - لتخليص الأراضى المقدسة من استيلائهم.. امضوا متسلحين بسيف مفاتيحى البطرسية -[أى مفاتيح الجنة التى صنعها لهم البابا!] - واكتسبوا بها لذواتكم خزائن المكافآت السماوية الأبدية. فإذا أنتم انتصرتكم على أعدائكم، فالملك الشرقى يكون لكم قسماً وميراثاً.

وهذا هو الحين الذى فيه أنتم تفسدون عن كثرة الاغتصابات التى مارستموها عدواناً.. ومن حيث إنكم صبغتم أيديكم بالدم ظلمًا فاغسلوها بدم غير المؤمنين^(١٣)..

فهى حرب «دينية- استعمارية»، يذهب إليها فرسان الإقطاع الأوروبيون، اللصوص المصطبغة أيديهم بدماء المظلومين، ليغسلوا أيديهم بدماء المسلمين!!.. وهم فى حملاتهم الصليبية المقدسة هذه، يحملون مفاتيح الجنة- المفاتيح البطرسية- التى صنعها لهم البابا الذهبى «أوربان الثانى» - ليفتدوا أنفسهم من كثرة الاغتصابات التى مارسوها عدواناً.. وأيضًا ليتملكوا ويرثوا- بهذه الحرب «المقدسة»- التى هى «فى حق الله عينه» - أى فى سبيل الذات الإلهية -!- حسب تعبير البابا- كل أقاليم آسيا ذات الخزائن الغنية التى تفوق الإحصاء، والتى تفيض لبنًا وعسلًا!!.. والتى تشابه فى الخصوبة فردوسًا سماويًا!!..

هكذا تحولت المقاصد الدينية المقدسة إلى سبل وآليات وطاقات شحن لتحقيق الاستعمار والنهب والاستغلال.. وأصبحت الآخرة فى خدمة لصوص

الدنيا.. وحملت الأيدي المخضبة بدماء المظلومين مفاتيح الفردوس الإلهي الأعلى!..

وفى موقعة احتلال الصليبيين لمدينة القدس وحدها سنة ١٠٩٩م تمت مجزرة الإبادة الكاملة لسكانها المسلمين - ومعهم اليهود - بالقتل والذبح والإحراق.. ونحن ننقل عن شهود العيان النصارى، الذين حفظت لنا مشاهداتهم المصادر النصرانية، لمحة من لمحات هذه الحرب الدينية النصرانية على الإسلام والمسلمين. تقول هذه الشهادات - فى كتاب [تاريخ الحروب المقدسة فى الشرق، المدعوة حرب الصليب]: «إن ديوان المشورة العسكرية التيم - [أى اجتمع] - وقطع حكماً مرهباً، وهو: أن يمات كل مسلم باق داخل المدينة المقدسة.. وهذا الحكم المهيل قد تباشر بالعمل.. ودامت هذه الملحمة مدة سبب - [أى سبعة أيام] - كاملة!!..»

وحتى الذين هربوا واحتتموا بالمسجد - مسجد عمر بن الخطاب (قبة الصخرة) - ذبحهم الصليبيون فى المسجد.. وبعبارة شهود العيان: «.. على أنه باطلاً - [أى عبثاً] - كان الإسلام - [أى المسلمون] - فى أورشليم يجدون مفتشين عن مهرب يحمون به حياتهم.. فعدد كلى منهم قد هربوا إلى جامع عمر ظانين أنهم هناك يحمون ذواتهم من الموت، ولكن ظنهم خاب، إذ إن الصليبيين - خيالة ومشاة - قد دخلوا الجامع المذكور، وأبادوا بحد السيف كل الموجودين هناك.. حتى استوعب الجامع من الدم بحرًا متموجًا، علا إلى حد الركب، بل إلى لجُم الخيل.. وذلك مما فتكت به سيوف الجيوش الصليبية أرقاب - [أى رقاب] - الإسلام - [أى المسلمين]..» (١٤).

وبعد أن «كلّت أيدي الصليبيين من سفك الدماء!!» - كما يقول مؤلف هذا الكتاب: رجل الدين النصرانى «مكسيموس مونروند» - ذهبوا إلى كنيسة القيامة - التى حررها عمر بن الخطاب، وتخرج أن يصلى فيها، كى تظل خالصة للنصرانية والنصارى - ذهب الصليبيون إلى كنيسة القيامة، وهم سكارى،

يرددون الصلوات، وأيديهم غارقة في دماء المسلمين الذين ذبحوهم في مسجد عمر بن الخطاب!!.. وبعبارة شهود العيان النصارى: «.. ولما حل المساء، اندفع الصليبيون يكون من فرط الضحك -[!!]- بعد أن أوتوا على نبذ المعاصر -[!!]- إلى كنيسة القيامة، ووضعوا أكفهم الغارقة في الدماء على جدرانها، ورددوا الصلوات..!!»

ثم كتبوا إلى البابا الذهبى «أوربان الثانى»، الذى صنع لهم مفاتيح الجنة لقاء هذا الذى صنعوا بالإسلام والمسلمين.. فقالوا: «ياليتك كنت معنا لتشهد خيولنا وهى تسبح فى دماء الكفار -[أى المسلمين]-..!!»

وإذا كانت هذه شهادة نصرانية قديمة، تؤكد على توسل الكنيسة الغربية بالدين لإعادة اختطاف الشرق من الإسلام، لنهب ثرواته.. فإن شهادة نصرانية معاصرة تؤكد -هى الأخرى- على الطابع الدينى لهذه الحرب الصليبية- التى دأمت قرنين ضد الإسلام- وفى هذه الشهادة المعاصرة يقول الدكتور «چاك تاجر»: «إن ضخامة الوسائل التى أعدها الصليبيون، وتعدد هجماتهم، تدل بلا شك على أن الحروب الصليبية كانت محاولة لمحو نفوذ الإسلام فى الشرق، فقد شنت هذه الحرب أول ما شنت لانتزاع حماية القبر المقدس من الخلفاء، ولكنها ما لبثت أن تحولت إلى قتال عام بين جيوش الإسلام وجيوش المسيحية، أى بين الشرق المسلم والغرب المسيحى»^(١٥).

* * *

* وصفحة أخرى -دامية- من صفحات الحروب الدينية للكنيسة الغربية، تلك التى تمثلت فى نشر النصرانية بحد السيف، وإبادة كل من لم يتدين بدين الملك أو الأمير الذى اعتنق النصرانية!..

- فالملك «شارلمان» [٧٤٢- ٨١٤م] فرض النصرانية على السكسونيين بحد السيف!..

- وفى الدنمارك، استأصل الملك «كنوت - Cnut» [٩٩٥ - ١٠٣٥م] الديانات غير المسيحية من بلاده بالقوة والإرهاب! ..
- وفى روسيا، فرض الأمير «فلاديمير - Vladimir» [٩٨٠ - ١٠١٥م] المسيحية الأرثوذكسية على كل الروس غداة اعتناقه لها سنة ٩٨٨م! .
- وفى الجبل الأسود، ذبح «دانيال بيتروفيتش - D. Petrovich» غير المسيحيين - بمن فيهم المسلمون - ليلة عيد الميلاد سنة ١٧٠٣م! .
- وفى المجر أرغم الملك «شارل روبرت» [١٣١٦ - ١٣٧٨م] غير المسيحيين على التنصر أو النفى من البلاد سنة ١٣٤٠م! .
- وفى إسبانيا - قبل الفتح الإسلامى لها - أقسم الملوك على التنفيذ بالقوة لقرار «المجمع الكنسى السادس» - فى طليطلة - تحريم كل المذاهب المخالفة للمذهب الكاثوليكي! ..

* * *

* أما الحروب الدينية التى قادتها وخاضتها الكنائس الغربية بعضها ضد البعض الآخر - أى فى داخل النصرانية، وبين أتباع مذاهبها، التى أصبح لكل مذهب فيها «قانون للإيمان» يحتكر الخلاص لأبناء المذهب دون سواهم - هذه الحروب التى اشتعلت لإبادة المخالفين فى المذهب، أو إكراههم على تغيير عقيدتهم.. فإنها شهيرة، حتى لقد مثلت «عصرًا» من عصور الحضارة الغربية!.. وهى قد امتدت أكثر من قرنين، بين الكاثوليك وبين البروتستانت!.. واشتهر منها إحدى عشرة حربًا - [١٥٦٢ - ١٥٦٣م] و [١٥٦٧ - ١٥٦٨م] و [١٥٦٩ - ١٥٧٠م] و [١٥٧٢ - ١٥٧٣م] و [١٥٧٤ - ١٥٧٦م] و [١٥٧٦ - ١٥٧٧م] و [١٥٨٠م] و [١٥٨٥ - ١٥٩٤م] و [١٥٨٦م] و [١٦٢١م] و [١٦٢٥ - ١٦٢٩م] ..

ولقد ذهب ضحية لهذه الحروب ٤٠٪ من سكان وسط أوروبا!.. ووفق إحصاء «فولتير» [١٦٩٤ - ١٧٧٨م] عشرة ملايين إنسان! ..

وذلك غير حرب الكنيسة اللاتينية الغربية ضد كنيسة أياصوفيا اليونانية -
بالقسطنطينية- [١٢٠٢ - ١٢٠٤م]، والتي تم فيها التدمير والاحتلال والسلب
والنهب لمملكة القسطنطينية بأسرها!!.. (١٦)

* * *

* أما صفحة الحرب الدينية التي أعلنتها وخاضتها الكنائس الغربية، باسم
«محاكم التفتيش» عندما أعلنت أن «خلاص» المخالفين إنما يتحقق «بتخليصهم من
الحياة»!، بعد صب صنوف العذاب عليهم!!.. فلقد دامت هذه الحرب البشعة
من عهد البابا «إنوسنت الثالث» [١١٩٨-١٢١٦م] - في القرن الثالث عشر
الميلادي - حتى القرن السابع عشر!!.. وغطت جميع ممالك وإمارات النصرانية
الغربية.. وذهب ضحيتها ملايين الضحايا، الذين حكمت عليهم الكنيسة
«بالخلاص: الذى يخلصهم من الحياة» بالإغراق - أو الإحراق.. أو الإعدام
على الخازوق - الذى استمر عقوبة للمخالفين ثلاثة قرون!!.. (١٧)

* * *

* أما أحدث صفحات وموجات هذه الحروب الدينية الغربية ضد الإسلام
وأُمته وعالمه، فهى تلك التى أعلنها اليمين الدينى الأمريكى، فى الإدارة
الأمريكية، بقيادة «جورج بوش - الصغير»، بعد أحداث الحادى عشر من
سبتمبر سنة ٢٠٠١م - فى أمريكا..

وهى حرب تستهدف بترول الشرق الإسلامى - من منطقة البحيرات الأفريقية
إلى بحر قزوين، مروراً بالعراق والخليج العربى - لتحقيق الهيمنة الأمريكية
على العالم، وانفراد الإمبريالية الأمريكية بالزعامة - دون شريك - فى القرن
الواحد والعشرين.. ويقودها اليمين الدينى الأمريكى، برؤية توراتية، توحد
بين هذا اليمين البروتستانتى وبين اليمين اليهودى والصهيونى..

وإذا كان الجميع مجمعين على استهداف هذه الحرب الاستيلاء على مصادر

الطاقة، للانفراد بالهيمنة على العالم.. فإن الطابع الدينى لهذه الحرب على الإسلام والمسلمين تقوم عليه شواهد وأدلة وحقائق عديدة.. وإذا كان البعض يمارى فى هذا البعد الدينى لهذه الحرب الاستعمارية، فإننا نسوق عدداً من الأدلة والبراهين التى تدحض هذه الممارسة.. ونقف فى هذه الأدلة والبراهين عند أقوال الغربيين، واعترافات الأمريكيين، لتكون شهادات شهود من أهلها على هذا الطابع الدينى لهذه الحرب الاستعمارية - التى أعلنها اليمين الدينى الأمريكى، بقيادة «بوش الصغير»، على العالم الإسلامى - عقب أحداث الحادى عشر من سبتمبر سنة ٢٠٠١م.. وقبل بدء التحقيق فى هذه الأحداث - التى انتهى التحقيق فيها دون توجيه أى اتهام قانونى لأى متهم من المتهمين-!!..

- لقد وصف «جورج بوش - الصغير» هذه الحرب فى ١٦ سبتمبر سنة ٢٠٠١م- بأنها «حملة صليبية»- وهى عبارة لمعناها فى العقل المسلم تاريخ - ثم جرت محاولات- غربية.. ومتغربة! - للتخفيف من وقع هذه العبارة على العالم الإسلامى، بالقول: إنها «زلة لسان»!..

لكن تداعيات الوقائع والأحداث، فى هذه الحرب الممتدة، قد جعلت حتى القاتيكان - وهو أكبر كنائس النصرانية - يعلن- من خلال إذاعته الرسمية، التى تذيع بتسع وثلاثين لغة، وعلى لسان مدير هذه الإذاعة الرسمية الأب «باسكوالى بور جوميو»- يعلن أن الإدارة الأمريكية، فى حملتها على العراق، تتصرف «بلهجة ومواقف صليبية»، فيقول: «فى الوقت الذى يدعو القاتيكان إلى التعقل، ويشجع العمل الدبلوماسى، ويدافع عن الحق الدولى، نرى فى الجانب الآخر قوة عظمى تقودها إدارة خوَّلت إلى نفسها مهمة إنقاذية -[مقدسة]- واتخذت لهجة ومواقف صليبية»!!..(١٨)

كما صرح مصدر رفيع، فى القاتيكان، «بأن الحرب الأمريكية على العراق ستفسر من قبل ملايين المسلمين فى العالم الإسلامى بأنها حرب صليبية جديدة..». أما بابا القاتيكان «يوحنا بولس الثانى» فلقد أعلن: «أننى أخشى أن تثير الحرب على العراق صراعاً دينياً.. بين المسيحيين والمسلمين»..

أما الكاردينال «بيولاچى» - مندوب البابا فى المساعى الدبلوماسية لتجنب الحرب ضد العراق - فلقد أعلن: «إنها حرب ستقودنا إلى مستقبل مظلم سيقوض فرص الحوار بين المسيحية والإسلام».. (١٩)

أما الأنبا «يوحنا قلته» -نائب البطرک الكاثوليكى فى مصر- فلقد أعلن: «أن بوش يستخدم المسيح درعاً والصليبية ثوباً للدفاع عن مصالح أمريكا المادية.. وأنه كان يقصد تماماً معنى عبارة «الحملة الصليبية».. ولم تكن أبداً زلة لسان».. (٢٠)

فهى «حرب صليبية» أعلنها ويقودها اليمين الدينى الأمريكى.. بشهادة القاتيكان - أكبر كنائس النصرانية، فى الشرق والغرب-..

- ولقد أعلن الرئيس الأمريكى الأسبق «جيمى كارتر» عن العقيدة الدينية - «المسيحية -الصهيونية» - التى تقود الإدارة الأمريكية - إدارة «بوش -الصغير»- فى هذه الحرب، عندما قال: «.. كمسيحي وكرئيس استفزته الأزمات الدولية بشدة، أصبحت على معرفة عميقة بالمبادئ التى تستند إليها أى حرب عادلة. ومن الواضح أن أى هجوم انفرادى على العراق لا يلبي متطلبات هذه المعايير. وهذه هى تقريباً القناعة على مستوى العالم كله بين الزعماء الدينيين، مع استثناء واحد يتمثل «بمؤتمر معمدانى الجنوب» -«ساوثيرن بابتيست كونفشنشون». وهؤلاء معروفون بالتزامهم تجاه إسرائيل من منطلقات ثيولوجية ضيقة تستند إلى فكرة آخر مرحلة حياتية قبل حلول يوم الدينونة».. (٢١)

- أما السيناتور «إدوارد كنىدى» والسيناتور «بابريك ليهى»، فلقد أعلننا: أن الإدارة الأمريكية مدفوعة إلى هذه الحرب «بحماسة مسيحية».. (٢٢)

ولقد كتبت «النيوزويك» -الأمريكية عن «بوش - الصغير» (حامل البشارة)، فقالت: إنه يؤمن «أن حربه على العراق ستكون حرباً عادلة وفق المفهوم المسيحى كما شرحها القديس أغسطين -فى القرن الرابع- وفصلها كل من توما الأكوينى [١٢٢٥ - ١٢٧٤م] ومارتن لوثر [١٤٨٣ - ١٥٤٦م] وآخرون».

وأنه عندما استخدم مصطلح «الأشرار» في وصف خصومه، قد «نبش هذه الكلمة مباشرة من المزامير» و«أنه يفكر في سياسة خارجية تستند إلى الإيمان.. ويفكر في حرب باسم الحرية المدنية -بما في ذلك الحرية الدينية- في القلب القديم للإسلام العربي.. ويحظى بدعم قوى من قاعدته في الجناح السياسي للمؤتمر المعمداني الجنوبي، من أمثال «ريتشارد لاند» و«فرانكلين جراهام» -الأب الروحي لبوش- والذي سب رسول الإسلام، ويندد بالإسلام باعتباره إيماناً عنيقاً وفاسداً!.. ولا يخفى -مع المبشرين الإنجلييين- رغبتهم تحويل المسلمين إلى المسيحية، حتى - لا، بل لا سيما- في بغداد!» (٢٣)

هذا ما كتبه «النيوزويك» -الأمريكية- قبل شن الحرب على العراق.. أما الـ «نيويورك تايمز»، فإنها كتبت مقالين - في ٥، ٦ / ٤ / سنة ٢٠٠٣م - أى في ذروة الحرب على العراق - عن انخراط المبشرين الإنجلييين، تحت قيادة الآباء الروحيين «لبوش»، في الحملة الأمريكية على العراق، بصحبة القوات الأمريكية الغازية،.. الأمر الذي «صبغ الحرب على العراق بصبغة الحروب الصليبية. وأن من بين تلك الجماعات التبشيرية المصاحبة للجيش الأمريكي مبشرين تابعين للكنيسة المعمدانية والكنيسة المنهجية، وكلتا الكنيستين كانت ضمن أهم الجماعات التي دعمت الرئيس بوش.. وهناك ٨٠٠ مبشر تطوعوا لمصاحبة الجيش الأمريكي الزاحف على العراق، لتقديم الدعم الروحي والمادى للشعب العراقي.. ومن بين هؤلاء المبشرين «فرانكلين جراهام»، الذي دشن حفل تنصيب جورج بوش رئيساً.. ووالده «بيل جراهام»، الذي أثار عاصفة داخل المجتمعات الإسلامية عندما وصف النبي محمداً بأنه إرهابي ووثني.. ولقد أعلن المبشر «فرانكلين جراهام» - في القاعدة الأمريكية في الكويت-: «لقد جئت إلى هنا تمهيداً لدخول العراق. فرغم أن نسبة المسلمين في العراق تشكل ٩٧٪ من إجمالي تعداد السكان، إلا أننا يجب ألا ننسى أن المسيحية سبقت الإسلام في دخول العراق.. إنني هنا لدعم مسيحيي العراق، لكننا في الوقت ذاته نخطط لتقديم الدعم للمسلمين، ليس باسمنا، ولكن باسم الرب».

أما والد هذا المبشر - القس «بيل جراهام» فهو الأب الروحي لـجورج بوش، الذى قال عنه بوش: إنه الرجل الذى قادنى إلى الرب.. وهو الذى جعل بوش يواظب يوميًا على القراءة فى كتاب القس «أوزوالد شامبرز»، الذى مات سنة ١٩١٧م وهو يعظ الجنود البريطانيين والاستراليين بالزحف إلى القدس وانتزاعها من المسلمين»...!! (٢٤)

- أما وزير العدل الأمريكى -نعم العدل! - «جون أشكروفت» فلقد تجاوز الحدود، فسب إله العالمين، الذى يعبدّه المسلمون، لا يشركون به أحدًا.. فقال: «إن المسيحية دين أرسل الرب فيه ابنه ليموت من أجل الناس، أما الإسلام فهو دين يطلب الله فيه من الشخص إرسال ابنه ليموت من أجل الإله»!! (٢٥)

وهو، بهذا الذى قاله، يضلّل الناس عن حقيقة ثقافة «الشهادة».. والاستشهاد الإسلامية، التى تدعو إلى التضحية بالمال والنفس فى سبيل المقدسات التى أجمعت عليها منظومات القيم الإنسانية -الدينية والوضعية- والتى أشار إليها الحديث النبوى الشريف: «من قُتل دون ماله فهو شهيد، ومن قُتل دون دينه فهو شهيد، ومن قُتل دون دمه فهو شهيد، ومن قُتل دون أهله فهو شهيد» - رواه الترمذى-.. فتقافة الشهادة والاستشهاد الإسلامية - هى ثقافة رد العدوان.. نعم.. لقد أجمعت كل ثقافات الفطر الإنسانية السوية على ضرورة الاستشهاد فى سبيل حماية هذه المقدسات، اللهم إلا ثقافة الجبناء، الذين هم أحرص الناس على حياة، فلا يتقدمون إلا للعدوان على الأوطان والمقدسات!..

- أما مفكر الاستراتيجية الأمريكية «صموئيل هنتنجتون»، فلقد وضع - بعد ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١م- القضية فى صورة الصدام بين الغرب وبين العقيدة والقناعات الإيمانية للإسلام، فقال: «إن عناصر صدام الحضارات متوافرة، وإن ردود الفعل تجاه أحداث ١١ سبتمبر تمت فى حدود الخطوط والأطر الحضارية بشكل صارم.. والصحوة الإسلامية هى رد فعل تجاه الحادثة والتحديث

والعولمة.. ومع ذلك، فإن عصر حروب المسلمين له جذوره فى أسباب أكثر عمومية، وهذه الأسباب تعنى العقيدة الإسلامية والقناعات الإيمانية فى الإسلام! (٢٦)

- وفى نفس التاريخ يكتب المفكر الاستراتيجى الأمريكى «فرانسييس فوكوياما» فىقول: «إن الصراع الحالى ليس ببساطة ضد الإرهاب.. ولكنه صراع ضد العقيدة الإسلامية الأصولية.. التى تقف ضد الحداثة الغربية.. وضد الدولة العلمانية.. وهذه الأيديولوجية الأصولية تمثل خطراً أكثر أساسية - فى بعض جوانبه - من الخطر الذى شكلته الشيوعية.. والمطلوب هو حرب داخل الإسلام.. حتى يقبل الحداثة الغربية.. والعلمانية الغربية.. والمبدأ المسيحى: دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله!..» (٢٧)

* * *

تلك شهادات أمريكية على «البعد الدينى الصليبي» فى هذه الحرب التى أعلنها اليمين الدينى الأمريكى على الإسلام والمسلمين..

صحيح أن الهدف الأول لهذه الحرب هو الاستيلاء على مصادر الطاقة - التى يملك العراق وحده منها مخزوناً إذا قيس بحجم إنتاجه يجعله آخر بلد فى العالم سينفذ منه البترول (٢٨)!! وذلك لتحقيق هيمنة الإمبريالية الأمريكية على العالم فى القرن الواحد والعشرين - الذى يريدونه قرناً أمريكياً.. لكن البعد الدينى فى عقيدة الإدارة الأمريكية التى تقود هذه الحرب لا يمكن أن يغفله عاقل.. ولقد شهد عليه الفاتيكانيان.. والكثير من الأمريكان!..

وصحيح - أيضاً - أن هذه الحرب ليست بين المسيحية والإسلام، ولا بين المسيحيين والمسلمين؛ لأن أكبر وأهم كنائس الغرب، ومعها كل كنائس الشرق، قد وقفت وتقف ضد هذه الحرب.. لكنها حرب اليمين الدينى الأمريكى، المتحالف مع اليمين الدينى اليهودى ضد الإسلام وأمتة وعالمه، لمعالجة اليقظة الإسلامية، ولإبقاء ثروات العالم الإسلامى لقمة سائغة فى فم الاستغلال الأمريكى، والشركات متعددة الجنسيات ومتعدية القارات.. (٢٩)

هكذا برئت النصرانية الحقة، وتبرأ من نزعات الحرب الدينية..

وهكذا سقط «التراث النصراني الغربي» في مستنقع هذه الحرب الدينية.. منذ الحملات الصليبية للبابا الذهبي «أوربان الثاني» [١٠٨٨ - ١٠٩٩ م].. وحتى الحملة الصليبية المعاصرة لليمين الديني الأمريكي، بقيادة الرئيس الأمريكي «جورج بوش - الصغير»!..

وأمام هذه الكارثة.. نتمنى قيام تحالف يضم كل العقلاء والشرفاء من مختلف الديانات والفلسفات والحضارات، لإنقاذ العالم، وإنقاذ الشعب الأمريكي من هذه الإدارة - إدارة اليمين الديني - التي تريد فرض «الإمبريالية - الصليبية» على العالم من جديد.

٨- الإسلام والحرب الدينية

ولأن الشريعة الإسلامية هي خاتمة الشرائع الإلهية لدين الله الواحد.. فلقد جاءت مؤكدة على المنهاج الإلهي في الدعوة إلى الإيمان الديني.. منهاج الحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥) وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (١٢٦) وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٥ - ١٢٨]..

وفي ميدان هذا الإيمان القلبي، فإن رسول الإسلام ﷺ ليس مسيطراً.. ولا وكيلاً.. ولا يستطيع أن يهدي من أحب: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢].. ﴿قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام: ٦٦].. ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦]..

ولقد عللت هذه الشريعة الإسلامية وفلسفت هذا المنهاج السلمى فى الدعوة إلى الإيمان الدينى، بأن الإيمان -الذى هو تصديق قلبى يصل إلى مرتبة اليقين- يستحيل تحصيله وبلوغه عن غير طريق هذا المنهاج، إذ الإكراه إنما يثمر نفاقاً، ولا يثمر إيماناً بأى حال من الأحوال.. ولذلك جاء النهى عن الإكراه فى الدين، انطلاقاً من نفى إمكانية تحصيل التدين الحق بواسطة الإكراه ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].. وعلى هذا «النفى» تأسس «النهى» عن الإكراه..

ولقد أفاض القرآن الكريم فى تأكيد هذا المنهاج السلمى فى الدعوة إلى الإسلام، وفى تحصيل الإيمان بالدين..

- فشرع لفلسفة «التدافع» - الذى هو حراك فكرى واجتماعى بين الفرقاء - مختلفة عن فلسفة «الصراع»- ففى «الصراع» يصرع كل طرف الطرف الآخر، منهياً بذلك التعددية والتعايش والحوار: ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَازٌ نَحْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِّنْ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧، ٨].. بينما «التدافع» حراك يُعدّل المواقف، ويعيد التوازن والعدل، مع بقاء التعددية والتعايش والحوار والتفاعل بين مختلف الفرقاء: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٣- ٣٥].. ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧) لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٧-٩]..

فالتدافع حراك يعدل المواقف، مع الحفاظ على وجود «الآخر» وعلى تميزه، رجاء أن تحل المودة بين الفرقاء المتعددين محل العداوة والبغضاء . .

- وفى مواجهة الفلسفات التى اعتبرت القتل والقتال وإزهاق الأرواح جيلةً جبِلَ عليها الإنسان، وغريزة من غرائزه المتأصلة فيه . . بل واعتبرت الحروب طريقًا للتقدم! . . فى مواجهة هذه الفلسفات، أعلن القرآن الكريم أن القتال مكروه . . واستثناء . . وليس القاعدة . . وهو ضرورة تُقدَّر بقدرها، وليس هو السبيل إلى تقدم الأمم وتطور المجتمعات وازدهار العلوم والحضارات: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ ﴾ [البقرة: ٢١٦] . .

ولقد بينت هذه الفلسفة القرآنية وأكدتها السنة النبوية، بقول رسول الله ﷺ: « لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاثبتوا، وأكثروا ذكر الله » -رواه الدارمى- . .

- وفى إطار هذا المنهاج السلمى فى الدعوة وتحصيل الإيمان الدينى، عرض الإسلام التعايش على المشركين: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦) ﴾ [الكافرون: ١ - ٦] . . ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩] . . ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: ٦] . .

بل قدم الإسلام العفو للذين أجرموا فى حق أهله ودعوته . . ومنحهم حرية الاختيار، فقال رسول الله ﷺ للمشركين الذين صنعوا بالمؤمنين ما صنعوا - وهو فى ساحة النصر يوم الفتح الأكبر . . فتح مكة سنة [٨هـ ٦٢٩م] . . « اذهبوا فأنتم الطلقاء »! . .

- ولم تخرج «الدولة الإسلامية» - التى تكونت عقب الهجرة سنة [١هـ ٦٢٢م]، والتى امتلكت وطنًا وأمة ونظمًا وقانونًا وجيشًا ومؤسسات عقابية -

وهو ما تميزت به وامتازت الشريعة الإسلامية عن سائر الشرائع السماوية السابقة،
التي وقف الرسل فيها عند حدود الدعوة والبلاغ- لم تخرج هذه الدولة
الإسلامية عن هذا المنهاج السلمى فى الدعوة إلى الدين . . فوقفت كل حروبها
عند حدود القصاص الذى يرد العدوان على حرية الدعوة وحرية الضمير، وذلك
حتى تضمن الدولة للمؤمنين حرية العيش الحر والأمن فى الأوطان التى يعيشون
فيها . . فكان «الإذن» بالقتال، و«الأمر» به، لا للدعوة إلى الدين وتحصيل
الإيمان به . . وإنما لحماية حرية الدعوة والإيمان من الفتنة فى الدين . . وحماية
حرية المؤمنين من الاستفزاز من الأرض والإخراج من الديار ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ
بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ (٣٩) الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ
يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ ﴿[الحج: ٣٩، ٤٠] . . ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا
تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠] . .

وحتى آيات سورة «براءة» -التوبة- التى يرجف المرجفون فيزعمون أنها تمثل
«الوجه القتالى والعنيف» للإسلام . . نجدها تميز فى المشركين بين المعاهدين،
الذين يحترمون العهود، فتدعو -هذه الآيات- المسلمين إلى الوفاء بعهود هؤلاء
المشركين: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا
عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤] . .
تميز هذه الآيات بين هؤلاء المشركين المعاهدين، المحترمين للعهود، وبين
المشركين الذين لا عهد لهم، والذين ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ
هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ [التوبة: ١٠] . . فالقتال هنا لرد عدوان الذين لا عهد لهم،
وهم معتدون، ولا يحترمون العهود ويفتنون المؤمنين فى دينهم، ويخرجونهم
من ديارهم: ﴿أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نُّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ
أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [التوبة: ١٣١] . .

فمعيار الدولة الإسلامية، فى السلم والسلام أو الحرب والقتال، ليس

«الإيمان» و«الكفر»، وإنما هو التعايش السلمى بين الآخرين وبين المسلمين، أو عدوان الآخرين على المؤمنين، بالفتنة فى الدين أو الإخراج من الديار. . وعن هذا المعيار للعلاقة بين الإسلام وبين الكافرين به والمنكرين له، يقول القرآن الكريم: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧) لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٧-٩]..

ولقد عاهد المسلمون النصارى، وجاء فى العهد الذى كتبه الرسول ﷺ لنصارى نجران ولكل المتدينين بالنصرانية: «أن لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين، وعلى المسلمين ما عليهم، حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم» (٣٠).

فالقتال، فقط، للدفاع، ولرد عدوان المعتدين، دونما زيادة على رد العدوان، وبالوسائل المكافئة لوسائل العدوان: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]، ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنْ اعتدى عَلَيْكُمْ فاعْتدوا عليه بِمِثْلِ مَا اعتدى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٦].

أما حديث رسول الله ﷺ - الذى يُساء فهمه كثيراً - والذى يقول فيه: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله...» - رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجة والدارمى وأبو داود والإمام أحمد - . . فإن «أل - أداه التعريف» فى كلمة «الناس» هنا هى «للعهد»، أى الناس المعهودين، المقاتلين، المعتدين على المؤمنين بفتنتهم فى دينهم وإخراجهم من ديارهم. . . فالحديث هنا عن المشركين المعتدين المقاتلين للمؤمنين، وليس كل الناس ولا

مطلق الناس . . والمقام مقام زمن الحرب والقتال . . وكلمة «الناس» في هذا الحديث ككلمة [الناس] في القرآن الكريم عندما يراد بها أناس معهودون محدودون: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

ويشهد على ذلك أن إحدى روايات هذا الحديث: «أمرت أن أقاتل المشركين» . . ويشهد على ذلك أيضاً تحريم الإسلام مقاتلة المشركين غير المحاربين، من المعاهدين، ومن النساء والأطفال والقاعدين ورجال الدين . . إلخ . . ومن ثم فلا علاقة لهذا الحديث النبوى - من قريب أو بعيد - بالتشريع لقتال المخالفين فى الاعتقاد الدينى، لمجرد الاختلاف فى الاعتقاد . . فالمقصود بـ«الناس»: المعتدون المقاتلون من المشركين . . ثم إن الأحاديث النبوية هي البيان النبوى للبلاغ القرآنى، الذى يقرر النهى عن الإكراه فى الدين، والنهى لإمكانية تحصيل الإيمان الدينى بواسطة الإكراه: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وحتى هذا القتال - الذى كُتب على المسلمين، وهو كُره لهم - والذى وقف به الإسلام ودولته عند حدود القتال الدفاعى لحماية حرية العقيدة وحرية الدعوة من الفتنة - التى هى أكبر من القتل المادى - ولحماية حرية الوطن، والحيلولة دون إخراج المؤمنين من ديارهم . . حتى هذا القتال - الاستثناء والضرورة للدفاع - قد وضع له الإسلام ودولته «دستوراً أخلاقياً» تجاوز فى مثاليته - التى طبقها المسلمون - كل المواثيق الدولية التى تعارف عليها المجتمع الدولى نظرياً - [!!!] - بعد أربعة عشر قرناً من ظهور الإسلام! . .

ففى القواعد الأخلاقية لدستور الفروسية الإسلامية، يروى عمر بن عبدالعزيز [٦١ - ١٠١ هـ - ٦٨١ - ٧٢٠م] - رضى الله عنه - وهو على رأس السلطة التنفيذية - الخلافة - وليس فى صفوف المعارضة! - يروى فيقول: «إنه

بلغنا أن رسول الله ﷺ كان إذا بعث سرية يقول لهم: «اغزوا باسم الله، في سبيل الله، تقاتلون من كفر بالله، لا تَغْلُوا - [أى: لا تخونوا] - ولا تغدروا، ولا تَمَثَلُوا - [أى: لا تمثلوا بجثث القتلى] - ولا تقتلوا وليدًا» - رواه مسلم ومالك في الموطأ .

ولقد صاغ أبو بكر الصديق [٥١ ق.هـ - ١٣هـ - ٥٧٣ - ٦٣٤م] رضى الله عنه - وهو رأس الدولة - قواعد هذا الدستور الأخلاقي للحرب، في وثيقة، إسلامية، عندما أوصى يزيد بن أبي سفيان [١٨هـ - ٦٣٩م]، وهو يودعه أميراً على الجيش الذاهب لرد عدوان البيزنطيين في الشام، فقال - في وثيقة الوصايا العشر - : «إنك ستجد قوماً زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله - [الرهبان] - فدعهم وما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم له.. وإنى موصيك بعشر: لا تقتلن امرأة. ولا صبيًا. ولا كبيراً هرمًا. ولا تقطعن شجرة مثمرًا. ولا تخربن عامراً. ولا تعقرن شاة ولا بعيراً إلا لمأكلة. ولا تحرقن نخلاً. ولا تفرقنه. ولا تغلل. ولا تحجن» رواه مالك في الموطأ .

فكانت هذه «وثيقة الوصايا العشر» الإسلامية، في آداب الفروسية وأخلاقيات القتال، عندما يُفرض على المسلمين القتال .

ولأن هذه هي حقيقة الموقف الإسلامى: الدعوة إلى الدين بالحكمة والموعظة الحسنة. . والجدال مع المخالفين بالتى هي أحسن. . والدعوة إلى حماية حرية الضمير والاعتقاد. . واللجوء إلى القتال - كضرورة استثنائية مقروضة ومكروهة - فقط لرد العدوان عن حرية الدين وحرية الوطن. . لأن هذه هي حقيقة الموقف الإسلامى - على مستوى التشريع - كانت الحقيقة المذهلة النابعة من استقراء واقع جميع الحروب التى تمت فى العهد النبوى، والتى انتصر بها الإسلام على الشرك والوثنية. . والتى تقول - هذه الحقيقة - إن ضحايا جميع هذه المعارك والغزوات لا تتعدى ٣٨٦ قتيلاً - ٢٠٣ هم مجموع قتلى المشركين واليهود ١٨٣ هم مجموع شهداء المسلمين - بينما تحدثت أسفار العهد القديم عن ٢,٠٠٠,٠٠٠ هم ضحايا الحروب اليهودية. . وتحدث تاريخ الحروب الدينية النصرانية - بين الكاثوليك والبروتستانت - عن ١٠,٠٠٠,٠٠٠ قتيل - ٤٠٪ من شعوب وسط أوروبا - . ناهيك عن عشرات الملايين الذين

أزهقت أرواحهم فى محاكم التفتيش الكنسية.. وفى الحروب الصليبية ضد الإسلام والمسلمين!!..

- ولقد استمر هذا المنهاج السلمى فى الدعوة إلى الإسلام سائداً وحاكماً ومرعياً فى «الدولة الإسلامية» و«التاريخ الإسلامى» و«الحضارة الإسلامية» و«التراث الإسلامى»..

لقد فتح المسلمون فى ثمانين عاماً أوسع مما فتح الرومان فى ثمانية قرون.. لكن الفتح الرومانى كان فتح قهر واستعباد - رأينا صنيعة فى الاضطهاد الدينى والحضارى للنصرانية الشرقية- بينما كان الفتح الإسلامى فتح تحرير لضماير الشعوب الشرقية من هذا الاضطهاد الدينى والحرب الدينية، حتى شهد بذلك أهل الديانات الأخرى، من غير المسلمين..

* ف«ميخائيل السريانى» يقول: «لم يسمح الإمبراطور الرومانى لكنيستنا المونوفيزتية بالظهور، ولم يصغ إلى شكاوى الأساقفة فيما يتعلق بالكنايس التى نهبت، ولهذا فقد انتقم الرب منه. لقد نهب الرومان الأشرار كنائسنا وأديرتنا بقسوة بالغة، واتهمونا دون شفقة، ولهذا جاء إلينا من الجنوب أبناء إسماعيل لينقذونا من أيدي الرومان، وتركنا العرب نمارس عقائدنا بحرية، وعشنا فى سلام..»^(٣١).

فكان الفتح الإسلامى تحريراً وإنقاذاً للنصرانية الشرقية من إبادة النصرانية الغربية والاستعمار الرومانى - البيزنطى .. حتى ليكن القول، دون مبالغة، إن بقاء النصرانية الشرقية ووجودها إنما هو «هبة الإسلام.. والفتوحات الإسلامية».

ولقد تركت الدولة الإسلامية الناس - فى البلاد التى تحررت بالفتوحات الإسلامية - وما يدينون.. انطلاقاً من أن الإسلام مكمل للشرائع السابقة، ومتمم لمكارم الأخلاق التى جاءت فيها.. فهو يجلب كتبها، ويقول عن التوراة: ﴿فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤]. - وعن الإنجيل: ﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٦].

ولقد صدقت الممارسات النبوية على هذا الموقف القرآني من الديانات السابقة، وطبقته، فوجدنا «حاطب بن أبي بلتعة» [٣٥ ق.هـ - ٣٠هـ ٥٨٦ - ٦٥٠م] الذي حمل رسالة رسول الله ﷺ إلى «المقوقس» - عظيم القبط بمصر - سنة ٧هـ، ٦٢٨م، يخاطب «المقوقس» «فيقول له: «إن لك ديناً - أى النصرانية» - لن تدعه إلا لما هو خير منه، وهو الإسلام، الكافي به الله فقد ما سواه. وما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا لك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل. ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكننا نأمرك به». (٣٢)

ولذلك، كان انتشار الإسلام في هذه البلاد التي حررتها الفتوحات الإسلامية تدريجياً، ودون إكراه، بل ودون مؤسسة دينية تقوم حتى بالترغيب في هذا الدين الجديد! . حتى ليقول العالم الإنجليزى الحجة «سير. توماس أرنولد» [١٨٦٤ - ١٩٣٠]: «إنه من الحق أن نقول: إن غير المسلمين نعموا - بوجه الإجمال - في ظل الحكم الإسلامى، بدرجة من التسامح لا نجد معادلاً لها في أوروبا قبل الأزمنة الحديثة» (٣٣).

وفارق بين تسامح أوروبا مع الأديان بعد أن أدارت ظهرها - بالعلمانية - للأديان . . وبين تسامح المسلمين في ظل حاكمية الإسلام للدولة والمجتمع وكل مناحى الحياة . .

فبعد قرن من الفتح الإسلامى، كان الذين دخلوا الإسلام - من مصر وفارس وسوريا - لا يزدون على ٢٠٪ من السكان . . «فالدولة» إسلامية . . و«الرعية» على دياناتها القديمة . . لقد كانت مصر - بسبب شدة الاضطهاد الرومانى لأهلها، والذي أفقدها إلى حد كبير، مقوماتها الذاتية الموروثة، من اللغة التى كتبت باليونانية، إلى الثقافة التى غلبت عليها الهيلينية، إلى السياسة التى حرم منها النصارى طوال تاريخ النصرانية المصرية . . كانت مصر - لذلك - أكثر البلاد سرعة فى التحول إلى الإسلام، خصوصاً أن شرائح كبيرة من أهلها

كانوا على الوثنية القديمة ، فانقلبوا سريعاً من الوثنية إلى الإسلام- وكان بينهم وبين النصارى عداوات و صراعات - . . لذلك ، عندما جاءت سنة ١٨٤هـ ٨٠٠ م كانت نسبة الإسلام فى مصر ٧٧٪ ونسبة النصارى ٢٢٪ واليهود ١٪ من تعداد السكان . . (٣٤).

ولقد كان لطبيعة الإسلام ، ولموقفه الإيجابى من الديانات السابقة- كتبها ورسّلها وقيمها ومقدساتها وقديسيها - أثر كبير فى تحوّل أبناء تلك الديانات- وخاصة النصارى- إليه . . فهذا التحول يمثل لهم تقدماً وارتقاء على سلم التدين بدين الله الواحد، ولا يمثل انقلاباً معادياً لموارثهم الدينية الأصلية . . وكما تقول شهادة «نصرانية غريبة» : «فإن الإسلام يقدم نفسه بوصفه امتداداً للمسيحية واليهودية، وقد جاء فى لغة مألوفة.. وبعد قرون من المصادرة البيزنطية للحرية الدينية.. جاءت المعاهدات العربية لتعلن دون أدنى لبس أن أى إكراه لن يمارس فى شأن الدين.. وتم احترام تلك المعاهدات».. (٣٥).

وبعبارة المستشرق الإنجليزى الحجة «مونتجمرى وات»- وهو الخبير فى الدراسات الإسلامية-: «فإن الإسلام كان يمهد لانتقال مرّن ناعم من الصور الراقية لأديان موجودة بالفعل لدين جديد(الإسلام)».. (٣٦).

بل إن هذه المصادر «النصرانية- الغربية» ترجع تحول نصارى الشرق عن النصرانية إلى الإسلام ، وتحول الشرق إلى قلب للعالم الإسلامى بعد أن كان قلب العالم المسيحى . . ترجع ذلك إلى عوامل داخلية فى الكنائس النصرانية المتصارعة ، وإلى ما أصاب العقائد النصرانية فى الشرق من تحولات وتعقيدات أتت بها العقلية النصرانية الرومانية ، وقرارات المجمع المسكونية الرومانية، والثقافة الهيلينية . . وهى تحولات وتعقيدات جعلت عقيدة التوحيد الإسلامى، البسيطة الواضحة ، أكثر جاذبية ، وأكثر تلبية للاحتياجات الروحية لهذا الإنسان الشرقى، وأقدر على تحقيق السكينة والطمأنينة واليقين الإيمانى لهذا الإنسان . .

وعن هذه الحقيقة - حقيقة الضعف الذاتى والداخلى الذى أصاب النصرانية.. والقوة الذاتية التى تميز بها الإسلام - نسوق عدداً من شهادات علماء الغرب - وكلهم نصارى-..

✽ يقول المستشرق الإيطالى «كايتانى - ليون - Caetani» [١٨٦٩-١٩٢٦م] - وهو عالم ومحقق وخبير فى التاريخ الإسلامى والدراسات الإسلامية - : «إن انتشار الإسلام بين نصارى الكنائس الشرقية إنما كان نتيجة شعور بالاستياء من السفسطة المذهبية التى جلبتها الروح الهيلينية إلى اللاهوت المسيحى. أما الشرق الذى عرف بحبه للأفكار الواضحة البسيطة، فقد كانت الثقافة الهيلينية وبالأعلى عليه من الوجهة الدينية؛ لأنها أحالت تعاليم المسيح البسيطة السامية، إلى عقيدة محفوفة بمذاهب عويصة، مليئة بالشكوك والشبهات، فأدى ذلك إلى خلق شعور من اليأس، بل زرع أصول العقيدة الدينية ذاتها. فلما أهلت آخر الأمر أبناء الوحي الجديد فجأة من الصحراء، لم تعد تلك المسيحية الشرقية التى اختلطت بالغش والزيف وتمزقت بفعل الانقسامات الداخلية، وتزعزعت قواعدها الأساسية، واستولى على رجالها اليأس والقنوط من مثل هذه الرّيب، لم تعد المسيحية بعد ذلك قادرة على مقاومة إغراء هذا الدين الجديد، الذى بدد بضربة من ضرباته كل تلك الشكوك التافهة، وقدم مزايا جليلة إلى جانب مبادئه الواضحة البسيطة التى لا تقبل الجدل. وحينئذ ترك الشرق المسيح وارتقى فى أحضان نبي العرب»^(٣٧).

✽ ويقول العلامة «مراثشى - Marracci» : «إن أسرار هذه العقيدة.. النصرانية.. قد فاقت طاقة الذكاء البشرى، فغدت - على الأقل - من الصعوبة بمكان، إن لم تكن مستحيلة الفهم»^(٣٨).

✽ أما البروفسور «مونتيه - إدوار - Montih Edwar» [١٨٥٦ - ١٩٢٧م] - وهو مستشرق فرنسى خبير فى اللاهوت النصرانى، وفى الدراسات الإسلامية - فإنه يقول، عن مزايا الإسلام التى اجتذبت نصارى الشرق: «إن الإسلام، فى جوهره، دين عقلانى، بأوسع معانى الكلمة، وإن تعريف «الأسلوب العقلى - Rationalism» بأنه

طريقة تقيم العقائد الدينية على أسس من المبادئ المستمدة من العقل والمنطق، ينطبق على عقيدة الإسلام تمام الانطباق. إن لدين محمد كل العلامات التي تدل على أنه مجموعة من العقائد قامت على أسس المنطق والعقل.. وإن بساطة هذه التعاليم ووضوحها لهي، على وجه التحقيق، من أظهر القوى الفعالة في الدين وفي نشاط الدعوة الإسلامية.. ولقد حفظ القرآن منزلته، من غير أن يطرأ عليه تغيير أو تبديل، باعتباره النقطة الأساسية التي بدأت منها تعاليم هذه العقيدة. وقد جهر القرآن دائماً بمبدأ الوحدانية، في عظمة وجلال وصفاء لا يعتريه التحول، ومن العسير أن نجد في غير الإسلام ما يفوق تلك المزايا.. ولقد كان من المتوقع لعقيدة محددة كل هذا التحديد، خالية كل الخلو من جميع التعقيدات الفلسفية، ثم هي تبعاً لذلك في تناول إدراك الشخص العادي، أن تمتلك، وإنها تمتلك فعلاً، قوة عجيبة لاكتساب طريقها إلى ضمائر الناس» (٣٩).

فالتوحيد، وبساطته ووضوحه.. والخلو من الألغاز والأسرار والتعقيدات الفلسفية.. والعقلانية والمنطق اللذان يقدم بهما الإسلام هذا التوحيد إلى ضمائر الناس وعقولهم.. كل ذلك في كتاب - هو القرآن - محفوظ من التغيير والتبديل.. كل ذلك قد جعل الإسلام وعقائده على نحو من العظمة والجلال والصفاء التي لا نظير لها في غير هذا الإسلام..

هكذا يقول خبير اللاهوت النصراني، والدراسات الإسلامية البروفسور «مونتيه»..

ولهذا رجحت كفة الإسلام، فانصرفت إليه قلوب وعقول النصارى الشرقيين، بعد أن تحررت ضمائرهم، بالفتوحات الإسلامية، من اضطهاد الكنيسة الرومانية والدولة البيزنطية.. وتحرروا - كذلك - من الثمرات المرة التي ألحقتها الثقافة الهيلينية بالنصرانية الشرقية..

أما العالم الإنجليزي - النصراني - «مونتجمري وات - Montgomery Watt» - الذي حصل على الدكتوراه في عقيدة الكسب والجبر والاختيار

الإسلامية، وكتب العديد من الكتب فى الدراسات الإسلامية -الفكرية والتاريخية - فلقد قدّم الإسلام إلى العقل النصرانى الغربى، فى كتابه [الإسلام والمسيحية فى العالم المعاصر].. وفيه نظرات علمية مقارنة بين القرآن والتوراة والإنجيل.. وحول مفهوم الوحي فى الإسلام وفى اليهودية والنصرانية.. وعن مكانة القرآن فى الثقافة الإسلامية.. وعن أصالته وجدته.. إلخ.. إلخ.. كما تحدث عن الأمراض الذاتية والداخلية التى أصابت النصرانية الشرقية قبل ظهور الإسلام، وعن مصادر وعوامل القوة الذاتية للإسلام، تلك التى جعلت نصارى الشرق يدخلون فى دين محمد، فيتحول الشرق من قلب للعالم المسيحى إلى قلب لعالم الإسلام.. بل وتحدث عن أن المستقبل إنما هو للإسلام!..

نعم.. . تحدث «مونتجمرى وات» عن ذلك كله فقال:

* عن الضعف الداخلى والذاتى للنصرانية، كسبب أول لتحول نصارى الشرق إلى الإسلام: «إن الجانب المهم فى إنجاز الإسلام فى الشرق الأوسط هو أنه حل محل المسيحية، التى كانت محور الحياة الثقافية فى هذه المنطقة ومناطق شاسعة كان سكانها فى غالبيتهم يشكلون قلب العالم المسيحى، فأصبحوا يشكلون قلب العالم الإسلامى.

إنه من الضرورى أن نتمعن فى أسباب هذا التغير بعناية. لقد تحدثنا عن قوة الإسلام، وإذا كان علينا أن نحذو حذو «أرنولد جوزيف توينبى» [١٨٨٩ - ١٩٧٥م] لقلنا إن السبب الجوهرى هو الضعف الداخلى للمسيحية، وكمون بذور الضعف فى قلبها.

يتعين علينا أن نبحث عن جذور فشل المسيحية بمعالجة موضوع المسيحيين الشرقيين.. فكثيرون منهم، وخاصة اللاهوتيين، استخدموا اللغة اليونانية فى الكتابات الجادة، لكن طريقة تفكيرهم كانت بشكل أساسى بعقليتهم فى لغاتهم الأصلية - السريانية.. والقبطية.. والأرمنية.. إلخ - وقد أدى الاختلاف فى

العقليات إلى اختلاف فى الصيغ اللاهوتية فى قضايا مختلفة. وعندما كانت تطرح هذه القضايا اللاهوتية المختلف عليها أمام المجامع المسكونية كان اليونانيون يستبعدون المسيحيين الشرقيين من حق التصويت. وبمرور الوقت وجد المسيحيون الشرقيون أنفسهم وقد اعتبرهم الآخرون هراطقة مخرفين، بل واعتبرتهم الإمبراطورية البيزنطية طريدى عدالة ومحرومين من حماية القانون.. وعندما تم طرد هذه الطوائف الشرقية من الكنيسة المسيحية للدولة البيزنطية قامت هذه الطوائف بتأسيس عقائد خاصة بها.. وتأسيس منظمات كنسية منفصلة.. فتنامت لدى الأطراف المتنازعة الرغبة فى عدم التوحيد.. فأدى ذلك إلى إضعاف المسيحيين الشرقيين، والجهاز الكنسى الرئيسى للدولة البيزنطية على السواء..

ولقد تحولت الخلافات اللاهوتية إلى شعارات سياسية. لذلك، فعندما فتح المسلمون سوريا ومصر، رحب بهم السكان باعتبارهم محررين لهم من سطوة اليونانيين البيزنطيين الممقوتين.

وقد لخص «كريستوفر داوسون - Christopher Dawson» [١٨٦٧ - ١٩٠٠م] بعض هذه النقاط بأسلوبه الموجز المقعم بالمعانى عندما قال: إن محمداً كان هو إجابة الشرق عن تحدى الإسكندر. فقد كان محمد هو مؤسس الدولة الإسلامية التى سرعان ما اتسعت لتصبح دولة كبرى أصبح لها ثقافتها الخاصة وحضارتها المتميزة فى مواجهة الهيلينية بوجه عام. وكانت عقلية العرب متماثلة مع عقلية أهل العراق والشام، وكانت أقرب إليهم من عقلية اليونانيين.. ففقدت الهيلينية قواعدها أمام الإسلام..

لذا فمن المقبول أن نجد معظم المسيحيين الشرقيين وقد تحولوا إلى الإسلام؛ لأنهم وجدوا فيه تعبيراً عن التوحيد أكثر ملاءمة لعقليتهم الواضحة أكثر مما وجدوا فى المسيحية.

لقد أكد الإسلام نفسه كدين مستقل عن الدينين الأقدمين (اليهودية والمسيحية) ونقول عن حق: «إنه بالفعل كان يفوقهما، أو أنه فعلاً كان متفوقاً عليهما، أو أرقى منهما..» (٤٠).

* وعن تميز القرآن وامتيازه بأنه وحى . . أى كلام الله . . الذى لم يصبه تحريف ولا تعديل ولا تبديل . . تميزه وامتيازه فى ذلك عن التوراة والإنجيل، التى هى كتابات كتّاب كانوا يعتقدون أن ما يكتبونه هو «كلام الله بمعنى من المعانى» . . ثم تعرضت هذه الكتابات للتحريف والتعديل والتبديل . . عن تميز القرآن فى هذه الميادين المهمة والمحورية عن التوراة والإنجيل، كتب وشهد «مونتجمرى وات» . . فقال: «إن القرآن ليس بأى حال من الأحوال كلام محمد ولا هو نتاج تفكيره، إنما هو كلام الله وحده، قصد به مخاطبة محمد ومعاصريه، ومن هنا فإن محمداً ليس أكثر من «رسول» اختاره الله لحمل هذه الرسالة، إلى أهل مكة أولاً، ثم لكل العرب، ومن هنا فهو قرآن عربى مبين..»

إننى أعتقد أن القرآن، بمعنى من المعانى، صادر عن الله، وبالتالي فهو وحى.. إننا نؤمن بصدق محمد وإخلاصه، عندما يقول: إن كلمات الله ليست نتيجة أى تفكير واعٍ منه.. وربما كانت الملامح الأساسية للوحى يمكن اختصارها فى العناصر الثلاثة الآتية:

١ - أن الكلمات المنزلة على محمد كانت تحضر فى عقله الواعى.

٢ - وأن تفكيره الشخصى لم يكن له دور فى ذلك.

٣ - وأن يقيناً جازماً كان يملك فؤاده أن هذه الكلمات هى من الله.

لقد وجد محمد الكلمات، أو المحتوى الشفهى حاضراً فى وعيه، فلما تمت كتابته شكّل النص القرآنى الذى بين أيدينا. وكان محمد واعياً تماماً بأنه لا دخل لتفكيره الواعى فى هذه الرسالة القرآنية التى تصله، وبتعبير آخر فقد كان يعتقد أنه يمكنه أن يفصل بين هذه الرسالة القرآنية وبين تفكيره الواعى، الأمر الذى يعنى أن القرآن لم يكن بأية حال من الأحوال، نتاج تفكير محمد.. إنه لا ينبغى النظر إليه باعتباره نتاج عبقرية بشرية..

وفى الحوار مع الإسلام يجب أن يتخلى المسيحيون عن فكرة أن محمداً لم يتلق وحياً، وعن الأفكار الشبيهة...

وإذا لم يكن محمد هو الذى رتب القرآن بناء على وحى نزل عليه، فمن الصعب أن نتصور «زيداً».. [زيد بن ثابت [١١ق. هـ - ٤٥ هـ ٦١١ - ٦٦٥م] - أو أى مسلم آخر يقوم بهذا العمل .. ومن هنا فإن كثيراً من السور قد اتخذت شكلها الذى هى عليه منذ أيام محمد نفسه.. والقرآن كان يسجل فور نزوله.. ورغم كثرة القراءات للقرآن فإن آياً منها لم يؤد إلى جنوح معانى القرآن بحيث تجعلها بعيدة عن المعانى المفهومة من القراءات الأخرى.. إن القرآن يحظى بقبول واسع، بصرف النظر عن لغته؛ لأنه يتناول القضايا الإنسانية..»^(٤١).

أما مفهوم الوحى فى اليهودية والمسيحية، فإن «الكثير من المسيحيين لا يفترضون أن كلمات الله قد جلبها مصدر خارجي ممثل فى ملك أو ملائكة يملونها على كتاب الأناجيل، وإنما يُلقى فى روع هؤلاء الكتاب أن ما يكتبونه إنما هو كلام الله حقاً، والأنبياء الوارد ذكرهم فى العهد القديم يعلنون دون تردد: «هكذا يقول الرب...».. ولذا فلا بد أنهم كانوا يعتقدون أن ما ينطقون به من كلمات هو بمعنى من المعانى كلمات الله حقاً..

ولو احتفظ يهود العصر ومسيحيوه بيهوديتهم ومسيحيتهم فى حالة نقاء لاعترفوا بالرسالة التى ألقاها الله إليهم عن طريق محمد، تماماً كما فعل ورقة بن نوفل [١٢ق هـ . ٦١١م] (الذى أفادت الروايات أن استجابته كانت إيجابية لمحمد). ومن هنا يمكن أن نقول:

إن إشارة القرآن إلى تحريف لحق اليهودية والمسيحية- وبصورتهما الموجودة على أيامه - قول صحيح»..^(٤٢).

* وعن جدة القرآن.. وأصالته.. وتمثله ملة إبراهيم - عليه السلام - فى صورتها النقية الأولى.. يقول العلامة «مونتجمرى وات» - منتقداً اليهود والنصارى الذين يمارون فى ذلك - : «لقد شهدت بدايات القرن العشرين صرعة (مودعة) تقديم القرآن للقارئ الأوروبى باعتباره مختارات من أفكار اليهودية والمسيحية بالإضافة لقليل من الزيادات المحددة، ومعنى هذا انتفاء الجدة والأصالة.

والواقع أن هذه النظرة تعد بقية من بقايا الدعاية المسيحية التي سادت فترة الحروب الصليبية، عندما كان على أوروبا الغربية - التي ترتعد فرائضها من جيوش الإسلام - أن تقوى دفاعاتها برسم صورة زائفة عن الإسلام..

إن تفحص العلاقة بين القرآن والبيئة المكية، أو العربية عامة، يوضح لنا بجلاء أن رسالة الإسلام كانت ملائمة تماماً للبشر الذين ظهر محمد بين ظهرانيهم، ولم يكن مجرد نقل من عقائد سابقة (يهودية أو مسيحية).. أما الأفكار التي اشترك فيها الإسلام مع اليهودية والمسيحية فقد اتخذت شكلاً عربياً واضحاً.. وثمة ما يؤكد أن الإسلام كان بمثابة مستودع لدين إبراهيم في مرحلة نقائه الأولى»^(٤٣).

* وبسبب محورية القرآن في الحياة الإسلامية، أثمرت جدته وأصالته جدة وأصالة في الثقافة الإسلامية، ميزت النظرة الإسلامية للكون والعالم عن النظرة اليونانية.. وعن هذه الحقيقة من حقائق تميز الإسلام وثقافته يقول «مونتجمري وات»: «ومهما كان الطريق الذي دخلت عن طريقه الثقافة اليونانية إلى الشرق، فإن المجتمع الإسلامي لم يقبل منها إلا ما هو مناسب وموائم لنسيج الحياة الإسلامية وللنظرة العقلية للعالم والكون التي يقرها القرآن، وبمرور الوقت تحقق أن حياة المجتمع الإسلامي بشكل عام قائمة على استمرار القرآن وتبوءه مكان المركز أو القطب أو المحور.. وما قبله الإسلام والبيئة الإسلامية سرعان ما انضمت ليشكل رصيذاً ثقافياً إسلامياً متآلفاً ومتجانساً ومقبولاً حتى في عقر داره أو في بلاد المنشأ»^(٤٤).

* ولهذه المميزات والامتيازات التي تفرد بها القرآن والإسلام، عند مقارنته بالديانات التي سبقته.. في معنى الوحي.. وتفرد القرآن بأنه الوحي الإلهي المباشر الذي لم يصبه تحريف ولا تبديل.. وفي الجدة والأصالة، التي جعلت الإسلام هو التعبير عن نقاء ملة إبراهيم عليه السلام، في صورتها الأولى.. وفي انعكاس ذلك على تميز الثقافة الإسلامية عن الوافد الهيلينستي.. لكل ذلك، رأى العلامة «مونتجمري وات» أن الإسلام - المتميز بالعالمية.. والأخوة

الإنسانية - هو الدين الذى سيكون دين المستقبل .. أو - على الأقل - صاحب الإسهام الأوفر والقدح المعلن فى دين المستقبل .. وعن هذه الحقيقة كتب يقول : «إن هناك إشارات فى القرآن إلى أنه موجه للجنس البشرى قاطبة.. إن رسالة الإسلام التى وُجِّهت فى البداية لأهل مكة والمدينة كانت تحمل فى طياتها بذور العالمية، أو أنها كانت منذ البداية.. أو منذ مضمونها الأول ذات أبعاد عالمية.. ولقد تأكد ذلك عملياً بانتشار الإسلام فى العالم كله، وقبَّله بشر من مختلف الأجناس... وعلى المدى البعيد - بطبيعة الحال - من المتوقع أنه سيكون هناك دين واحد للعالم كله، مع وجود اختلافات داخل نطاق هذا الدين الواحد. ويمكن تشبيه هذه الفروق الداخلية بالمذاهب الأربعة لدى المسلمين من أهل السنة، فهم جميعاً مسلمون رغم اختلاف مذاهبهم...

ومعظم المسيحيين يميلون إلى افتراض أن المسيحية ستكون دين العالم كله فى المستقبل، لكن هذا أبعد ما يكون عن أن يكون أمراً مؤكداً. ولنذكر عنصراً واحداً، فبعض الأمم المسيحية الكبيرة تعاني بشدة من العنصرية، والدين الذى لا يستطيع أن يحل مشكلة العنصرية بين أعضائه من المستبعد أن يكون قادراً على تقديم حلول كثيرة مجدية لمشاكل العالم الأخرى.

ومن بين مزايا الإسلام تعميقه لمفهوم الأخوة، وعمق حججه، إلا أن الثقة بالنفس مصحوبة بعمق الحجج وقوتها قد تتحول إلى (عيب)، وليس ميزة عندما تعمى عين الإنسان عن رؤية ما هو جدير بالتقدير لدى الآخرين، لذا فقد يجد الإسلام صعوبة فى إدراج قيم أخرى من أديان أخرى ليستوعبها ويجعلها جزءاً منه.

إن الإسلام - بالتأكيد - مناضل قوى ، ومنافس عظيم الشأن، سيعمل على مد الدين الواحد.. دين المستقبل - بهيكلة الأساسى..» (٤٥).

تلك شهادات العلماء الثقات المنصفين، من نصارى الغرب، الذين درسوا الإسلام والديانات الأخرى.. شهاداتهم على الوهن والتعقيد اللذين أصابت

بهما الثقافة الهيلينية الغربية النصرانية الشرقية . . تلك التى غرقت فى بحار الانقسامات الحادة والإلغازات والأسرار حتى استعصى فهمها على الخاصة، فضلاً عن العامة . . فجاء الإسلام، بتوحيده الواضح والبسيط، وعقلانيته ومنطقه، ووحيه الذى هو كلام الله المباشر، الذى لم يصبه تحريف ولا تعديل ولا تبديل . وإنسانيته وعالميته . . وجدته وأصالته، فاجتذب أهل الشرق، المطبوعين على بساطة الاعتقاد، فدخلوا أفواجاً فى هذا الدين، الذى احترم عقولهم وأيقظها، ورقق قلوبهم وأغناها، كما احترم الموارث الدينية التى نشأوا فى ظلالها . . وكذلك حقق لهم عزة الاستقلال عن التبعية للمركزية الغربية، فرأوا فى رسول الإسلام ﷺ إجابة الشرق عن تحدى الإسكندر - كما قال، بحق، «كريستوفر داوسون»! . .

حدث كل ذلك، دونما إكراه للناس على الدخول فى الإسلام . . بل ودون «مؤسسة» للدعوة الإسلامية ترغب الناس فى هذا الدين! . . ومن باب أولى دون حروب دينية تقهر الناس على الدخول فى الإسلام.

لكن . .

قد يسأل سائل - ومن حقه أن يسأل عن الحروب التى حدثت بين المسلمين، فى التاريخ الإسلامى: أليست حروباً دينية، أثارتها المذهبيات والمعتقدات، على النحو الذى حدث فى التاريخ النصرانى الغربى ؟ . .

ونحن نجيب عن هذا السؤال فنقول :

* إن ما شهده هذا التاريخ الإسلامى من حروب داخلية ، إنما كانت حروباً سياسية ، ولم تكن دينية . . والسياسة والدولة والخلافة والإمارة، والنظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية - التى قامت بسببها هذه الحروب - هى - فى الإسلام - من «الفروع»، وليست من «الأصول» ولا من «عقائد الإسلام» ولا من أمهات الاعتقاد فى الإسلام . . والاختلاف فى كل الأمور السياسية والتنوع

والتعدد «سنة» من سنن الله سبحانه وتعالى، و«قانون» من قوانين الاجتماع الإنساني، وليس مجرد «حق» من حقوق الإنسان. . . والتدافع بين فرقاء الاختلافات السياسية لا يخرج أيًا من هؤلاء الفرقاء من ملة الدين وعقائد الإسلام، فالمعايير الحاكمة للاختلاف في هذه الأمور هي «الصواب»، و«الخطأ»، و«النفع» و«الضرر» وليست «الإيمان» و«الكفر». . . وحتى «البغى» - في هذه الأمور - لا يخرج أصحابه عن إطار «الإيمان الديني» ولو بلغوا في بغيتهم السياسى حدود الاقتتال! . . . ولقد تحدث القرآن الكريم عن هذه الحقيقة الإسلامية فقال: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩)﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿[الحجرات: ٩، ١٠]..

فإذا ارتكب المؤمنون «خطأ» الاقتتال في الأمور السياسية «الفروع» - فإن هذا الخطأ - والبغى في هذا الخطأ - لا يخرج أصحابه من الملة، والإيمان بأصول الإسلام. . .

ولقد أجمع أئمة وفلاسفة وفقهاء أهل السنة - الذين يمثلون أكثر من ٩٠٪ من الأمة الإسلامية - على أن الدولة والسياسة - وكل ما يتعلق بهما - من الفروع، التي لا تكفير فيها، وعن هذه الحقيقة تحدث حجة الإسلام أبو حامد الغزالي [٤٥٠ - ٥٠٥ هـ ١٠٥٨ - ١١١١م] فقال: «إن النظر في الإمامة ليس من المهمات، وليس أيضاً من المعقولات، بل من الفقهيات - (أى الفروع) - وإن أصول الإيمان ثلاثة: الإيمان بالله، وبرسوله، وباليوم الآخر. وما عداه فروع» (٤٦).

وحروب الفتنة الكبرى التي وقعت بين علي بن أبي طالب [٢٣ق.هـ - ٤٠ هـ ٦٠٠ - ٦٦١م] ومعاوية بن أبي سفيان [٢٠ق.هـ - ٦٠ هـ ٦٠٣ - ٦٨٠م] لم تكن حروباً دينية، يطلب فيها فريق من الفريق الآخر تغيير عقيدته أو تبديل مذهبه، وإنما كانت حروباً سياسية، دارت حول الخلافة، وبالذات

حول المسؤولية عن مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان [٤٧ ق . هـ - ٣٥ هـ - ٥٧٧ - ٦٥٦ م] . . وعن هذه الحقيقة الناصعة يقول على بن أبى طالب: «لقد التقينا - فى معركة «صفين» [٣٧ هـ - ٦٥٧ م] - وربنا واحد، ونبينا واحد، ودعوتنا فى الإسلام واحدة، ولا نستزيدهم فى الإيمان بالله والتصديق برسوله ولا يستزيدوننا. والأمر واحد، إلا ما اختلفنا فيه من دم عثمان، ونحن منه براء. إننا - والله - ما قاتلنا أهل الشام - [معاوية ومن معه] - على ما توهم هؤلاء - [الخوارج] - من التكفير والافتراق فى الدين، وما قاتلناهم إلا لنردهم إلى الجماعة - [السياسية: رعية الدولة] وإنهم لإخواننا فى الدين، قبلتنا واحدة، ورأينا أننا على الحق دونهم... وإنى لأرجو ألا يقتل أحد نقى قلبه، منا ومنهم، إلا أدخله الله الجنة...»^(٤٧) . . فهى حرب سياسية، دارت بين أبناء دين واحد، وأهم أطرافها يتمنى أن يكون كل قتلاها فى الجنة! .

* وعندما رفض عبد الله بن الزبير [١ - ٧٣ هـ ٦٢٢ - ٦٩٢ م] مبايعة الخليفة الأموى، وأعلن الثورة على الدولة الأموية، واتخذ من مكة عاصمة لدولته، ودارت الحرب بينه وبين الأمويين، حتى فى داخل الحرم المكى، وحول الكعبة، كانت الجيوش المتقاتلة تضع أسلحتها إذا أُذُن للصلاة، ويصلون جميعاً خلف إمام واحد، لإله واحد، بقرآن واحد، وعلى عقيدة واحدة... لأن الحرب كانت سياسية، لا علاقة لها بعقائد الدين... .

* وكذلك كل الحروب التى شهدتها التاريخ الإسلامى، كانت سياسية - متعلقة بالخلافة والسياسة للاجتماع - ولم تكن فيها حرب واحدة حول العقائد الدينية، أو للإكراه على الاعتقاد بمذهب فى الدين... .

وكما يقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٥ - ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م] عن الحروب التى خاضها المسلمون: «كان المشركون يبدأون المسلمين بالقتال لأجل إرجاعهم عن دينهم، ولو لم يبدأوا فى كل واقعة لكان اعتداؤهم بإخراج الرسول ﷺ من بلده، وفتنة المؤمنين وإيذائهم، ومنع الدعوة، كل ذلك كان

كافيًا في اعتبارهم معتدين. فقتال النبي كله مدافعة عن الحق وأهله، وحماية للدعوة الحق، ولذلك كان تقديم الدعوة شرطًا لجواز القتال. وإنما تكون الدعوة بالحق والبرهان، لا بالسيف والسنان..

وكانت حروب الصحابة، في الصدر الأول، لأجل حماية الدعوة ومنع المسلمين من تغلب الظالمين..

ولم يسمع في تاريخ المسلمين بقتال وقع بين السلفيين والأشاعرة، مع الاختلاف العظيم بينهما، ولا بين هذين الفريقين من أهل السنة والمعتزلة مع شدة التباين بين عقائد أهل الاعتزال وعقائد أهل السنة، سلفيين وأشاعرة، كما لم يسمع بأن الفلاسفة الإسلاميين تألفت لهم طائفة وقع الحرب بينها وبين غيرها.

نعم، سمع بحروب الخوارج، كما وقع من القرامطة وغيرهم. وهذه الحروب لم يكن مثيرها الخلاف في العقائد، وإنما أشعلتها الآراء السياسية في طريقة حكم الأمة، ولم يقتتل هؤلاء مع الخلفاء لأجل أن ينصروا عقيدة، ولكن لأجل أن يغيروا شكل حكومة.

وأما ما كان من حروب الأمويين والهاشميين، فهي حرب على الخلافة، وهي بالسياسة أشبه، بل هي أصل السياسة..

لقد شهر المسلمون سيوفهم دفاعًا عن أنفسهم، وكفًا للعدوان عنهم، ثم كان الافتتاح بعد ذلك من ضرورات الملك..

ولم يكن من المسلمين مع غيرهم إلا أنهم جاوروهم، فكان الجوار طريق العلم بالإسلام، وكانت الحاجة لصالح العقل والعلم داعية للانتقال إليه.. وجملة القول في القتال أنه شرع للدفاع عن الحق، وأهله، وحماية الدعوة ونشرها.

إن سرعة انتشار الإسلام، وإقبال الناس على الاعتقاد به من كل ملة، إنما كان لسهولة تعقله، ويسر أحكامه، وعدالة شريعته. وباجملة، لأن فطرَ البشر تطلب دينًا، وترتاد منه ما هو أَمْس بمصالحها، وأقرب إلى قلوبها ومشاعرها، وأدعى إلى

الطمأنينة فى الدنيا والآخرة. ودين هذا شأنه يجد إلى القلوب منفذاً، وإلى العقول مخلصاً، بدون حاجة إلى دعاة ينفقون الأموال الكثيرة والأوقات الطويلة ، ويستكثرون من الوسائل ونصب الحبائل لإسقاط النفوس فيه.

هذا كان حال الإسلام فى سداخته - [بساطته] - الأولى وطهارته التى أنشأه الله عليها، ولا يزال على جانب عظيم فى بعض أطراف الأرض إلى اليوم» (٤٨).

أما هذا الخلط المعاصر - فى الإعلام الغربى، والكتابات الغربية - بين مفهوم «الجهاد الإسلامى» وبين «العنف.. والإرهاب».. فإنه أثر من سوء النية حيناً، والجهل فى بعض الأحيان.. ولا علاقة لهذا الخلط بحقائق مفاهيم هذه المصطلحات فى قاموس الإسلام..

«ف» «الجهاد» - فى المفهوم الإسلامى - هو: بذل الوسع واستفراغ الجهد والطاقة فى أى ميدان من ميادين الإصلاح - فالدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة جهاد.. والإصلاح التربوى والتعليمى والثقافى جهاد.. والتنمية الاقتصادية والاجتماعية جهاد.. والرفق بالآباء والأمهات والأزواج والأولاد جهاد.. والاهتمام بالعمل العام، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر جهاد.. والبر والقسط مع المعاهدين والمسلمين من غير المسلمين جهاد.. بل وحتى الرفق بالحيوان والنبات والطبيعة جهاد.. فكل ميادين الإصلاح، فى الدين والدنيا، هى - فى المفهوم الإسلامى - جهاد فى سبيل الله..

ولقد ورد الحديث فى القرآن الكريم عن الجهاد أكثر ما ورد مراداً به بذل الوسع فى نشر الدعوة الإسلامية. بالحكمة والموعظة الحسنة، وفى الدفاع عن حرية هذه الدعوة، وحرية الدعاة.. حتى إن الآية القرآنية التى وصف الجهاد فيها بأنه «جهاد كبير»، كان المراد به فيها الجهاد بالقرآن الكريم.. وليس بالعنف أو القتال: ﴿فَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢].

وفى المواطن التى تحدث فيها القرآن الكريم عن الجهاد بالنفس تم التقديم دائماً للجهاد بالمال: ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾ [النساء: ٥٩]، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٧٤]..

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف: ١٠، ١١]..

ومع أن الجهاد هو «ذروة سنام الإسلام» - كما جاء فى الحديث النبوى الشريف - فإن الجانب القتالى من الجهاد هو القتال الدفاعى، الذى هو «سياج» لحماية حرية الدعوة والدعاة واستقلال ديار الإسلام - كما مر فى الحديث - عن «الإذن» بالقتال، و «الأمر» به فى القرآن الكريم..

* أما استخدام «العنف» لتحقيق أغراض سياسية، هذا الذى أطلقت عليه أجهزة الإعلام الغربية مصطلح «الإرهاب»، والذى نُسب ويُنسب - زوراً وبهتاناً - إلى الإسلام، فهو لون آخر من ألوان خلط الأوراق والمفاهيم..

«فالعنف»، فى المصطلح الإسلامى، هو نقيض «الرفق».. وفى الحديث النبوى الشريف: «إن الله تعالى يعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف». رواه مسلم وأبو داود والدارمى وابن ماجه والإمام أحمد-. وفى صحيح البخارى، يقول رسول الله ﷺ لأُم المؤمنين عائشة، رضى الله عنها: «مهلاً يا عائشة، عليك بالرفق، وإياك والعنف والفحش». وفى [الموطأ] - للإمام مالك، رضى الله عنه- يقول رسول الله ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى، رفيق يحب الرفق، ويرضى به، ويعين عليه ما لا يعين على العنف»..

فالرفق هو منهاج التعامل الإنسانى فى كل الميادين الحياتية.. والعنف هو نقيض هذا المنهاج.

* أما إطلاق الإعلام الغربى، والكتابات الغربية مصطلح «الإرهاب» على استخدام «العنف» لتحقيق أغراض سياسية، فهو - الآخر - خلط للأوراق والمفاهيم. . . ذلك أن «الإرهاب» . . فى مصطلح اللغة العربية، وفى الاستخدام القرآنى. . هو مجرد «التخويف للردع»، بغرض تجنب «العنف والقتال». . ولقد شهد عالمنا المعاصر ويشهد تجنب العنف والقتال عندما تصل القوى والدول المتنافسة، ذات المصالح المتناقضة، إلى مستويات متقاربة فى القوة الرادعة، فتمتنع هذه القوى والدول عن العنف والعدوان والقتال بسبب إرهاب الرادع والخوف من الردع. . فإعداد القوة الرادعة والمهبة هو السبيل للتوازن الذى يهرب الخصم ويخيفه، فيمتنع العنف والعدوان والقتال. . وهذا هو المعنى الذى جاء فى القرآن الكريم لمصطلح «الإرهاب» - أى مجرد التخويف. . وليس العنف المسلح - كما تزعم الكتابات الغربية-.

﴿وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨) وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ (٥٩) وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٦٠) وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١) وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِبَصَرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨، ٦٢].

فإعداد القوة الرادعة هو الذى يهرب - أى يخيف - أهل الغدر والخيانة، فيمتنع عدوانهم. . فكأنما «الإرهاب» - بمعنى الإخافة والردع لأهل الغدر والخيانة - هو السبيل إلى السلام، وتلافى العنف والقتال. . وليس هو الاستخدام للعنف والقتال، كما يزعم الزاعمون! . .

تلك هى حقيقة الموقف الإسلامى من الحروب الدينية. . اتسق فى هذا

الموقف: الإسلام الدين . . والإسلام الدولة . . والإسلام التراث . .
والحضارة . . والتاريخ . .

بينما رأينا كيف برئت شريعة موسى - عليه السلام . . ونصرانية المسيح -
عليه السلام - من الحرب الدينية، والإكراه على الإيمان . . بينما سقط التراث
اليهودى والتاريخ اليهودى . . وكذلك التراث النصرانى الغربى، وكنائس
النصرانية الغربية . . سقطا فى مستنقع الحروب الدينية، والإبادة للأغيار
والمخالفين، فانقلبا بذلك على حقيقة اليهودية والنصرانية انقلاباً شديداً .
فأصبحنا أمام «مواريث» قد خانت أصولها الأولى، ومنابعها الجوهرية والنقية،
التي أوحاها الله، سبحانه وتعالى، إلى موسى وعيسى - عليهما السلام . .

ولقد رأينا هذه الحقائق التي شهد بها وعليها العلماء الثقات من نصارى
الغرب ودارسى العهد القديم، والخبراء فى دراسة الإسلام . فشهدوا - وهم
شهود من أهلها - على تميز الإسلام وامتيازته فى هذا الميدان . .

فالحمد لله على سماحة الإسلام . . والحمد لله على نعمة الإسلام .

الهوامش:

- (١) د . محمد جلاء إدريس [فلسفة الحرب فى الفكر الدينى الإسرائيلى] ص ٨٤ طبعة القاهرة سنة ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
- (٢) إسرائيل شاحاك [الديانة اليهودية وموقفها من غير اليهود] ص ١٣٤ ، ١٣٥ ترجمة: حسن خضر. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٤م.
- (٣) المرجع السابق. ص ١٣٦ - ١٤٠.
- (٤) د . فؤاد حسنين على [التوارة: عرض وتحليل] ص ١١ ، ١٦ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٤ - ٢٦ طبعة القاهرة سنة ١٩٤٦م.
- (٥) [تاريخ نقد العهد القديم من أقدم العصور حتى العصر الحديث] ج١ ص ٢٠٦ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢٢٠ ، ١٩٦ - وهو مجموعة من الدراسات النقدية لمجموعة من العلماء والفلاسفة اليهود - جمعها وحررها العالم اليهودى «المان شازار». ترجمة: أحمد محمد هويدى، تقديم ومراجعة : د. محمد خليفة حسن. طبعة المجلس الأعلى للثقافة - المشروع القومى للترجمة ، القاهرة سنة ٢٠٠٠م.
- (٦) [فلسفة الحرب فى الفكر الدينى الإسرائيلى] ص ٥٧.
- (٧) المرجع السابق. ص ٦٦ ، ٦٧.
- (٨) المرجع السابق. ص ٧٨.
- (٩) ابن عبد البر [الدرر فى اختصار المغازى والسير]. تحقيق: د. شوقى ضيف. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦م.
- (١٠) [فلسفة الحرب فى الفكر الدينى الإسرائيلى] ص ١٨٩ - ١٩١.
- (١١) د. عبد الوهاب المسيرى [موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية] ج٤ ص ١٤١ ، ١٤٢. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٩م.
- (١٢) د. صبرى أبو الخير سليم [تاريخ مصر فى العصر البيزنطى] ص ٦٢. طبعة القاهرة سنة ٢٠٠١م.
- (١٣) مكسيموس مونروند [تاريخ الحروب المقدسة فى الشرق المدعوة حرب الصليب] المجلد الأول. ص ٤١٣. ترجمة مكسيموس مظلوم. طبعة أورشليم سنة ١٨٦٥م.
- (١٤) المصدر السابق. المجلد الأول، ص ١٧٢ ، ١٧٣.
- (١٥) د. جاك تاجر [أقباط ومسلمون منذ الفتح العربى إلى سنة ١٩٢٢م] ص ١٥٣ ، طبعة مصورة، أصدرها أقباط المهجر - مدينة جرسى - أمريكا سنة ١٩٨٤م.

- (١٦) ول ديورانت [قصة الحضارة] المجلد السادس ج٣، ٤. ترجمة د. عبد الحميد يونس. طبعة القاهرة سنة ١٩٧١م و١٩٧٢م، والمجلد الرابع ج٤ ص ٤٦ - ٥٣. وسير توماس أرنولد [الدعوة إلى الإسلام] ص ٣٠ - ٣٢، ٧٢، ٧٣، ١٢٢ - ١٢٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٤١، ١٤٣، ١٥٤ - ١٥٦، ٢٢٣، ٢٢٦، ٢٧٤، ٢٧٦. ترجمة: د. حسن إبراهيم حسن، د. عبد المجيد عابدين، إسماعيل النحراوى، طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠م.
- (١٧) د. توفيق الطويل [قصة الاضطهاد الدينى فى المسيحية والإسلام] ص ٧٠ - ١١٢ طبعة القاهرة سنة ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.
- (١٨) صحيفة [الحياة] - لندن - فى ٢٩ - ٢ - ٢٠٠٣م.
- (١٩) صحيفة [الشرق الأوسط] - لندن فى ٨-٣-٢٠٠٣م - مقال الأستاذ زين العابدين الركابى.
- (٢٠) صحيفة [العربى] - القاهرة فى ١٦-٣-٢٠٠٣م.
- (٢١) صحيفة [الشرق الأوسط] لندن فى ١٠-٣-٢٠٠٣م.
- (٢٢) صحيفة [الحياة] - لندن- فى ١٥ - ٣ - ٢٠٠٣م.
- (٢٣) مجلة [النيوزويك]- الأمريكية- عدد ١١-٣-٢٠٠٣م.
- (٢٤) ونحن ننقل ترجمة مقالى الـ[نيويورك تايمز] عن صحيفة [الأسبوع]- القاهرة -فى ١٤-٤-٢٠٠٣م.
- (٢٥) صحيفة [الشرق الأوسط]- لندن- فى ٢١-٢-٢٠٠٢م.
- (٢٦) [النيوزويك]- الأمريكية- العدد السنوى- ديسمبر ٢٠٠١م- فبراير سنة ٢٠٠٢م.
- (٢٧) المرجع السابق. ذات العدد. . والتاريخ.
- (٢٨) ملحق [الوسط]- صحيفة [الحياة] - لندن -فى ٢٧-١-٢٠٠٣م.
- (٢٩) لمزيد من التفاصيل، انظر دراستنا عن «الهجمة الأمريكية على الإسلام» بكتابنا [فى فقه المواجهة بين الغرب والإسلام] ص ٩١-١١٣ طبعة مكتبة الشروق الدولية. القاهرة سنة ٢٠٠٣ م .
- (٣٠) د. محمد حميد الله- محقق- [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة] ص ١١١. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م.
- (٣١) [تاريخ مصر فى العصر البيزنطى] ص ٦٢.
- (٣٢) ابن عبد الحكم [فتوح مصر واخبارها] ص ٤٦ طبعة ليدن سنة ١٩٢٠م.
- (٣٣) [الدعوة إلى الإسلام] ص ٧٢٩، ٧٣٠.
- (٣٤) فيليب فارج، يوسف كرباح [المسيحيون واليهود فى التاريخ الإسلامى العربى والتركى] ص ٢٥، ٣٢ ترجمة بشير السباعى. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٤م.
- (٣٥) المرجع السابق. ص ٣٨، ٣٩.
- (٣٦) مونتجمرى وات [الإسلام والمسيحية فى العالم المعاصر] ص ١٠٢. ترجمة عبد الرحمن عبدالله الشيخ. طبعة القاهرة مكتبة الأسرة.
- (٣٧) [الدعوة إلى الإسلام] ص ٨٩، ٩٠.
- (٣٨) المرجع السابق. ص ٤٥٤.

- (٣٩) المرجع السابق. ص ٤٥٤ ، ٤٥٦ .
- (٤٠) [الإسلام والمسيحية فى العالم المعاصر] ص ١٧٩ - ١٨٤ .
- (٤١) المرجع السابق. ص ٣٥ ، ٣٦ ، ١٠٦ ، ٣٩ ، ٢٠٦ ، ٥٢ - ٥٤ ، ٧١ ، ٢٣٠ ، ٦١ ، ١٢٨ ، ٦٣ ، ١٣١ .
- (٤٢) المرجع السابق. ص ٣٦ ، ١٧٠ .
- (٤٣) المرجع السابق. ص ٩٨ ، ١٠٥ ، ١١٠ ، ١١١ .
- (٤٤) المرجع السابق. ص ١٧٦ ، ١٧٨ .
- (٤٥) المرجع السابق. ص ٣٥ ، ٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ .
- (٤٦) الغزالي [الاقتصاد فى الاعتقاد] ص ١٣٤ . طبعة مكتبة صبيح القاهرة . بدون تاريخ .
- (٤٧) ابن أبى الحديد [شرح نهج البلاغة] ج ١٧ ص ١٤١ تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم . طبعة القاهرة ١٩٥٩م . والباقلانى [التمهيد فى الرد على الملحدة والمعتلة والرافضة والخوارج والمعتزلة] ص ٢٣٧ ، ٢٣٨ . تحقيق: محمود محمد الحضرى، د. محمد عبد الهادى أبو ريدة . طبعة القاهرة ١٩٤٧م .
- (٤٨) محمد عبده [الأعمال الكاملة] ج ٤ ص ٤٧٥ ، ٤٧٦ ، ج ٣ ص ٢٦٧ ، ٤٧٥ . دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة . طبعة القاهرة ١٩٩٣م .

النموذج الإسلامى لتحرير المرأة

فى قضية المرأة وتحريرها.. لن يختلف أغلب العقلاء على أن المرأة قد حُمّلت - تاريخياً.. وحتى عصرنا الراهن - وفى كل الحضارات - من المظالم والقيود أكثر مما حُمّل الرجال..

ومن ثم، فإن أغلب العقلاء لن يختلفوا على أن للمرأة «قضية».. وأن تحريرها، وإن ارتبط بتحرير الرجل، إلا أنه يحتاج إلى كثير من التمييز، وكثير من الاختصاص، وكثير من الاهتمام.. لكن الأمر الذى يثير الكثير من الاختلاف - بل والخلاف - على النطاق العالمى، هو «النموذج الأمثل» الذى يحقق التحرير الحقيقى للنساء..

* فهناك النموذج الغربى المتطرف - نموذج الحركات الأنثوية الغربية - التى تريد تركز الأنثى حول ذاتها، فى عالم خال من الرجال، تثور فيه الأنثى ضد الرجل، وضد الفطرة السوية التى فطر الله الناس عليها، وضد كل القيم والديانات.. وهو نموذج بلغ فى تطرفه وشذوذه حد الجنون!..

* وهناك نموذج الجمود والتقليد الذى حمل ويحمل التقاليد الراكدة على الدين، فيثبتها ويكرسها ويقدها، حتى لكأن تحرير المرأة - فى هذا النموذج - هو تحريرها من كل دعوات ودعاوى التحرير!..

* وهناك النموذج الوسطى المتوازن، المعبر عن حقيقة التحرير الإسلامى للمرأة.. وهو الذى ينطلق من نصوص ومنطق وفقه القرآن الكريم، فى تحرير المرأة وإنصافها، والمساواة بين النساء والرجال، الذين سوى الله، سبحانه وتعالى، بينهم عندما خلقهم جميعاً من نفس واحدة، وسوى بينهم جميعاً فى

حمل أمانة استعمار وعمران هذه الأرض، عندما استخلفهم جميعاً فى حمل هذه الأمانة . . كما ساوى بينهم فى الكرامة - عندما كرم كل بنى آدم- وفى الأهلية . . والتكاليف . . والحساب . . والجزاء . . مع الحفاظ على فطرة التمايز بين الأنوثة والذكورة، لتتم نعمة السعادة الإنسانية بشوق كل طرف إلى الطرف الآخر، المتميز عنه - ولو كان ندأً مماثلاً لما كان «آخر» ولما كان مرغوباً تهفو إليه القلوب - ولتكون هذه المساواة - فى الخلق . . وحمل الأمانة . . والكرامة . . والأهلية . . والتكاليف . . والحساب . . والجزاء . . والاشتراك - متضامين - فى أداء فرائض العمل الاجتماعى العام، أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر - لتكون هذه المساواة هى: مساواة تكامل الشقين المتمايزين، لا مساواة الندين المتماثلين - والمتنافرين.

ينطلق هذا النموذج الوسطى من نصوص ومنطق وفقه القرآن الكريم، الذى جعل الرجل بعضاً من المرأة والمرأة بعضاً من الرجل ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١].

﴿لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّمَّنْ ذَكَرَ أَوْ أُنْشِئَ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

فكل طرف هو لباس للطرف الثانى ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧].

قد أفضى بعضهم إلى بعض ﴿وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢١]. وقامت روابط هذا الميثاق الغليظ - ميثاق الفطرة - الجامع لهم جميعاً على بنود عقد وعهد المودة والرحمة والسكن والسكينة ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

كما ينطلق هذا النموذج الوسطى - فى تحرير المرأة وإنصافها - مع بقائها أنثى، تسعد - عندما تكون سوية - وتفخر وتباهى بأنوثتها، وتنفر وتهرب وتخجل من «الاسترجال» و«الإسبرطية» - كما يسعد الرجل السوى ويفخر وبهاى برجولته، وينفر من التخثث والأنوثة ينطلق أيضاً من التطبيقات النبوية لنصوص ومنطق وفقه القرآن الكريم. . تلك التطبيقات التى حررت المرأة المسلمة، وأنقذتها من «الوآد» المادى والمعنوى، وجعلتها طاقة فاعلة فى بناء الأسرة والدولة والأمة والحضارة، ومشاركة فى سائر ميادين إقامة الدين والدنيا، منذ اللحظات الأولى لإشراق شمس الإسلام. .

كما ينطلق هذا النموذج الوسطى أيضاً من الاجتهاد الإسلامى الحديث والمعاصر، الذى أولى المرأة ما تستحق وما يجب لها من العناية، كطرف أصيل فى المشروع النهضوى المنشود الذى استهدفه تيار الإحياء والاجتهاد والتجديد، مستندا إلى القرآن الكريم وإلى تطبيقات التحرير الإسلامى للمرأة، فى مواجهة تصورات ونماذج الغلو الإسلامى والغلو العلمانى جميعاً. وإذا كان نموذج المرأة الذى يبشر به الغلو العلمانى، هو ذلك النموذج الغربى، الذى أخذت تشقى به ومنه المرأة الغربية ذاتها، وذلك بعد أن قادها إلى واقع رهيب وغريب. . فيه:

- أصبحت تجارة الدعارة ثالث التجارات الكبرى - بعد المخدرات والسلاح! - . . وحجم رأسمالها السنوى ١٣ ملياراً من الدولارات. .!!^(١)

- وفيه - رغم التحلل الجنسى والإباحية المشاعة - أعلى نسبة لاغتصاب النساء فى العالم! . . وأعلى نسبة لتجارة الرقيق الأبيض فى العالم! . .

- وفيه - رغم ما تحقق تحت لافتات المساواة - أعلى نسبة من العنف الأسرى ضد النساء فى العالم! . .

- وفيه أعلى نسبة من «الأسر» غير الشرعية فى العالم! . . تصل إلى ٥٠% من الأسر فى بعض المجتمعات الغربية! . .

- وفيه أعلى نسبة من الطفولة غير الشرعية . . أو التى تنشأ وتربى خارج الأسرة الشرعية فى العالم! - تصل إلى ٤٠٪ فى بعض المجتمعات الغربية! . .
- وفيه أعلى نسبة من القلق والانتحار فى العالم . . حتى بين الأطفال - كما هو الحال فى أمريكا - . . وحتى فى المجتمعات التى تتمتع بأعلى نسبة من الدخل، ومستوى المعيشة، ومن الإباحية الجنسية - كما هو الحال فى البلاد الإسكندنافية - . .

إذا كان هذا هو حال النموذج الغربى الذى تنطلق منه، وتبشر بمثله حركات الغلو العلمانى النسوية فى بلادنا . فإن النموذج الذى يريد تيار الغلو الدينى الحفاظ عليه، وتكريسه، وتأبيده، والانطلاق منه، والتبشير به، هو نموذج «المرأة الدمية» التى تجر الذبول إلى المخادع، وتقف طاقاتها وملكاتهما عند الإغراء بالفراش، وإنجاب الأطفال . . وإذا تعلمت فإن تعليمها وعلومها يجب أن تقف عند حدود هذه الآفاق لا تعدوها . . أما النموذج الوسطى، الذى يمثل وسطية الإسلام فى تحرير المرأة وإنصافها، فإنه يباهى الدنيا بنماذج الريادات النسائية اللاتى حررهن الإسلام منذ عصر النبوة وحتى العصر الذى نعيش فيه . . ويدعو - هذا النموذج - إلى اتخاذ هذه النماذج الريادية أسوة وقدوة ومُثلاً، منها نبدأ جهاد التحرير للمرأة فى عصرنا الحديث . .

* فخديجة بنت خويلد [٦٨ - ٣ ق. هـ ٥٥٦ - ٦٢٠ م] نموذج من نماذج الثمرات الطيبة لهذا التحرير الإسلامى للمرأة . . به كانت أسبق من كل الرجال إلى الإيمان بالدعوة الإسلامية الجديدة والوليدة . . وبه كانت الداعمة - بالعقل والحكمة والمال - وأيضاً بالعواطف المعطاءة - لرسول الإسلام، ودعوته وأمتة . . حتى كان عام وفاتها عام الحزن والحداد للجماعة المؤمنة كلها . .

* وأسماء بنت أبى بكر الصديق [٢٣ ق هـ - ٧٣ هـ ٥٩٧ - ٦٩٢ م] كانت نموذجاً من نماذج ثمرات هذا التحرير . . تحمل أمانة سر خطة الهجرة النبوية من مكة إلى المدينة [١ هـ ٦٢٢ م] - وهى من أخطر التحولات فى تاريخ الدعوة

والدولة والأمة- . . وتشارك فى تنفيذ هذا الحدث الأعظم . . وتشد أزر زوجها
البطل الزبير بن العوام [٢٨ق هـ - ٣٦ هـ ٥٩٦ - ٦٥٦م] فتهيئ له بيته . .
وتزرع له حقله . . وترعى فرس جهاده وقتاله . . وتقاتل معه فى بعض
الغزوات . . وتربى ولده عبدالله بن الزبير [١ - ٧٣ هـ ٦٢٢ - ٦٩٢م] على
البطولة والفداء والاستشهاد . . وتعارض وتجاهه الطغاة، من أمثال الحجاج بن
يوسف الثقفى [٤٠ - ٩٥ هـ ٦٦٠ - ٧١٤م] . . ومع كل ذلك تظل أسماء
هذه هى الأنثى، التى تتزيا بالحشمة الإسلامية والشرقية، فلا تلبس ما يكشف
أو يصف أو يشف . . وتحافظ على مشاعر الغيرة المفرطة عند زوجها! .

* والشفاء بنت عبدالله بن عبد شمس القرشية العدوية [٢٠ هـ - ٦٤٠م]
كانت ثمرة من ثمرات هذا النموذج الإسلامى لتحرير النساء . . سبقت إلى
الإسلام . . وبايعت على الدخول فيه وفى أمته ودولته . . وتميزت بالعقل
والرأى والحكمة . . واشتغلت بتعليم القراءة والكتابة، حتى كانت معلمة لحفصة
أم المؤمنين . . وروت أحاديث رسول الله ﷺ . . وكانت تحاوره، وأحياناً تلومه
فيعتذر إليها ﷺ! . . وبلغت - فى المشاركة فى السلطة والدولة - أن ولاها
عمر بن الخطاب «ولاية الحسبة» أى «وزارة» التجارات والأسواق، وأوزانها
ومعاملاتها! . . تراقب وتحاسب، وتفصل بين التجار وأهل السوق، من الرجال
والنساء . .

* وأم هانئ فاختة بنت أبى طالب [٤٠ هـ - ٦٦١م] كانت من ثمرات هذا
النموذج فى تحرير النساء . . أسلمت عام الفتح [٨ هـ ٦٢٩م] . . ومع أن
زوجها قد فرّ بشركه إلى نجران يوم الفتح، فلقد أجارت - أى أعطت الأمان -
لرجلين من قومه - بنى مخزوم - كانا مطلوبين للقصاص الإسلامى . . ووقفت
- لذلك - فى وجه أخيها على بن أبى طالب، الذى هم بتنفيذ القصاص
فيهما، فصارعه، حماية لمن أجارت، حتى لم يستطع منها فكاًً . . واستجاب
رسول الله ﷺ، لعهدا ولاجارتها، قائلاً:

- «قد أجرنا من أجرت، وأمنّا من أمنتِ يا أم هانئ.. لكن لا تُغضبى عليّا، فإن الله يغضب لغضبه!..».

فأطلقت أخاها.. فداعبه رسول الله ﷺ قائلاً:

- «يا عليّ غلبتك امرأة!..».

- فقال عليّ: والله يا رسول الله ما قدرت أن أرفع قدمي من الأرض!..

فضحك الرسول ﷺ وقال:

- «لو أن أبا طالب ولد الناس كانوا شجاعاً..».

ولقد بلغ هذا التحرير الإسلامى بأم هانئ الذروة، عندما خطبها رسول الله ﷺ لنفسه زوجاً وأمّاً للمؤمنين، بعد أن فرق الإسلام بينها وبين زوجها المشرك، الذى فرّ بشركه إلى نجران، فاعتذرت عن خطبة الرسول - بأدب جم وحكمة بالغة - وقالت:

- يا رسول الله لأنت أحب إليّ من سمعى وبصرى. وحق الزوج عظيم، فأخشى إن أقبلتُ على زوجي أن أضيع بعض شأنى وولدى، وإن أقبلتُ على ولدى أن أضيع حق الزوج!..

فقبل المصطفى ﷺ اعتذارها، واحترم رغبتها التفرغ لأولادها - صنع ذلك وهو القائد المنتصر فى لحظات الفتح الأكبر والانتصار الأعظم التى يستبىح فى مثلها الفاتحون كل الحدود والسدود! وغالب عاطفته الإنسانية، وحبّه لأم هانئ- وهو الذى كان قد سبق أن خطبها من أبيها أبى طالب، بعد وفاة زوجته خديجة، وقبل زواجها فى بنى مخزوم، لكن عمه أبا طالب اعتذر يومها للرسول، بأنه قد وعد آل مخزوم أن يزوجهما فيهم، لهبيرة بن أبى وهب المخزومى، وقال للرسول ﷺ:

- يا بن أخى إنا قد صاهرناهم والكريم يكافئ الكريم..

غالب الرسول المنتصر عواطفه الإنسانية .. واحترم حرية أم هانئ .. وأثنى عليها وعلى ما تمثل من منظومة للقيم، وشموخ للحرية والتحرير .. فقال النبي ﷺ:

- «إن خير نساء ركبن الإبل نساء قريش، أحناه على ولد في صغره، وأرعاه على بعل في ذات يده...».

* وعائشة بنت أبي بكر الصديق - زوج النبي ﷺ وأم المؤمنين - [٩ ق هـ - ٥٨ هـ ٦١٣ - ٦٧٨ م] ثمرة من ثمرات هذا التحرير الإسلامى للنساء .. كانت الزوجة الرقيقة الحبيبة .. وراوية الأحاديث وحافظة السنة .. والفقيهة التى تراجع القرأء والرواة والفقهاء والمجتهدين .. والمشييرة فى الشئون العامة .. والمتذوقة للفنون التى تعرضها فرقة فنية - من الأحباش - فى مسجد النبوة .. والممارسة لرياضة الجرى مع زوجها ﷺ أثناء السفر إلى الغزو والجهاد .. والمشاركة فى الصراع السياسى، الذى بلغ حد القتال، إبان الفتنة الكبرى ..

* وحفصة بنت عمر بن الخطاب - زوج الرسول وأم المؤمنين - [١٨ ق هـ - ٤٥ هـ ٦٠٤ - ٦٦٥ م] كانت من ثمرات هذا التحرير الإسلامى للمرأة .. سبقت إلى الإسلام بمكة .. وهاجرت بدينها إلى المدينة المنورة .. وكانت شاعرة .. وخطيبة فصيحة .. وراوية للحديث .. ائتمنتها الأمة على حفظ القرآن عندما جمع المسلمون صحائفه على عهد أبى بكر الصديق، فحفظته حتى أسلمته إلى الخليفة عثمان بن عفان، فُسخت منه المصاحف التى وزعت على الأمصار .. وشاركت بالرأى فى تدبير شورى الأمة بعد استشهاد أبيها الفاروق .. ورثته نشرًا وشعرًا .. وخطبت فى الناس بمناب أبى بكر وعمر .. وتحدثت عن سنة الإسلام فى الاختيار الشورى للخلفاء، والبيعة التعاقدية بين الأمة وبينهم ..

* ونسيبة بنت كعب الأنصارية - أم عمارة - [١٣ هـ ٦٤٣ م] كانت ثمرة ناضجة متألفة من ثمرات هذا التحرير - شاركت فى بيعة العقبة [٢ ق هـ ٦٢٠ م] - الجمعية التأسيسية للدولة الإسلامية الأولى - فمارست، فى ظلال

الإسلام، وتحريره للمرأة، قمة الولاية السياسية قبل أربعة عشر قرناً..
وشاركت فى بيعة الرضوان - تحت الشجرة - عام الحديبية [٦ هـ ٦٢٨م] -
«على الحرب والقتال» عندما شاع أن قريشاً قتلت مندوب المسلمين إليهم -
عثمان بن عفان- ونزل فيها وفى الذين بايعوا معها نساء ورجالاً قول الله
سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا
فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨].

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ
عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِنْ أَجْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الفتح: ١٠].

وكانت أم عمارة ممن أوفى بما عاهد عليه الله.. ففى يوم أحد - وعندما
انهزم المسلمون، وفر كثير من الرجال - كانت ضمن أقل من عشرة هم الذين
صمدوا لجيش الشرك، فحموا رسول الله ﷺ من القتل.. ويومئذ رآها الرسول
وقد كسرت سنه وسالت دماؤه - وهى مشمرة، قد ربطت ثوبها على وسطها،
تقاتل دونه، وتتصدى «لابن قمية» - الذى اندفع نحو الرسول ﷺ قائلاً: أين
محمد؟ لا نجوت إن نجا! -.. رآها الرسول وهى تتلقى فى كتفها الطعنة التى
أراد «ابن قمية» توجيهها إلى الرسول.. وكانت أمها معها تعصب لها
جراحها!.. وكان معها - كذلك - فى هذه الملحمة ابنها الذى نزع فعصبت
نزيفه، ثم استنهضته للقتال!.. وعندما جرح جرحها الغائر فى كتفها نادى
الرسول على ابنها:

«أمك، أمك! اعصب جرحها، بارك الله عليكم من أهل بيت».

ثم نادى على أحد الفارين كى يعطيها ترسه لتتربس به.. وقال لها - فى
إعجاب:-

«من يطبق ما تطيقين يا أم عمارة؟!.. لمقام نسيبة بنت كعب يوم أحد خير من
فلان وفلان.. ما ألتفت يميناً ولا شمالاً إلا وأنا أراها تقاتل دونى!..».

أما هي، التي غادرت أرض المعركة يومئذ وفي جسدها ثلاثة عشر جرحاً..
فلقد قالت لرسول الله ﷺ:

- ادع الله أن نرافقك في الجنة..

- فقال ﷺ: «اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة..».

- فقالت: ما أبالي بعد ذلك ما أصابني في الدنيا!..

وعندما رجع الرسول القائد إلى المدينة، ذهب إلى بيتها ليعودها، ويطمئن عليها قبل أن يذهب إلى بيته!..

وواصلت أم عمارة جهاد التحرير الإسلامي للمرأة المسلمة.. فذهبت إلى رسول الله ﷺ محتجة على ما حسبه امتيازات للرجال على النساء، فقالت:
- يا رسول الله، ما أرى كل شيء إلا للرجال. وما أرى النساء يُذكرن بشيء!..

فنزل الروح الأمين على قلب الصادق الأمين بالتنزيل الذي يقرن - في صراحة اللفظ - النساء بالرجال: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وتواصل أم عمارة الجهاد القتالي يوم خيبر [٧ هـ - ٦٢٨ م].. ويوم حنين (٨ هـ - ٦٣٠ م).. ويوم اليمامة [١٢ هـ - ٦٣٣ م] في حروب الردة ضد مسيلمة الكذاب.. وفي موقعة اليمامة هذه استشهد ابنها حبيب بن زيد بن عاصم، ومثّل مسيلمة الكذاب بجثته!.. وفقدت أم عمارة يدها في القتال.. وعادت إلى المدينة وفي جسدها أحد عشر جرحاً!.. فذهب لعيادتها بمنزلها خليفة المسلمين أبو بكر الصديق!..

* وأسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية [٣٠ هـ - ٦٥٠ م] كانت هي الأخرى واحدة من الكواكب اللاتي حررهن الإسلام فأضأن في سماء تحرير المرأة المسلمة . شاركت - مع أم عمارة - في عقد تأسيس الدولة الإسلامية الأولى، ببيعة العقبة [٢ ق هـ - ٦٢٠ م] . وشهدت يوم الفتح الأعظم - فتح مكة [٨ هـ - ٦٢٩] - وقاتلت يوم اليرموك [١٥ هـ - ٦٣٦ م] - في فتوحات الشام وقتلت تسعة من الروم بعمود خيمتها! . وكانت من ذوات الرأي والعقل والحكمة والدين . خطيبة فصيحة تهز أعواد المنابر إذا خطبت . وتقوم على تنظيم النساء المؤمنات، وتترجم المطالبة بما لهن من حقوق، حتى لقد سميت - في كتب السنة والسيرة - بـ«وافدة النساء» - أى رسولة وزعيمة النساء، في المطالبة بحقوقهن - لأنها ذهبت إلى رسول الله ﷺ - وهو في المسجد - متحذثة باسم نساء المسلمين، فقالت :

أنا وافدة من خلفي من النساء يقلن بقولى وهنّ على مثل رأئى! . . إن الله قد بعثك للرجال والنساء . . ولقد غلبنا عليك الرجال، فاجعل لنا يوماً من نفسك، تعلمنا فيه . . فوعدهن رسول الله ﷺ يوماً، لقيهن فيه، فوعظهن وأمرهن . . وروت عن رسول الله ﷺ أكثر من ثمانين حديثاً . .

تلك مجرد إشارات لأمثلة من النماذج التي جسدت نوعية التحرير الذي أنجزه الإسلام للمرأة، منذ فجر البعثة النبوية، وإشراق شمس حضارة الإسلام . .

وإذا كانت هذه النماذج شاهدة شهادة صدق على نوعية التحرير، ونموذجه . . فإن الآفاق الواسعة التي بلغتها موجات هذا التحرير تشهد على عموم النعمة التي تمثلت فيه .

فيوم انتقال رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى [١١ هـ - ٦٣٢ م] كان تعداد الأمة التي دخلت الدين الجديد، وانخرطت في رعية الدولة الوليدة ١٢٤,٠٠٠ من

المسلمين والمسلمات.. وعندما رصد علماء التراجم والطبقات أسماء الأعلام والصفوة والنخبة التي تربت في مدرسة النبوة وتميز عطاؤها في مختلف ميادين العطاء.. رصدوا أسماء نحو ثمانية آلاف من صفوة الصفوة.. فكان من بينهم أكثر من ألف من النساء!.. أى أن التحرير الإسلامى للمرأة قد دفع إلى مراكز الريادة والقيادة أكثر من واحدة من بين كل ثمانية من الصفوة والنخبة، إبان ثورة التحرير الإسلامى، فى أقل من ربع قرن من الزمان!.. وهى أعلى نسبة للريادات النسائية فى أى ثورة من ثورات التحرير أو نهضة من النهضات..

وإذا كانت رياح الجاهلية قد أعادت بعض التقاليد والعادات - التى سبقت وسادت مجتمعات ما قبل الإسلام - فإن هذه التقاليد الراكدة لم تستطع غلبة إنجازات التحرير الإسلامى للمرأة - رغم مغالبتها لهذه الإنجازات - فظلت روح هذا التحرير وثمراته ملحوظة حتى فى عصور التراجع الحضارى الذى أصاب عالم الإسلام، فى ظل عسكرة الدولة تحت حكم المماليك والعثمانيين.. فظلت حياتنا الاجتماعية الإسلامية راخرة بنماذج النساء المحدثات.. والفقيهات.. والشاعرات والأديبات.. اللاتى بلغ شأوهن فى العلم الحد الذى تتلمذ عليهن وأخذ «الإجازة» العلمية منهن عدد من كبار أئمة الفقهاء والحفاظ والمحدثين والمجددين!..

وعندما رصد عالم التاريخ والتراجم والطبقات عمر رضا كحالة [١٣٢٣ - ١٤٠٨ هـ - ١٩٠٥ - ١٩٨٧ م] أعلام النساء اللاتى تفوقن وبرزن وتقدمن صفوف الصفوة فى تاريخنا الحضارى، إذا به يترجم لثلاثة آلاف من أعلام النساء فى المحيط العربى وحده - وهو محيط لا يمثل إلا خُمس أمة الإسلام!..

صحيح أن نسبة الصفوة وأعلام النساء - فى تاريخنا الحضارى - كان يجب أن تكون أضعاف أضعاف هذا العدد، وذلك قياساً على حجم وتعداد صفوة وأعلام النساء فى عهد النبوة.. لكن يظل هذا التعداد شهادة صدق للنموذج الإسلامى فى تحرير النساء، ووساماً على صدر حضارة الإسلام تباهى

به كل الحضارات . . فلقد استعصى هذا النموذج على الهزيمة أمام العادات والتقاليد الراكدة، التي عادت فسادت في حقبة تراجع الحضارى، فظل فاعلاً على امتداد تاريخ الإسلام . . ثم عاد لتألق معالمه المتميزة في اجتهادات مدرسة الإحياء والتجديد الإسلامى الحديث والمعاصر . . إن الحضارة الإسلامية، التي جسدت الإحياء الإسلامى فى مختلف ميادين الإبداع الحضارى - لأن الإسلام هو الإحياء فى مختلف هذه الميادين - ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]. إن هذه الحضارة الإسلامية قد أفرزت أعلام العلماء فى مختلف ميادين العلم - بما فى ذلك الفلك والطبيعة والجبر والحساب والهندسة والرياضيات والطب والصيدلة . . إلخ . . إلخ - قبل أن يمر قرن من الزمان على إشراق شمس الإسلام - ناهيك عن العلوم الشرعية والإنسانية والاجتماعية والآداب والفنون- بينما الحضارة المسيحية، فى أوروبا النصرانية، قد ظلت ستة عشر قرناً قبل أن تشهد عالمًا واحدًا فى الفلك!! . . بل إن هذا الفلكى - كوبر نيكوس [١٤٧٣ - ١٥٤٣م] - الذى لم تعرفه أوروبا النصرانية إلا فى القرن السادس عشر، لم تتح له النصرانية وكنيستها ولاهوتها نشر كتابه فى حياته! . وعندما نشر بعد وفاته [١٥٤٣م] حرمت الكنيسة توزيعه، فظل محجوباً ومصادراً حتى سنة ١٧٥٨م! . .

ولم يزدهر الفلك وغيره من العلوم - ويتحرر الإنسان الأوروبى، إلا على انقراض سلطان الدين! . .

وكذلك كان حال المرأة فى الحضارة المسيحية الأوروبية . . ظلت النظرة الدونية إليها هى السائدة باعتبارها نجساً لا طهر له، وشيطاناً بلا روح، فهى امتداد لغواية الشيطان التى أثمرت الخطيئة التى حملتها البشرية على امتداد تاريخها الطويل! . .

وإذا كان الإيمان الإسلامى . . وفقه الدعوة الإسلامية . . وشورى هذه الدعوة قد بدأت جميعها بامرأة - هى خديجة بنت خويلد - رضى الله عنها- . . وإذا

كانت علوم الإسلام قد عرفت الريادات من النساء منذ فجر الدعوة، وعلى امتداد تاريخها الطويل.. فإن الحضارة المسيحية لم تعرف عالمة فى النصرانية ولاهوتها.. ولا تزال الكنائس النصرانية تحرم المرأة من هذا الشرف حتى هذه اللحظات!..

أما هذا الذى سموه فى النهضة الأوروبية تحرير المرأة فلقد جاء هو الآخر - كتحرير العلماء- على أنقاض سلطان الدين والكنيسة واللاهوت.. ولذلك، جاء رد فعل لاديني، يحرر المرأة من الدين، بدلاً من أن يحررها بالدين!.. لذلك، كانت رسالة العقل المسلم هى حماية المجتمع المسلم من الوقوع فى مستنقع التقليد، تقليد الآخر الغربى، ذلك الذى حذرنا من تقليده رسولنا ﷺ عندما تنبأ بظهور ومجىء هذا النموذج البائس للمقلدين: «لتبعن سنة من قبلكم باعاً بباع، وذراعاً بذراع، وشبراً بشبر، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتم فيه» رواء ابن ماجه-.. وسواء أكان هذا التقليد تقليداً للنموذج الغربى البائد، الذى احتقر المرأة، وقيد ملكاتها وطاقاتها بالعادات والتقاليد الجاهلية عدة قرون.. أم كان تقليداً للغلو العلمانى الأوروبى والغربى، الذى جعل من المرأة سلعة إغراء، وصورة غلاف، وإعلاناً يغرى بالنهم والاستهلاك، فكان «تحريره» لها تحريراً من الفطرة، ومن الدين!.. أو كان تقليداً لعاداتنا الجاهلية، التى عادت فسادت فى عصر التراجع الحضارى لأمة الإسلام..

سواء أكان التقليد للنموذج الغربى المغالى فى مناقضة الفطرة والقيم.. أم كان تقليداً للعادات والتقاليد الاجتماعية الإسلامية البائدة.. فإنه مردول.. وفى النموذج الإسلامى الوسطى لتحرير المرأة بالإسلام النموذج المثالى، الذى يحرر المرأة، مع الحفاظ على فطرة التمايز بين الأنوثة والذكورة، تلك التى فطر الله عليها الناس، من الذكور والإناث جميعاً.. فهو تحرير تسعد به المرأة، بدلاً من أن تشقى بالنموذج الغربى «للتحرير»!.. أو تظل حبيسة العادات والتقاليد الراكدة، التى يحملها البعض - زوراً بهتاناً - على حقيقة الإسلام..

خمس شبهات

وإذا كانت هذه هي الرؤية الإسلامية لأهلية المرأة . . ولمكانتها من الرجل . . ولموقعها من المشاركة في العمل الاجتماعي العام . . وهي الرؤية الوسط ، التي تُنصف المرأة فتسوى بينها وبين الرجل - مع الحفاظ على فطرة التمايز بين الذكورة والأنوثة ، وتشرك المرأة مع الرجل في النهوض بولايات العمل الاجتماعي العام - التي تجمعها فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . .

إذا كانت هذه هي الرؤية الإسلامية - الوسط : العدل - لهذه القضية - التي دار ويدور حولها لغط كثير ، وجدل كبير وشديد - فإن اكتمال مقومات هذه الرؤية مرهون بإزالة كل ما أثير ويثار حولها من الشبهات . . ففي المنهاج الإسلامي لا يكفي تبليغ الدعوة . . ولا حتى إقامة الحجة . . وإنما لا بد - معهما أيضاً - من إزالة الشبهات . .

ولأن هذه الرؤية التي قدمناها هي الوسط - أي الإسلامية الحقة - كما نحسب - فلقد اتفق أطراف الغلو على ما أثير ويثار ضدها من شبهات! . . فصدقت في هذا الاتفاق الذي جمع طرفي الغلو - غلو الجمود والتقليد لتراث عصر تراجعنا الحضارى . . وغلو الجمود والتقليد العلماني للنموذج الغربي الوضعي اللاديني - صدقت في هذا الاتفاق والاجتماع المقولة السياسية المعاصرة التي تقول: إن أقصى اليمين وأقصى اليسار إنما يجتمعان على الأرض المشتركة للموقف الخاطئ! . .

ومن هنا رأينا طرفي الغلو الديني واللا ديني يجتمعان على إثارة خمس شبهات . . يحسبها الإسلاميون الغلاة ، الذين حملوا العادات والتقاليد الراكدة على الإسلام ، فجعلوها ديناً . . يحسبونها مانعة دينياً من اكتمال أهلية المرأة ، ومن مشاركتها في العمل الاجتماعي العام . . ويحسبها غلاة العلمانيين عقبات إسلامية تحول دون اكتمال أهلية المرأة ، فتجعل منها - من ثم - نصف

إنسان . . . ولذلك كانت دعوتهم إلى إسقاط الحل الإسلامى لتحرير المرأة، وإلى التماس هذا الحل فى النموذج الغربى لهذا التحرير . . .

فمع اختلاف وتناقض المنطلقات والانتماءات، اتفق أهل الغلو، الدينى واللادينى، على إثارة هذه الشبهات الخمس، التى يحسبها الإسلاميون منهم ديناً فيدافعون عنها . . . ويحسبها العلمانيون منهم ديناً، فيرفضون الإسلام بسببها! . . . ولذلك، كانت إزالة هذه الشبهات - فى هذا القسم من هذه الدراسة - جهاداً فكرياً على الجبهتين معاً . . . جبهة الغلو والتقليد والجمود الدينى . . . وجبهة الغلو والتقليد والجمود التغريبى اللادينى . . .

أما هذه الشبهات الخمس المثارة حول أهلية المرأة . . . ومشاركتها للرجل فى العمل الاجتماعى العام - فهى:

١- أن الإسلام يجعل ميراث الأنثى نصف ميراث الذكر ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِي﴾ [النساء: ١١].

وفى ذلك - كما يقول العلمانيون - انتقاص من أهلية المرأة، يجعلها نصف إنسان! . . .

٢- وأن الإسلام يجعل شهادة المرأة على النصف من شهادة الرجل ﴿فَإِنْ لَّمْ يَكُنَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾ [البقرة: ٢٨٢]. وفى ذلك انتقاص من أهليتها، يجعل منها نصف إنسان.

٣- وأن الإسلام- بنص الحديث النبوى الشريف - يجعل النساء ناقصات عقل ودين . . . وهو بذلك يقنن ويشرع انعدام أهلية المرأة، ويحول دون مساواتها بالرجال.

٤- وأن الإسلام يشرع لعزل المرأة عن المشاركة فى ولايات العمل العام، وذلك عندما يجعل ولايتها فيه وله المقدمة المفضية لعدم الفلاح «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة».

٥- كما أن المفهوم الشائع - لدى أهل الغلو الدينى واللادينى - عن «القوامة» - التى قررها الإسلام للرجال على النساء - قد جعل فريقى الغلو يجتمعون على أن هذه القوامة إنما تنتقص من كمال أهلية المرأة ومن مساواة النساء للرجال . . لأنها تجعل النساء أسيرات مقهورات عند القوامين عليهن من الرجال .

تلك هى الشبهات الخمس التى «عَشَّشْتُ وتُعَشِّشُ» فى عقول غلاة الإسلاميين - الذين جعلوا تقاليد مجتمعاتهم، الموروثة عن عصور التراجع الحضارى، ديناً يتدينون به!- والتى «عَشَّشْتُ وتُعَشِّشُ» فى العقل العلمانى، حتى لقد رفض، لذلك، سبيل الإسلام لتحرير المرأة، والتمس هذا النموذج الغربى اللادينى . . وهى الشبهات التى لا بد من محاكمتها بالمنطق الإسلامى، لكشف زيفها، وبراءة الإسلام من عوارها وعوراتها.

الشبهة الأولى: أن ميراث الأنثى نصف ميراث الذكر

صحيح وحق أن آيات الميراث، فى القرآن الكريم، قد جاء فيها قول الله، سبحانه وتعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ [النساء: ١١] . . لكن كثيرين من الذين يثيرون الشبهات حول أهلية المرأة فى الإسلام، متخذين من التمايز فى الميراث سبيلاً إلى ذلك، لا يفقهون أن توريث المرأة على النصف من الرجل ليس موقفاً عاماً ولا قاعدة مطردة فى توريث الإسلام لكل الذكور وكل الإناث . . فالقرآن الكريم لم يقل: يوصيكم الله فى الموارث والوارثين للذكر مثل حظ الأنثيين . . وإنما قال: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ . . أى أن هذا التمييز ليس قاعدة مطردة فى كل حالات الميراث، وإنما هو فى حالات خاصة، بل ومحدودة، من بين حالات الميراث . .

بل إن الفقه الحقيقى لفلسفة الإسلام فى الميراث تكشف عن أن التمايز فى أنصبة الوارثين والوارثات لا يرجع إلى معيار الذكورة والأنوثة.. وإنما لهذه الفلسفة الإسلامية فى التوريث حكم إلهية، ومقاصد ربانية قد خفيت عن الذين جعلوا التفاوت بين الذكور والإناث فى بعض مسائل الميراث وحالاته شبهة على كمال أهلية المرأة فى الإسلام.. ذلك أن التفاوت بين أنصبة الوارثين والوارثات - فى فلسفة الميراث الإسلامى - إنما تحكمه ثلاثة معايير:

أولها: درجة القرابة بين الوارث - ذكراً أو أنثى - وبين المورث - المتوفى - فكلما اقتربت الصلة زاد النصيب فى الميراث.. وكلما ابتعدت الصلة قل النصيب فى الميراث، دونما اعتبار لجنس الوارثين..

وثانيها: موقع الجيل الوارث من التتابع الزمنى للأجيال.. فالأجيال التى تستقبل الحياة، وتستعد لتحمل أعبائها، عادة يكون نصيبها فى الميراث أكبر من نصيب الأجيال التى تستدبر الحياة، وتتخفف من أعبائها، بل وتصبح أعباؤها - عادة - مفروضة على غيرها، وذلك بصرف النظر عن الذكورة والأنوثة للوارثين والوارثات.. فبنت المتوفى ترث أكثر من أمه - وكلتاها أنثى - بل وترث البنت أكثر من الأب! - حتى لو كانت رضيعة لم تدرك شكل أبيها.. وحتى لو كان الأب هو مصدر الثروة التى للابن، والتى تنفرد البنت بنصفها! -.. وكذلك يرث الابن أكثر من الأب - وكلاهما من الذكور! -..

وفى هذا المعيار من معايير فلسفة الميراث فى الإسلام حكم إلهية بالغة، ومقاصد ربانية سامية تخفى على الكثيرين!.. وهى معايير لا علاقة لها بالذكورة والأنوثة على الإطلاق..

وثالثها: العبء المالى الذى يوجب الشرع الإسلامى على الوارث تحمله والقيام به حيال الآخرين.. وهذا هو المعيار الوحيد الذى يثمر تفاوتاً بين الذكر والأنثى.. لكنه تفاوت لا يفضى إلى أى ظلم للأنثى، أو انتقاص من إنصافها.. بل ربما كان العكس هو الصحيح!..

ففى حالة ما إذا اتفق وتساوى الوارثون فى درجة القرابة.. وانفقوا وتساووا فى موقع الجيل الوارث من تتابع الأجيال - مثل أولاد المتوفى، ذكوراً وإناثاً - يكون تفاوت العبد المالى هو السبب فى التفاوت فى أنصبة الميراث.. ولذلك، لم يعمم القرآن الكريم هذا التفاوت بين الذكر والأنثى فى عموم الوارثين، وإنما حصره فى هذه الحالة بالذات، فقالت الآية القرآنية: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾.. ولم تقل: يوصيكم الله فى عموم الوارثين..

والحكمة فى هذا التفاوت، فى هذه الحالة بالذات، هى أن الذكر هنا مكلف بإعالة أنثى - هى زوجته - مع أولادها.. بينما الأنثى الوارثة - أخت الذكر - إعالتها، مع أولادها، فريضة على الذكر المقترن بها.. فهى - مع هذا النقص فى ميراثها - بالنسبة لأخيها، الذى ورث ضعف ميراثها، أكثر حظاً وامتيازاً منه فى الميراث.. فميراثها - مع إعفائها من الإنفاق الواجب - هو ذمة مالية خالصة ومدخرة، لجبر الاستضعاف الأنثوى، ولتأمين حياتها ضد المخاطر والتقلبات.. وتلك حكمة إلهية قد تخفى على الكثيرين..

وإذا كانت هذه هى الفلسفة الإسلامية فى تفاوت أنصبة الوارثين والوارثات - وهى التى يغفل عنها طرفا الغلو، الدينى واللادىنى، الذين يحسبون هذا التفاوت الجزئى شبهة تلحق بأهلية المرأة فى الإسلام - فإن استقراء حالات ومسائل الميراث - كما جاءت فى علم الفرائض (الموارث) - يكشف عن حقيقة قد تذهل الكثيرين عن أفكارهم المسبقة، والمغلوطة فى هذا الموضوع.. فهذا الاستقراء لحالات ومسائل الميراث، يقول لنا:

« ١ - إن هناك أربع حالات فقط ترث فيها المرأة نصف الرجل.

٢ - وهناك حالات أضعاف هذه الحالات الأربع ترث فيها المرأة مثل الرجل تماماً.

٣ - وهناك حالات عشر أو تزيد ترث فيها المرأة أكثر من الرجل.

٤ - وهناك حالات ترث فيها المرأة ولا يرث نظيرها من الرجال..

أى أن هناك أكثر من ثلاثين حالة تأخذ فيها المرأة مثل الرجل، أو أكثر منه، أو ترث هى ولا يرث نظيرها من الرجال، فى مقابلة أربع حالات محددة ترث فيها المرأة نصف الرجل..!!^(٢)

وفى دراسة «إحصائية - استقرائية» لحالات الميراث - فى الفقه الإسلامى - خلص العالم السودانى الشيخ عبد الجليل ندى الكارورى، إلى أن الأنثى ترث نصف الذكر فى حالات تمثل ١٣,٣٣٪ من حالات الميراث، بينما ترث الأنثى مثل الذكر أو أكثر من الذكر فى حالات تبلغ ٨٦,٦٧٪ من حالات الميراث.. . أى أن المرأة متميزة عن الرجل فيما يقرب من ٩٠٪ من حالات الميراث!.. . وذلك فضلاً عن أن إرث الرجل غالباً ما يكون بالتعصيب، أى أنه ينتظر ما يفضل من بقية الورثة.. . أما إرث المرأة فهو غالباً محدد بالفرض الشرعى^(٣).. .

تلك هى ثمرات استقراء حالات ومسائل الميراث - فى علم الفرائض (المواريث) - التى حكمتها المعايير الإسلامية التى حددتها فلسفة الإسلام فى التوريث.. . والتى لم تقف عند معيار الذكورة والأنوثة، كما يحسب الكثيرون الذين لا يعلمون!.. .

وبذلك نرى سقوط الشبهة الأولى من الشبهات الخمس المثارة حول أهلية المرأة، كما قررها الإسلام.

الشبهة الثانية: أن شهادة المرأة نصف شهادة الرجل

أما الشبهة الثانية - والزائفة - التى تثار حول موقف الإسلام من شهادة المرأة.. . والتى يقول مثيروها: إن الإسلام قد جعل المرأة نصف إنسان، وذلك

عندما جعل شهادتها نصف شهادة الرجل، مستدلين على ذلك بآية سورة البقرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَخَسَّ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢]..

ومصدر الشبهة التي حسب مثيروها أن الإسلام قد انتقص من أهلية المرأة، بجعل شهادتها على النصف من شهادة الرجل ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾ هو الخلط بين «الشهادة» وبين «الإشهاد» - الذي تحدث عنه هذه الآية الكريمة.. فالشهادة، التي يعتمد عليها القضاء في اكتشاف العدل المؤسس على البينة، واستخلاصه من ثنايا دعاوى الخصوم، لا تتخذ من الذكورة أو الأنوثة معياراً لصدقها أو كذبها، ومن ثم قبولها أو رفضها.. وإنما معيارها تحقق اطمئنان القاضي لصدق الشهادة، بصرف النظر عن جنس الشاهد، ذكراً كان أو أنثى، وبصرف النظر عن عدد الشهود.. فللقاضي، إذا اطمأن ضميره إلى ظهور البينة أن يعتمد شهادة رجلين، أو امرأتين، أو رجل وامرأة، أو رجل وامرأتين، أو امرأة ورجلين، أو رجل واحد، أو امرأة واحدة.. ولا أثر للذكورة أو الأنوثة في الشهادة التي يحكم القضاء بناء على ما تقدمه له من البينات..

أما آية سورة البقرة، التى قالت: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾.. فإنها تتحدث عن أمر آخر غير «الشهادة» أمام القضاء.. تتحدث عن «الإشهاد»، الذى يقوم به صاحب الدين، للاستيثاق من الحفاظ على دينه، وليس عن «الشهادة» التى يعتمد عليها القاضى فى حكمه بين المتنازعين.. فهى - الآية - موجهة لصاحب الحق - الدين - وليس إلى القاضى الحاكم فى النزاع.. بل إن هذه الآية لا تتوجه إلى كل صاحب حق - دين - ولا تشترط ما اشترطت من مستويات الإشهاد وعدد الشهود فى كل حالات الدين.. وإنما توجهت بالنصح والإرشاد - فقط النصح والإرشاد - إلى دائن خاص، وفى حالات خاصة من الديون، لها ملابسات خاصة نصت عليها الآية.. فهو دين إلى أجل مسمى.. ولا بد من كتابته.. ولا بد من عدالة الكاتب.. ويحرم امتناع الكاتب عن الكتابة.. ولا بد من إملاء الذى عليه الحق.. وإن لم يستطع فليملل وليه بالعدل.. والإشهاد لا بد أن يكون من رجلين من المؤمنين.. أو رجل وامرأتين من المؤمنين.. وأن يكون الشهود ممن ترضى عنهم الجماعة.. ولا يصح امتناع الشهود عن الشهادة.. وليست هذه الشروط بمطلوبة فى التجارة الحاضرة.. ولا فى المبيعات..

ثم إن الآية ترى فى هذا المستوى من الإشهاد الوضع الأقسط والأقوم.. وذلك لا ينفى المستوى الأدنى من القسط..

ولقد فقه هذه الحقيقة - حقيقة أن هذه الآية إنما تتحدث عن «الإشهاد» فى دين خاص، وليس عن «الشهادة».. وأنها نصيحة وإرشاد لصاحب الدين - ذى المواصفات والملابسات الخاصة - وليست تشريعاً موجهاً إلى القاضى - الحاكم - فى المنازعات.. فقه ذلك العلماء المجتهدون..

ومن هؤلاء العلماء الفقهاء الذين فقهوا هذه الحقيقة، وفصلوا القول فيها، شيخ الإسلام ابن تيمية [٦٦١ - ٧٢٨ هـ - ١٢٦٣ - ١٣٢٨ م] وتلميذه العلامة

ابن القيم [٦٩١ - ٧٥١ هـ - ١٢٩٢ - ١٣٥٠ م] - من القدماء - والأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٥ - ١٣٢٣ هـ - ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م] والإمام الشيخ محمود شلتوت [١٣١٠ - ١٣٨٣ هـ - ١٨٩٣ - ١٩٦٣ م] - من المحدثين والمعاصرين - فقال ابن تيمية - فيما يرويه عنه ويؤكد عليه ابن القيم - :

قال - عن «البينة» التى يحكم القاضى بناء عليها . . . والتى وضع قاعدتها الشرعية والفقهية حديث رسول الله ﷺ : «البينة على المدعى، واليمين على المدعى عليه» - رواه البخارى والترمذى وابن ماجه - :

«إن البينة، فى الشرع، اسم لما يبين الحق ويظهره، وهى تارة تكون أربعة شهود، وتارة ثلاثة، بالنص فى بينة المفسس، وتارة شاهدين، وشاهد واحد، وامرأة واحدة، وتكون نُكُولاً^(٤)، ويميناً، أو خمسين يميناً، أو أربعة أيمان، وتكون شاهد الحال. فقوله ﷺ: «البينة على المدعى»، أى عليه أن يظهر ما يبين صحة دعواه، فإذا ظهر صدقه بطريق من الطرق حُكِمَ له..»^(٥).

فكما تقوم البينة بشهادة الرجل الواحد أو أكثر، تقوم بشهادة المرأة الواحدة، أو أكثر، وفق معيار البينة التى يطمئن إليها ضمير الحاكم - القاضى - . . .

* ولقد فصل ابن تيمية القول فى التمييز بين طرق حفظ الحقوق، التى أرشدت إليها ونصحت بها آية الإِشهاد - الآية ٢٨٢ من سورة البقرة - وهى الموجهة إلى صاحب «الحق - الدين» - وبين طرق البينة، التى يحكم الحاكم - القاضى - بناء عليها . . . وأورد ابن القيم تفصيل ابن تيمية هذا تحت عنوان [الطرق التى يحفظ بها الإنسان حقه] . . . فقال :

«إن القرآن لم يذكر الشاهدين، والرجل والمرأتين فى طرق الحكم التى يحكم بها الحاكم، وإنما ذكر النوعين من البينات فى الطرق التى يحفظ بها الإنسان حقه، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ

كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ ﴿البقرة: ٢٨٢﴾ - فأمّهم، سبحانه، بحفظ حقوقهم بالكتاب^(٦)، وأمر من عليه الحق أن يملى الكاتب، فإن لم يكن ممن يصح إملاؤه أملى عنه وليه، ثم أمر من له الحق أن يشهد على حقه رجلين، فإن لم يجد فرجل وامرأتان، ثم نهى الشهود المتحملين للشهادة عن التخلف عن إقامتها إذا طلبوا لذلك، ثم رخص لهم في التجارة الحاضرة ألا يكتبوها، ثم أمرهم بالإشهاد عند التبائع، ثم أمرهم إذا كانوا على سفر، ولم يجدوا كاتبًا، أن يستوثقوا بالرهان المقبوضة.

كل هذا نصيحة لهم، وتعليم وإرشاد لما يحفظون به حقوقهم، وما تحفظ به الحقوق شيء، وما يحكم به الحاكم - [القاضي] - شيء، فإن طرق الحكم أوسع من الشاهدين والمرأتين، فإن الحاكم يحكم بالنكول، واليمين المردودة - ولا ذكر لهما في القرآن - وأيضًا، فإن الحاكم يحكم بالقرعة - بكتاب الله وسنة رسوله الصريحة الصحيحة - ويحكم بالقافة^(٧) - بالسنة الصريحة الصحيحة، التي لا معارض لها - ويحكم بالقسامة^(٨) - بالسنة الصحيحة الصريحة - ويحكم بشاهد الحال إذا تداعا الزوجان أو الصانعان متاع البيت والدكان، ويحكم، عند من أنكر الحكم، بالشاهد واليمين، بوجود الآجر في الحائط، فيجعله للمدعى إذا كان جهته - وهذا كله ليس في القرآن، ولا حكم به رسول الله ﷺ ولا أحد من أصحابه..

فإن قيل: فظاهر القرآن يدل على أن الشاهد والمرأتين بدل عن الشاهدين، وأنه لا يُقضى بهما إلا عند عدم الشاهدين.

قيل: القرآن لا يدل على ذلك، فإن هذا أمر لأصحاب الحقوق بما يحفظون به حقوقهم، فهو سبحانه أرشدهم إلى أقوى الطرق، فإن لم يقدروا على أقواها انتقلوا

إلى ما دونها.. وهو، سبحانه، لم يذكر ما يحكم به الحاكم، وإنما أُرشدنا إلى ما يُحفظ به الحق، وطرق الحكم أوسع من الطرق التى تُحفظ بها الحقوق..»^(٩).

وبعد إيراد ابن القيم لهذه النصوص - نقلاً عن شيخه وشيخ الإسلام ابن تيمية - علق عليها، مؤكداً إياها، فقال:

«قلت - [أى ابن القيم] -: وليس فى القرآن ما يقتضى أنه لا يُحكَم إلا بشاهدين، أو شاهد وامرأتين، فإن الله، سبحانه، إنما أمر بذلك أصحاب الحقوق أن يحفظوا حقوقهم بهذا النّصاب، ولم يأمر بذلك الحكام أن يحكموا به، فضلاً عن أن يكون قد أمرهم ألا يقضوا إلا بذلك. ولهذا يحكم الحاكم بالنكول، واليمين المردودة، والمرأة الواحدة، والنساء المنفردات لا رجل معهن، وبمعاقد القمط^(١٠)، ووجوه الآجر، وغير ذلك من طرق الحكم التى لم تُذكر فى القرآن.. فطرق الحكم شىء، وطرق حفظ الحقوق شىء آخر، وليس بينهما تلازم، فتُحفظ الحقوق بما لا يحكم به الحاكم مما يعلم صاحب الحق أنه يحفظ به حقه، ويحكم الحاكم بما لا يحفظ به صاحب الحق حقه، ولا خطر على باله..»^(١١).

فطرق الإشهاد، فى آية سورة البقرة - التى تجعل شهادة المرأتين تعدل شهادة رجل واحد - هى نصيحة وإرشاد لصاحب الدّين - ذى الطبيعة الخاصة - . وليست التشريع الموجه إلى الحاكم - القاضى - والجامع لطرق الشهادات والبيّنات. . إنها خاصة بدّين، له مواصفاته وملابساته، وليست التشريع العام فى البيّنات التى تُظهر العدل فيحكم به القضاة. .

* وبعد هذا الضبط والتمييز والتحديد. . أخذ ابن تيمية يعدد حالات البيّنات، والشهادات التى يجوز للقاضى - الحاكم - الحكم بناء عليها. . فقال:

«إنه يجوز للحاكم - [القاضى] - الحكم بشهادة الرجل الواحد إذا عرف صدقه، فى غير الحدود، ولم يوجب الله على الحكام ألا يحكموا إلا بشاهدين أصلاً، وإنما

أمر صاحب الحق أن يحفظ حقه بشاهدين، أو بشاهد وامرأتين، وهذا لا يدل على أن الحاكم لا يحكم بأقل من ذلك، بل قد حكم رسول الله ﷺ بالشاهد واليمين، وبالشاهد فقط، وليس ذلك مخالفاً لكتاب الله عند من فهمه، ولا بين حكم الله وحكم رسوله خلاف.. وقد قبل النبي شهادة الأعرابي وحده على رؤية هلال رمضان، وتسمية بعض الفقهاء ذلك إخباراً، لا شهادة، أمر لفظي لا يقدر في الاستدلال، ولفظ الحديث يردّ قوله. وأجاز ﷺ شهادة الشاهد الواحد في قضية السِّلْب^(١٢)، ولم يُطالب القاتل بشاهد آخر، ولا استحلّه، وهذه القصة - [وروايتها في الصحيحين] - صريحة في ذلك.. وقد صرح الأصحاب: أنه تُقبل شهادة الرجل الواحد من غير يمين عند الحاجة، وهو الذي نقله الخرقي [٣٣٤ هـ - ٩٤٥ م] في مختصره، فقال: وتُقبلُ شهادة الطبيب العدل في الموضحة^(١٣) إذا لم يقدر على طبيبين، وكذلك البيطار في داء الدابة..»^(١٤).

* وكما تجوز شهادة الرجل الواحد - في غير الحدود - .. وكما تجوز شهادة الرجال وحدهم، في الحدود، تجوز - عند البعض - شهادة النساء وحدهن في الحدود.. وعن ذلك يقول ابن تيمية، فيما نقله عنه ابن القيم:

«وقد قبل النبي ﷺ شهادة المرأة الواحدة في الرضاع، وقد شهدت على فعل نفسها، ففي الصحيحين عن عقبة بن الحارث: «أنه تزوج أم يحيى بنت أبي إهاب، فجاءت أمةً سوداء، فقالت: قد أرضعتكما. فذكرتُ ذلك للنبي ﷺ فأعرض عني، قال: فتنحيتُ فذكرتُ ذلك له، قال: فكيف؟، قد زعمتُ أن قد أرضعتكما!». -

وقد نص أحمد على ذلك في رواية بكر بن محمد عن أبيه، قال: في المرأة تشهد على ما لا يحضره الرجال من إثبات استهلال الصبي^(١٥)، وفي الحمّام يدخله النساء، فتكون بينهن جراحات.

وقال إسحاق بن منصور: قلتُ لأحمد، في شهادة الاستدلال: تجوز شهادة امرأة واحدة في الحيض والعدة والسقط والحمّام، وكل ما لا يطلع عليه إلا النساء؟

فقال: تجوز شهادة امرأة إذا كانت ثقة، ويجوز القضاء بشهادة النساء منفردات في غير الحدود والقصاص عند جماعة من الخلف والسلف. وعن عطاء [٢٧ - ١١٤ هـ - ٦٤٧ - ٧٣٢ م] أنه أجاز شهادة النساء في النكاح. وعن شريح [٧٨ هـ - ٦٩٧ م] أنه أجاز شهادة النساء في الطلاق. وقال بعض الناس: تجوز شهادة النساء في الحدود. وقال مهنا: قال لى أحمد بن حنبل: قال أبو حنيفة: تجوز شهادة القابلة وحدها، وإن كانت يهودية أو نصرانية..» (١٦).

ذلك أن العبرة هنا - في الشهادة - إنما هي الخبرة والعدالة، وليست العبرة بجنس الشاهد - ذكراً كان أو أنثى - ففي مهن مثل الطب.. . والبيطرة.. . والترجمة أمام القاضي.. . تكون العبرة «بمعرفة أهل الخبرة» (١٧).

* بل لقد ذكر ابن تيمية - في حديثه عن الإشهاد الذى تحدثت عنه آية سورة البقرة - أن نسيان المرأة، ومن ثم حاجتها إلى أخرى تذكرها ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ ليس طبعاً ولا جبلة في كل النساء، وليس حتماً في كل أنواع الشهادات.. . وإنما هو أمر له علاقة بالخبرة والمران، أى أنه مما يلحقه التطور والتغيير.. . وحكى ذلك عنه ابن القيم فقال:

«قال شيخنا ابن تيمية، رحمه الله تعالى: قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ فيه دليل على أن استشهاد امرأتين مكان رجل واحد إنما هو لإذكار إحداهما الأخرى إذا ضلت، وهذا إنما يكون فيما فيه الضلال في العادة، وهو النسيان وعدم الضبط.. . فما كان من الشهادات لا يُخَافُ فيه الضلال في العادة لم تكن فيه على نصف الرجل..» (١٨).

فحتى في الإشهاد، يجوز لصاحب الدين أن يحفظ دينه - وفق نصيحة وإرشاد آية سورة البقرة - بإشهاد رجل وامرأة، أو امرأتين، وذلك عند توافر

الخبرة للمرأة فى موضوع الإشهاد.. فهى - فى هذا الإشهاد - ليست شهادتها دائماً على النصف من شهادة الرجل..

ولقد كرر ابن القيم - وأكد - هذا الذى أشرنا إلى طرف منه، فى غير كتابه [الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية]، فقال، فى كتابه [إعلام الموقعين عن رب العالمين] - أثناء حديثه عن «البينة»، وحديث رسول الله ﷺ: «البينة على المدعى واليمين على من أنكر» - خلال شرحه لخطاب عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى [٢١ ق هـ - ٤٤ هـ - ٦٠٢ - ٦٦٥ م] فى قواعد القضاء وآدابه - قال:

«إن البينة فى كلام الله ورسوله، وكلام الصحابة اسم لكل ما يبين الحق.. ولم يختص لفظ البينة بالشاهدين.. وقال الله فى آية الدين: ﴿وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾ فهذا فى التحمل والوثيقة التى يحفظ بها صاحب المال حقه، لا فى طرق الحكم وما يحكم به الحاكم، فإن هذا شئ وهذا شئ، فذكر سبحانه ما يحفظ به الحقوق من الشهود، ولم يذكر أن الحكام لا يحكمون إلا بذلك.. فإن طرق الحكم أعم من طرق حفظ الحقوق.. وقال سبحانه: ﴿مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ لأن صاحب الحق هو الذى يحفظ ماله بمن يرضاه..»

وعلى ابن تيمية حكمة كون شهادة المراتين - فى هذه الحالة - تعدلان شهادة الرجل الواحد، بأن المرأة ليست مما يتحمل عادة مجالس وأنواع هذه المعاملات.. لكن إذا تطورت خبراتها وممارساتها وعاداتها، كانت شهادتها - حتى فى الإشهاد على حفظ الحقوق والديون - مساوية لشهادة الرجل.. فقال:

«ولا ريب أن هذه الحكمة فى التعدد هى فى التحمل، فأما إذا عقلت المرأة - [أى ضبطت] - وحفظت وكانت ممن يوثق بدينها فإن المقصود حاصل بخبرها كما

حصل بأخبار الديانات، ولهذا تُقبل شهادتها وحدها فى مواضع، ويُحكم بشهادة امرأتين ويمين الطالب فى أصح القولين، وهو قول مالك [٩٣ - ١٧٩ هـ - ٧١٢ - ٧٩٥ م] وأحد الوجهين فى مذهب أحمد..

والمقصود أن الشارع لم يَقِف الحكم فى حفظ الحقوق البتة على شهادة ذكرين، لا فى الدماء ولا فى الأموال ولا فى الفروج ولا فى الحدود.. وسر المسألة ألا يلزم من الأمر بالتعدد فى جانب التحمل وحفظ الحقوق الأمر بالتعدد فى جانب الحكم والثبوت، فالخبر الصادق لا تأتى الشريعة برده أبداً» (١٩).

« وهذا الذى قاله ابن تيمية وابن القيم - فى حديثهما عن آية سورة البقرة - هو الذى ذكره الإمام محمد عبده، عندما أرجع تميز شهادة الرجال على هذا الحق - الذى تحدثت عنه الآية - على شهادة النساء، إلى كون النساء - فى ذلك التاريخ - كن بعيديات عن حضور مجالس التجارات، ومن ثم بعيديات عن تحصيل التحمل والخبرات فى هذه الميادين.. وهو واقع تاريخى خاضع للتطور والتغيير، وليس طبيعة ولا جبلة فى جنس النساء على مر العصور.. ولو عاش الإمام محمد عبده إلى زمننا هذا، الذى زخر ويزخر بالمتخصصات فى المحاسبة، والاقتصاد، وإدارة الأعمال، وب «سيدات الأعمال» اللائى ينافسن «رجال الأعمال»، لأفاض وتوسع فيما قال، ومع ذلك، فحسبه أنه قد تحدث - قبل أكثر من قرن من الزمان - فى تفسيره لآية سورة البقرة هذه، رافضاً أن يكون نسيان المرأة جبلة فيها وعاماً فى كل موضوعات الشهادات، فقال:

«تكلم المفسرون فى هذا، وجعلوا سببه المزاج، فقالوا إن مزاج المرأة يعتره البرد فيتبعه النسيان، وهذا غير متحقق، والسبب الصحيح أن المرأة ليس من شأنها الاشتغال بالمعاملات المالية ونحوها من المعاوزات، فلذلك تكون ذاكرتها ضعيفة، ولا تكون كذلك فى الأمور المنزلية التى هى شغلها، فإنها أقوى ذاكرة من الرجل،

يعنى أن من طبع البشر، ذكراً وإناثاً، أن يقوى تذكرهم للأمور التى تهمهم ويكثر اشتغالهم بها» (٢٠).

ولقد سار الشيخ محمود شلتوت - الذى استوعب اجتهادات ابن تيمية وابن القيم ومحمد عبده - على هذا الطريق، مضيئاً إلى هذه الاجتهادات ملمحاً آخر عندما لفت النظر إلى تساوى شهادة المرأة بشهادة الرجل فى «اللعان» . فكتب يقول - عن شهادة المرأة، وكيف أنها دليل على كمال أهليتها، وذلك على العكس من الفكر المغلوط الذى يحسب موقف الإسلام من هذه القضية انتقاصاً من إنسانيتها . كتب يقول:

«إن قول الله، سبحانه وتعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾ ليس وارداً فى مقام الشهادة التى يقضى بها القاضى ويحكم، وإنما هو فى مقام الإرشاد إلى طرق الاستيثاق والاطمئنان على الحقوق بين المتعاملين وقت التعامل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾ إلى أن قال: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ [البقرة: ٢٨٢].. فالمقام مقام استيثاق على الحقوق، لا مقام قضاء بها. والآية ترشد إلى أفضل أنواع الاستيثاق الذى تطمئن به نفوس المتعاملين على حقوقهما.

وليس معنى هذا أن شهادة المرأة الواحدة، أو شهادة النساء اللاتى ليس معهن رجل، لا يثبت بها الحق، ولا يحكم بها القاضى، فإن أقصى ما يطلبه القضاء هو «البينة».

وقد حقق العلامة ابن القيم أن البينة فى الشرع أعم من الشهادة، وأن كل ما يتبين به الحق ويظهره، هو بينة يقضى بها القاضى ويحكم. ومن ذلك: يحكم القاضى بالقرائن القطعية، ويحكم بشهادة غير المسلم متى وثق بها واطمأن إليها.

واعتبار المرأتين فى الاستيثاق كالرجل الواحد ليس لضعف عقلها، الذى يتبع نقص إنسانيتها ويكون أثراً له، وإنما هو لأن المرأة - كما قال الشيخ عبده - «ليس من شأنها الاشتغال بالمعاملات المالية ونحوها من المعاولات، ومن هنا تكون ذاكرتها فيها ضعيفة، ولا تكون كذلك فى الأمور المنزلية التى هى شغلها، فإنها فيها أقوى ذاكرة من الرجل، ومن طبع البشر عامة أن يقوى تذكرهم للأمور التى تهمهم ويمارسونها، ويكثر اشتغالهم بها.

والآية جاءت على ما كان مألوقاً فى شأن المرأة، ولا يزال أكثر النساء كذلك، لا يشهدن مجالس المداينات ولا يشتغلن بأسواق المبيعات، واشتغال بعضهن بذلك لا ينافى هذا الأصل الذى تقضى به طبيعتها فى الحياة».

وإذا كانت الآية ترشد إلى أكمل وجوه الاستيثاق، وكان المتعاملون فى بيئة يغلب فيها اشتغال النساء بالمبيعات وحضور مجالس المداينات، كان لهم الحق فى الاستيثاق بالمرأة على نحو الاستيثاق بالرجل متى اطمأنوا إلى تذكرها وعدم نسيانها على نحو تذكر الرجل وعدم نسيانه.

هذا وقد نص الفقهاء على أن من القضايا ما تقبل فيه شهادة المرأة وحدها، وهى القضايا التى لم تجر العادة باطلاع الرجال على موضوعاتها، كالولادة والبكارة، وعيوب النساء والقضايا الباطنية. وعلى أن منها ما تقبل فيه شهادة الرجل وحده، وهى القضايا التى تثير موضوعاتها عاطفة المرأة ولا تقوى على تحملها، على أنهم قد رأوا قبول شهادتها فى الدماء إذا تعينت طريقاً لثبوت الحق واطمئنان القاضى إليها. وعلى أن منها ما تقبل شهادتهما معاً.

وما لنا نذهب بعيداً، وقد نص القرآن على أن المرأة كالرجل - سواء بسواء - فى شهادات اللعان، وهو ما شرعه القرآن بين الزوجين حينما يقذف الرجل زوجته وليس له على ما يقول شهود ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ

فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٦) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٧) وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (٨) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿[النور: ٦-٩]..

أربع شهادات من الرجل، يعقبها استمطار لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين، ويقابلها ويبطل عملها، أربع شهادات من المرأة، يعقبها استمطار غضب الله عليها إن كان من الصادقين.. فهذه عدالة الإسلام في توزيع الحقوق العامة بين الرجل والمرأة، وهى عدالة تحقق أنهما فى الإنسانية سواء..» (٢١).

هكذا وضحت صفحة الإسلام.. وصفحات الاجتهاد الإسلامى فى قضية مساواة شهادة المرأة وشهادة الرجل، طالما امتلك الشاهد أو الشاهدة مقومات ومؤهلات وخبرة هذه الشهادة.. لأن الأهلية الإنسانية بالنسبة لكل منهما واحدة، ونابعة من وحدة الخلق، والمساواة فى التكاليف، والتناصر فى المشاركة بحمل الأمانة التى حملها الإنسان، أمانة استعمار وعمران هذه الحياة.

* وأخيراً - وليس آخراً - فإن ابن القيم يستدل بالآية القرآنية ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] على أن المرأة كالرجل فى هذه الشهادة على بلاغ الشريعة ورواية السنة النبوية.. فالمرأة كالرجل فى «رواية الحديث، التى هى شهادة على رسول الله ﷺ»..

وإذا كان ذلك مما أجمعت عليه الأمة، ومارسته راويات الحديث النبوى جيلاً بعد جيل - والرواية شهادة - «فكيف تقبل الشهادة - من المرأة - على رسول الله ﷺ ولا تقبل على واحد من الناس؟.. إن المرأة العدل - [بنص عبارة ابن القيم] - كالرجل فى الصدق والأمانة والديانة» (٢٢).

ذلكم هو منطق شريعة الإسلام - وكلها منطق - وهذا هو عدلها بين النساء والرجال - وكلها عدل - وكما يقول ابن القيم:

«وما أثبت الله ورسوله قط حكماً من الأحكام يُقطع ببطلان سببه حساً أو عقلاً، فحاشا أحكامه سبحانه من ذلك، فإنه لا أحسن حكماً منه، سبحانه وتعالى، ولا أعدل. ولا يحكم حكماً يقول العقل: ليته حكم بخلافه، بل أحكامه كلها مما يشهد العقل والفطر بحسنها، ووقوعها على أتم الوجوه وأحسنها، وأنه لا يصلح فى موضعها سواها» (٢٣).

هذا. . . ولقد تعمدنا - فى إزالة هذه الشبهة - أمرين:

أولهما: أن ندع نصوص أئمة الاجتهاد الإسلامى هى التى تبدد غيوم هذه الشبهة، لا نصوصنا نحن. . . وذلك حتى لا ندع سبيلاً لشبهات جديدة فى هذا الموضوع!

وثانيهما: أن تكون هذه النصوص للأئمة المبرزين فى إطار السلف والسلفيين. . . وذلك حتى نقطع الطريق على أدعياء السلفية الذين حملوا العادات الراكدة لمجتمعاتهم على دين الإسلام، فاستبدلوا هذه العادات بشريعة الإسلام! . . . وحتى نقطع الطريق - كذلك - على غلاة العلمانيين والعلمانيات، الذين استبدلوا البدع الفكرية الوافدة بحقائق الإسلام وحقيقته، والذين يتحسسون مسدساتهم إذا ذكرت مصطلحات السلفية والسلفيين! . . .

فإنصاف المرأة، وكمال واكتمال أهليتها هو موقف الإسلام، الذى نزل به الروح الأمين على قلب الصادق الأمين. . . وهو موقف كل تيارات الاجتهاد الإسلامى، على امتداد تاريخ الإسلام.

الشبهة الثالثة: أن النساء ناقصات عقل ودين

المصدر الحقيقى لهذه الشبهة هو العادات والتقاليد الموروثة، والتي تنظر إلى المرأة نظرة دونية.. وهى عادات وتقاليد جاهلية، حرر الإسلام المرأة منها.. لكنها عادت إلى الحياة الاجتماعية، فى عصور التراجع الحضارى، مستندة - كذلك - إلى رصيد التمييز ضد المرأة الذى كانت عليه مجتمعات غير إسلامية، دخلت فى إطار الأمة الإسلامية والدولة الإسلامية، دون أن تتخلص تمامًا من هذه المواريث.. فسرعة الفتوحات الإسلامية - التى اقتضتها معالجة القوى العظمى المناوئة للإسلام - قوى الفرس والروم - وما تبعها من سرعة امتداد الدولة الإسلامية، قد أدخلت فى الحياة الإسلامية شعوبًا وعادات وتقاليد لم تتح هذه السرعة للتربية الإسلامية وقيمها أن تخلص تلك الشعوب من تلك العادات والتقاليد، والتى تكون - عادة - أشد رسوخًا وحاكمية من القيم الجديدة.. حتى لتغالب فيه هذه العادات الموروثة العقائد والأنساق الفكرية، والمثل السامية للأديان والدعوات الجديدة والوليدة، محاولة التغلب عليها!..

ولقد حاولت هذه العادات والتقاليد - بعد أن ترسخت وطال عليها الأمد، فى ظل عسكرة الدولة الإسلامية - فى العهدين المملوكى والعثمانى - أن تجد لنظرتها الدونية للمرأة «غطاء شرعيًا» فى التفسيرات المغلوطة لبعض الأحاديث النبوية، وذلك بعد عزل هذه الأحاديث عن سياقها، وتجريدها من ملابسات ورودها، وفصلها عن المنطق الإسلامى - منطق تحرير المرأة، كجزء من تحريره للإنسان، ذكرًا كان أو أنثى هذا الإنسان.. فلقد جاء الإسلام ليضع عن الناس إصرهم والأغلال التى كانت عليهم، وليحى ملكات وطاقات الإنسان - مطلق جنس ونوع الإنسان - وليشرك الإناث والذكور جميعًا فى حمل الأمانة التى حملها الإنسان، وليكون بعضهم أولياء بعض فى النهوض بالفرائض الاجتماعية، الشاملة لكل ألوان العمل الاجتماعى والعام..

لكن العادات والتقاليد الجاهلية - فى احتقار المرأة، والانتقاص من أهليتها، وعزلها عن العمل العام، وتعطيل ملكاتها وطاقاتها الفطرية - قد دخلت فى حرب ضروس ضد القيم الإسلامية لتحرير المرأة.. وسعت إلى التفسيرات الشاذة والمغلوطة لبعض الأحاديث النبوية والمأثورات الإسلامية كي تكون «غطاء شرعياً» لهذه العادات والتقاليد..

فبعد أن بلغ التحرير الإسلامى للمرأة إلى حيث أصبحت به وفيه:

* طليعة الإيمان بالإسلام.. والطاقة الخلاقة الداعمة للدين ورسوله ﷺ
كما كان حال أم المؤمنين خديجة بنت خويلد [٦٨ - ٣ ق هـ ٥٥٦ - ٦٢٠ م]
رضى الله عنها.. حتى لقد كان عام وفاتها عام حزن المسلمين ورسول الإسلام ودعوة الإسلام..

* وطلیعة شهداء الإسلام.. كما جسدتها شهادة سمية بنت خباط [٧ ق هـ ٦١٥ م] - أم عمار بن ياسر [٥٧ ق هـ - ٣٧ هـ ٥٦٧ - ٦٥٧ م].

* وطلیعة المشاركة فى العمل العام - السياسى منه، والشورى، والفقهى، والدعوى، والأدبى، والاجتماعى.. بل والقتالى - كما تجسدت فى كوكبة النخبة والصفوة النسائية التى تربت فى مدرسة النبوة..

بعد أن بلغ التحرير الإسلامى للمرأة هذه الآفاق.. أعادت العادات والتقاليد المرأة - أو حاولت إعادتها - إلى أسر وأغلال منظومة من القيم الغريبة عن الروح الإسلامية.. حتى أصبحت المفاخرة والمباهاة بأعراف ترى:

* أن المرأة الكريمة لا يليق بها أن تخرج من مخدعها إلا مرتين: أولاهما: إلى مخدع الزوجية.. وثانيتها: إلى القبر الذى تُدفن فيه!..

* فهى عورة، لا يسترها إلا «القبر»!

ولم أر نعمة شملت كريماً كنعمة عورة سُترت بقبراً

وإذا كان الإسلام قد حفظ حياتها من الوأد - المادى: القتل - .. فإن المجد والمكرّمات - فى تلك العادات - هى فى موتها!

ومن غاية المجد والمكرمات بقاء البنين وموت البنات!
تهوى حياتي وأهوى موتها شفقاً والموت أكرم نزال على الحرم!
* وشوراها شؤم يجب اجتنابها. . وإذا حدثت فلمخالفتها، وللحذر من
الأخذ بها!

والأكثر خطورة من هذه الأعراف والعادات والتقاليد، التي سادت أوساطاً ملحوظة ومؤثرة في حياتنا الاجتماعية، إبان مرحلة التراجع الحضارى، هي التفسيرات المغلوطة لبعض المرويات الإسلامية، بحثاً عن مرجعية إسلامية وغطاء شرعى لقيم التخلف والانحطاط التي سادت عالم المرأة فى ذلك التاريخ. . ولقد كان الحظ الأوفر فى هذا المقام للتفسير الخاطئ الذى ساد وانتشر لحديث رسول الله ﷺ - الذى رواه البخارى ومسلم - عن نقص النساء فى العقل والدين. . وهو حديث رواه الصحابى الجليل أبو سعيد الخدرى، رضى الله عنه، فقال: «خرج رسول الله ﷺ - فى أضحى أو فطر - إلى المصلى، فمرّ على النساء، فقال:

- «يا معشر النساء، ما رأيتم من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن».

- قلن: وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله؟

- قال: «أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل؟».

- قلن: بلى.

- قال: «فذلك من نقصان عقلها. أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم؟».

- قلن: بلى.

- قال: «فذلك من نقصان دينها».

ذلكم هو الحديث الذى اتُخذَ تفسيره المغلوط - ولا يزال - «غطاء شرعياً»

للعادات والتقاليد التي تنتقص من أهلية المرأة.. والذي ينطلق منه نفر من غلاة الإسلاميين في «جهادهم» ضد إنصاف المرأة وتحريرها من أغلال التقاليد الراكدة.. وينطلق منه المتغربون وغلاة العلمانيين في دعوتهم إلى إسقاط الإسلام من حسابات تحرير المرأة، وطلب هذا التحرير في النماذج الغربية الوافدة..

الأمر الذي يستوجب إنقاذ المرأة من هذه التفسيرات المغلوطة لهذا الحديث.. بل وإنقاذ هذا الحديث الشريف من هذه التفسيرات!..

وذلك من خلال نظرات في «متن» الحديث و«مضمونه» نكتفها في عدد من النقاط:

أولها: أن الذاكرة الضابطة لنص هذا الحديث قد أصابها ما يطرح بعض علامات الاستفهام.. ففي رواية الحديث شك - من الراوى - حول مناسبة قوله.. هل كان ذلك في عيد الأضحى؟ أم في عيد الفطر؟.. وهو شك لا يمكن إغفاله عند وزن المرويات والمأثورات.

وثانيها: أن الحديث يخاطب حالة خاصة من النساء، ولا يشرع شريعة دائمة ولا عامة في مطلق النساء.. فهو يتحدث عن «واقع».. والحديث عن «الواقع» - القابل للتغير والتطور - شيء، والتشريع «للثوابت» - عبادات وقيماً ومعاملات - شيء آخر..

فعندما يقول الرسول ﷺ: «إنا أمة أمية، لا نكتب ولا نحسب» - رواه البخاري ومسلم والنسائي وأبو داود والإمام أحمد - فهو يصف «واقعاً»، ولا يشرع لتأييد الجهل بالكتابة والحساب؛ لأن القرآن الكريم قد بدأ بفريضة «القراءة» لكتاب الكون ولكتابات الأقلام ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ - ٥] ولأن الرسول ﷺ الذي وصف «واقع» الأمية الكتابية والحسابية، هو الذي غير هذا الواقع، بتحويل البدو الجهلاء الأميين إلى قراء وعلماء وفقهاء، وذلك امتثالاً لأمر ربه، في القرآن الكريم، الذي علمنا أن من وظائف جعل الله، سبحانه وتعالى، القمر منازل أن نتعلم عدد السنين والحساب ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا

وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لَتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ [يونس: ٥].. فوصف «الواقع» - كما نقول الآن مثلاً: «نحن مجتمعات متخلفة» - لا يعنى شرعنة هذا «الواقع» ولا تأييده، فضلاً عن تأييده، بأى حال من الأحوال.

وثالثها: أن فى بعض روايات هذا الحديث - وخاصة رواية ابن عباس، رضى الله عنهما.. ما يقطع بأن المقصود به إنما هى حالات خاصة لنساء لهن صفات خاصة، هى التى جعلت منهن أكثر أهل النار، لا لأنهن نساء، وإنما لأنهن - كما تنص وتعلل هذه الرواية - «يكفرن العشير»، ولو أحسن هذا العشير إلى إحداهن الدهر كله، ثم رأت منه هنةً أو شيئاً لا يعجبها، كفرت - كفر نعمة - بكل النعم التى أنعم عليها بها، وقالت - بسبب النزق أو الحمق أو غلبة العاطفة التى تنسيها ما قدمه لها هذا العشير من إحسان - : «ما رأيت منك خيراً قط»! - رواه البخارى ومسلم والنسائى ومالك - فى الموطأ..

فهذا الحديث - إذن - وصف لحالة بعينها، وخاص بهذه الحالة.. وليس تشريعاً عاماً ودائماً لجنس النساء..

ورابعها: أن مناسبة الحديث ترشح ألفاظه وأوصافه لأن يكون المقصود من ورائها المدح وليس الذم.. فالذين يعرفون خلق من صنعه الله على عينه، حتى جعله صاحب الخلق العظيم ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].. والذين يعرفون كيف جعل صلى الله عليه وسلم من «العيد» - الذى قال فيه هذا الحديث - «فرحة» أشرك فى الاستمتاع بها - مع الرجال - كل النساء، حتى الصغيرات، بل وحتى الحيض والنفساء!.. الذين يعرفون صاحب هذا الخلق العظيم، ويعرفون رفقه بالقوارير، ووصاياه بهن حتى وهو على فراش المرض يودع هذه الدنيا.. لا يمكن أن يتصوروه ﷺ ذلك الذى يختار يوم الزينة والفرحة ليجابه كل النساء ومطلق جنس النساء بالذم والتقريع والحكم المؤبد عليهن بنقصان الأهلية، لنقصانهن فى العقل والدين!..

وإذا كانت المناسبة - يوم العيد والزينة والفرحة - لا ترشح أن يكون الذم

والغم والحزن والتبكيك هو المقصود.. فإن ألفاظ الحديث تشهد على أن المقصود إنما كان المديح، الذى يستخدم وصف «الواقع» الذى تشترك فى التحلى بصفاته غالبية النساء.. إن لم يكن كل النساء..

فالحديث يشير إلى غلبة العاطفة والرقّة على المرأة، وهى عاطفة ورقة صارت «سلاحًا» تغلب به هذه المرأة أشد الرجال حزمًا وشدة وعقلًا.. وإذا كانت غلبة العاطفة إنما تعنى تفوقها على الحسابات العقلية المجردة والجامدة، فإننا نكون أمام عملة ذات وجهين، تمثلها المرأة.. فعند المرأة تغلب العاطفة على العقلانية - وذلك على عكس الرجل، الذى تغلب عقلانيته وحساباته العقلانية عواطفه - وفى هذا التمايز فطرة إلهية، وحكمة بالغة، ليكون عطاء المرأة فى ميادين العاطفة بلا حدود وبلا حسابات.. وليكون عطاء الرجل فى مجالات العقلانية المجردة والجامدة مكملًا لما نقص عند «الشق اللطيف والرقيق!»..

فنقص العقل - الذى أشارت إليه كلمات الحديث النبوى الشريف - هو وصف لواقع تتزين به المرأة السوية وتفخر به - لأنه يعنى غلبة عاطفتها على عقلانيته المجردة.. ولذلك، كانت «مداعبة» صاحب الخلق العظيم - الذى آتاه ربه جوامع الكلم - للنساء، فى يوم الفرحة والزينة، عندما قال لهن: إنهن يغلبن بسلاح العاطفة وسلطان الاستضعاف أهل الحزم والألباب من عقلاء الرجال، ويخترقن بالعواطف الرقيقة أمنع الحصون!:

- «ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن».

فهو مدح للعاطفة الرقيقة التى تذهب بحزم ذوى العقول والألباب.. ويابؤس وشقاء المرأة التى حرمت من شرف امتلاك هذا السلاح الذى فطر الله النساء على تقلده والتزين به فى هذه الحياة!.. بل - وأيضًا - يا بؤس أهل الحزم والعقلانية - من الرجال - الذين حرموا - فى هذه الحياة - من الهزيمة أمام هذا السلاح - سلاح العاطفة والاستضعاف!..

وإذا كان هذا هو المعنى المناسب واللائق - بالقائل وبالمخاطب وبالمناسبة -

وأيضاً المحبب لكل النساء والرجال معاً - الذى قصدت إليه ألفاظ «نقص العقل» فى الحديث النبوى الشريف.. فإن المراد «بنقص الدين» - هو الآخر - وصف الواقع غير المذموم - بل إنه الواقع المحمود والممدوح! -..

فعندما سألت النسوة رسول الله ﷺ عن المقصود من نقصهن فى الدين، تحدث عن اختصاصهن «برخص» فى العبادات تزيد على «الرخص» التى يشاركن فيها الرجال.. فالنساء يشاركن الرجال فى كل «الرخص» التى رخص فيها الشارع - من إفطار الصائم فى المرض والسفر.. إلى قصر الصلاة وجمعها فى السفر.. إلى إباحة المحرمات عند الضرورات.. إلخ.. إلخ.. - ثم يزدن على الرجال فى «رخص» خاصة بالإناث - من مثل سقوط فرائض الصلاة والصيام عن الحيض والتفشاء.. وإفطار الموضع، عند الحاجة، فى شهر رمضان.. إلخ.. إلخ..

وإذا كان الله، سبحانه وتعالى، يحب أن تُؤتى رخصه كما يحب أن تُؤتى عزائمه، فإن التزام النساء بهذه «الرخص» الشرعية هو الواجب المطلوب والمحمود، وفيه لهن الأجر والثواب.. ولا يمكن أن يكون بالأمر المرذول والمذموم.. ووصف واقعه - فى هذا الحديث النبوى - مثله كمثل وصف الحديث لغلبة العاطفة الرقيقة الفياضة على العقلانية الجامدة، عند النساء، هو وصف لواقع محمود.. ولا يمكن أن يكون ذمًا للنساء، ينتقص من أهلية المرأة ومساواتها للرجال، بأى حال من الأحوال.

إن العقل ملكة من الملكات التى أنعم الله بها على الإنسان، وليس هناك إنسان - رجلاً كان أو امرأة - يتساوى مع الآخر مساواة كمية ودقيقة فى ملكة العقل ونعمته.. ففى ذلك يتفاوت الناس ويختلفون.. بل إن عقل الإنسان الواحد وضبطه - ذكراً كان أو أنثى - يتفاوت، زيادة ونقصاً بمرور الزمن، وبما يكتسب من المعارف والعلوم والخبرات.. وليست هناك جبلة ولا طبيعة تفرق بين الرجال والنساء فى هذا الموضوع..

وإذا كان العقل - فى الإسلام - هو مناط التكليف، فإن المساواة بين النساء

والرجال فى التكليف والحساب والجزاء شاهدة على أن التفسيرات المغلوطة لهذا الحديث النبوى الشريف، هى تفسيرات ناقضة لمنطق الإسلام فى المساواة بين النساء والرجال فى التكليف.. ولو كان لهذه التفسيرات المغلوطة نصيب من الصحة لنقصت تكاليف الإسلام للنساء عن تكليفاته للرجال، ولكانت تكاليفهن فى الصلاة والصيام والحج والعمرة والزكاة وغيرها على النصف من تكاليف الرجال!..

ولكنها «الرخص»، التى يؤجر عليها الملتزمون بها والملتزمات، كما يؤجرون جميعاً عندما ينهضون بعزائم التكليف.. إن النقص المذموم - فى أى أمر من الأمور - هو الذى يمكن إزالته وجبره وتغييره، وإذا تغير والمجبر كان محموداً.. ولو كانت «الرخص» التى شرعت للنساء - بسقوط الصلاة والصيام للحائض والنفساء - مثلاً - نقصاً مذموماً، لكان صيامهن وصلاتهن وهن حَيض ونفساء أمراً مقبولاً ومحموداً ومأجوراً.. لكن الحال ليس كذلك، بل إنه على العكس من ذلك.

وأخيراً، فهل يعقل عاقل.. وهل يجوز فى أى منطق، أن يعهد الإسلام، وتعهد الفطرة الإلهية بأهم الصناعات الإنسانية والاجتماعية - صناعة الإنسان، ورعاية الأسرة، وصياغة مستقبل الأمة - إلى ناقصات العقل والدين، بهذا المعنى السلبى، الذى ظلم به غلاة الإسلاميين وغلاة العلمانيين الإسلام، ورسوله الكريم، الذى حرر المرأة تحريره للرجل، عندما بعثه الله بالحياة والإحياء لمطلق الإنسان ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] فوضع بهذا الإحياء، عن الناس - كل الناس - ما كانوا قد حُمِّلوا من الآصار والأغلال ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

إنها تفسيرات مغلوطة، وساقطة، حاول بها أسرى العادات والتقاليد إضفاء

الشرعية الدينية على هذه العادات والتقاليد التي لا علاقة لها بالإسلام.. . . والتي يبرأ منها هذا الحديث النبوى الشريف.. . .

وإذا كان لنا - فى ختام إزالة هذه الشبهة - أن نذكر المنطق الإسلامى الذى صوبنا به معنى الحديث النبوى الشريف، وخاصة بالنسبة للذين لا يطمئنون إلى المنطق إلا إذا دعمته وزكته «النصوص»، فإننا نذكر بكلمات إمام السلفية ابن القيم، التى تقول:

«إن المرأة العدل كالرجل فى الصدق والأمانة والديانة..» (٢٤).

وبكلمات الإمام محمد عبده، التى تقول:

«إن حقوق الرجل والمرأة متبادلة، وإنهما أكفاء.. وهما متماثلان فى الحقوق والأعمال، كما أنهما متماثلان فى الذات والإحساس والشعور والعقل، أى أن كلاهما بشر تام له عقل يتفكر فى مصالحه، وقلب يحب ما يلائمه ويُسِرُّ به، ويكره ما لا يلائمه وينفر منه..» (٢٥).

وبكلمات الشيخ محمود شلتوت، التى تقول:

«لقد قرر الإسلام الفطرة التى خلقت عليها المرأة.. فطرة الإنسانية ذات العقل والإدراك والفهم.. فهى ذات مسئولية مستقلة عن مسئولية الرجل، مسئولة عن نفسها، وعن عبادتها، وعن بيتها، وعن جماعتها.. وهى لا تقل فى مطلق المسئولية عن مسئولية أخيها الرجل، وإن منزلتها فى المثوبة والعقوبة عند الله معقودة بما يكون منها من طاعة أو مخالفة، وطاعة الرجل لا تنفعها وهى طالحة منحرفة، ومعصيته لا تضرها، وهى صالحة مستقيمة ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤] ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

وليقف المتأمل عند هذا التعبير الإلهى «بعضكم من بعض»، ليعرف كيف سما القرآن بالمرأة حتى جعلها بعضاً من الرجل، وكيف حد من طغيان الرجل فجعله

بعضًا من المرأة. وليس فى الإمكان ما يؤدّى به معنى المساواة أوّضح ولا أسهل من هذه الكلمة التى تفيض بها طبيعة الرجل والمرأة، والتى تتجلى فى حياتهما المشتركة، دون تفاضل وسلطان ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ [النساء: ٣٢]..

وإذا كانت المرأة مسئولة، مسئولة خاصة فيما يختص بعبادتها ونفسها، فهى فى نظر الإسلام أيضًا مسئولة مسئولة عامة فيما يختص بالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والإرشاد إلى الفضائل، والتحذير من الرذائل. وقد صرح القرآن بمسئوليتها فى ذلك الجانب، وقرن بينها وبين أخيها الرجل فى تلك المسئولية، كما قرن بينها وبينه فى مسئولية الانحراف عن واجب الإيمان والإخلاص لله وللمسلمين ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١]، ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٦٧) وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٧، ٦٨]..

فليس من الإسلام أن تلقى المرأة حظها من تلك المسئولية - الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وهى أكبر مسئولية فى نظر الإسلام - على الرجل وحده، بحجة أنه أقدر منها عليها، أو أنها ذات طابع لا يسمح لها أن تقوم بهذا الواجب، فللرجل دائرته، وللمرأة دائرتها، والحياة لا تستقيم إلا بتكاتف النوعين فيما ينهض بأمتهما، فإن تخاذلا أو تخاذل أحدهما انحرفت الحياة الجادة عن سبيلها المستقيم..

والإسلام - [فوق ذلك] - لم يقف بالمرأة عند حد اشتراكها مع أخيها الرجل فى المسئوليات - جميعها خاصها وعامها - بل رفع من شأنها، وقرر - تلقاء تحملها هذه المسئوليات - احترام رأيها فيما تبدو وجاهته، شأنه فى رأى الرجل تمامًا سواء بسواء.

وإذا كان الإسلام جاء باختيار آراء بعض الرجال، فقد جاء أيضاً باختيار رأى بعض النساء.

وفى سورة المجادلة، احترم الإسلام رأى المرأة، وجعلها مجادلة ومحاوراً للرسول، وجمعها وإياه فى خطاب واحد ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ [المجادلة: ١] وقرر رأيها، وجعله تشريعاً عاماً خالداً.. فكانت سورة المجادلة أثراً من آثار الفكر النسائى، وصفحة إلهية خالدة نلمح فيها على مر الدهور صورة احترام الإسلام لرأى المرأة، فالإسلام لا يرى المرأة مجرد زهرة، ينعم الرجل بشم رائحتها، وإنما هى مخلوق عاقل مفكر، له رأى، وللرأى قيمته ووزنه.

وليس هناك فارق دينى بين المرأة والرجل فى التكليف وأهليته، سوى أن التكليف يلحقها قبل أن يلحق الرجل، وذلك لوصولها - بطبيعتها - إلى مناط التكليف، وهو البلوغ، قبل أن يصل إليه الرجل! (٢٦)

هكذا تضافرت الحجج المنطقية مع نصوص الاجتهاد الإسلامى على إزالة شبهة الانتقاص من أهلية المرأة، بدعوى أن النساء ناقصات عقل ودين..

وهكذا وضحت المعانى والمقاصد الحقة لحديث رسول الله ﷺ الذى اتخذت منه التفسيرات المغلوطة «غطاء شرعياً» للعادات والتقاليد الراكدة، تلك التى حملها البعض - من غلاة الإسلاميين - على الإسلام، زوراً وبهتاناً.. والتى حسبها غلاة العلمانيين ديناً إلهياً، فدعوا - لذلك - إلى تحرير المرأة من هذا الإسلام!

لقد صدق الله العظيم: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

إننا نلح منذ سنوات طوال - وقبلنا ومعنا الكثيرون من علماء الإسلام ومفكره - على أن هذا الدين الحنيف إنما يمثل ثورة كبرى لتحرير المرأة، لكن الخلاف بيننا وبين الغرب والمتغربين هو حول «نموذج» هذا التحرير.. فهم

يريدون المرأة «نذاً مساوياً للرجل».. ونحن - مع الإسلام - نريد لها «مساواة الشقين المتكاملين، لا الندين المتماثلين».. وذلك، لتتحرر المرأة، مع بقائها أنثى، ومع بقاء الرجل رجلاً، كى يثمر هذا التمايز الفطرى بقاء وتجدد القبول والرغبة، والجاذبية، والسعادة بينهما - سعادة النوع الإنسانى -..

ونلح على أن هذا «التشابه.. والتمايز» بين النساء والرجال، هو الذى أشار إليه القرآن الكريم عندما قرن المساواة بالتمايز، فقالت آياته المحكمات: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾ [آل عمران: ٣٦].

نلح على ذلك المنهاج فى التحرير الإسلامى للمرأة.. ولقد شاءت إرادة الله، سبحانه وتعالى، أن يشهد شاهد من أهلها على صدق هذا المنهاج الإسلامى، فتنشر صحيفة [الأهرام] تقريراً علمياً عن نتائج دراسة علمية استغرقت أبحاثها عشرين عاماً، وقام بها فريق من علماء النفس فى الولايات المتحدة الأمريكية، وإذا بها تكشف عن مصداقية حقائق هذا المنهاج القرآنى - فى تشابه الرجال والنساء فى اثنتين وثلاثين صفة.. وتتميز المرأة عن الرجل فى اثنتين وثلاثين صفة.. وتتميز الرجل عن المرأة - كذلك - فى اثنتين وثلاثين صفة - فهناك التشابه ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١]، ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، وهناك التمايز الفطرى ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾.. فهما يتشابهان فى نصف الصفات، ويتميزان فى نصفها الآخر..

فالنموذج الأمثل لتحررهما معاً هو «مساواة الشقين المتكاملين، لا الندين المتماثلين».. ولذلك، آثرت أن أقدم للقارئ خلاصة هذه الدراسة العلمية، كما نشرتها [الأهرام] - تحت عنوان [اختلاف صفات الرجل عن المرأة لمصلحة كليهما] - ونصها:

«فى دراسة قام بها علماء النفس فى الولايات المتحدة الأمريكية، على مدى

عشرين عامًا، تم حصر عدد الصفات الموجودة في كل من الرجل والمرأة، ووجد أن هناك ٣٢ صفة مشتركة في كل منهما، وأن ٣٢ صفة أخرى موجودة في الرجل، و٣٢ صفة أخرى موجودة عند المرأة، بدرجات مختلفة في الشدة، ومن هنا جاءت الفروق بين صفات الرجولة والأنوثة.

وتوصل العلماء من خلال هذه التجارب إلى أن وجود نصف عدد الصفات مشتركة في كل من الرجل والمرأة يعمل على وجود الأسس المشتركة بينهما، لتسهيل التفاهم والتعامل مع بعضهما البعض . .

أما وجود عدد آخر من الصفات متساويًا بينهما ومختلفًا عند كل منهما في الدرجة والشهرة فمعناه تحقيق التكامل بينهما.

كما توصلوا إلى أنه كي يعيش كلٌّ من الرجل والمرأة في انسجام وتناغم تام، لا بد أن يكون لدى كل منهما الصفات السيكولوجية المختلفة، فمثلاً الرجل العصبى الحاد المزاج لا يمكنه أن يتعايش مع امرأة عصبية حادة المزاج، والرجل البخيل عليه ألا يتزوج امرأة بخيلة، والرجل المنطوى، الذى لا يحب الناس، لا يجوز أن يتزوج من امرأة منطوية ولا تحب الناس . وهكذا.

وكان من نتائج هذه الدراسات الوصول إلى نتيجة مهمة، ألا وهى أن كل إنسان يجب ألا يعيش مع إنسان متماثل معه فى الصفات وكل شيء، أى صورة طبق الأصل من صفاته الشخصية، ومن هنا جاءت الصفات المميزة للرجولة متمثلة فى: قوة العضلات وخشونتها، والشهامة، والقوة فى الحق، والشجاعة فى موضع الشجاعة، والنخوة، والاهتمام بمساندة المرأة وحمايتها والدفاع عنها وجلب السعادة لها. كما تتضمن أيضاً صفات الحب، والعطاء، والحنان، والكرم، والصدق فى المشاعر وفى القول، وحسن التصرف . . إلخ . .

أما عن صفات الأنوثة، فهى تتميز بالدفء، والنعومة، والحساسية، والحنان، والتضحية، والعطاء، وحب الخير، والتفانى فى خدمة أولادها، والحكمة، والحرص على تماسك الأسر وترباطها، وحب المديح، والذكاء، وحسن التصرف، وغير ذلك من الصفات . .

ولذلك، فمن المهم أن يكون لدى كل من الرجل والمرأة دراية كافية بطبيعة الرجل وطبيعة المرأة، وبذلك يسهل على كل منهما التعامل مع الطرف الآخر فى ضوء خصائص كل منهما. . فعندما يعرف الرجل أن المرأة مخلوق مشحون بالمشاعر والأحاسيس والعواطف، فإنه يستطيع أن يتعامل معها على هذا الأساس. وبالمثل، إذا عرفت المرأة طبيعة الرجل، فإن هذا سيساعدها أيضاً على التعامل معه. .» (٢٧).

تلك هى شهادة الدراسة العلمية، التى قام بها فريق من علماء النفس - فى الولايات المتحدة الأمريكية - والتى استغرق البحث فيها عشرين عاماً. . والتى تصدق على صدق المنهاج القرآنى فى علاقة النساء بالرجال: الاشتراك والتماثل فى العديد من الصفات. . والتمايز فى العديد من الصفات، لتكون بينهما «المساواة» و«التمايز» فى ذات الوقت. .

ومرة أخرى - لا أخيرة - صدق الله العظيم ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

* * *

الشبهة الرابعة: ما أفلح قوم وثّوا أمرهم امرأة

إن «الولاية» - بكسر الواو وفتحها - هى «النُصرة». . وكل من ولى أمر الآخر فهو وليه (٢٨) ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٧]، ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٩٦]، ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨]، ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ﴾ [الجمعة: ٦]، ﴿مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنفال: ٧٢].

وإذا كانت «النُصرة» هى معنى «الولاية»، فلا مجال للخلاف على أن للمرأة نصرة وسلطاناً، أى ولاية، فى كثير من ميادين الحياة.

فالمسلمون مجمعون على أن الإسلام قد سبق كل الشرائع الوضعية والحضارات الإنسانية عندما أعطى للمرأة ذمة مالية خاصة، وولاية وسلطاناً على أموالها، تملكاً وتنمية واستثماراً وإنفاقاً، مثلها فى ذلك مثل الرجل سواء بسواء. . . والولاية المالية والاقتصادية من أفعل الولايات والسلطات فى المجتمعات الإنسانية، على مر تاريخ تلك المجتمعات. . . وفى استثمار الأموال ولاية وسلطان يتجاوز الإطار الخاص إلى النطاق العام. . .

والمسلمون مجمعون على أن للمرأة ولاية على نفسها، تؤسس لها حرية وسلطاناً فى شئون زواجها، عندما يتقدم إليها الراغبون فى الاقتران بها، وسلطانها فى هذا يعلو سلطان وليها الخاص، والولى العام لأمر أمة الإسلام. . . والمسلمون مجمعون على أن للمرأة ولاية ورعاية وسلطاناً فى بيت زوجها، وفى تربية أبنائهما. . . وهى ولاية نص على تميزها بها وفيها حديث رسول الله ﷺ الذى فصل أنواع وميادين الولايات: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالأمر الذى على الناس راع عليهم وهو مسئول عنهم، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهى مسئولة عنهم، ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته» - رواه البخارى ومسلم والإمام أحمد - .

لكن قطاعاً من الفقهاء قد وقف بالولايات المباحة والمفتوحة ميادينها أمام المرأة عند «الولايات الخاصة»، واختاروا حجب المرأة عن «الولايات العامة»، التى تلى فيها أمر غيرها من الناس، خارج الأسرة وشئونها. . .

ونحن نعتقد أن ما سبق أن قدمناه - فى القسم الأول من هذه الدراسة - من وقائع تطبيقات وممارسات مجتمع النبوة والخلافة الراشدة لمشاركات النساء فى العمل العام - بدءاً من الشورى فى الأمور العامة. . . والمشاركة فى تأسيس الدولة الإسلامية الأولى. . . وحتى ولاية الحسبة والأسواق والتجارات، التى ولّاها عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، «للشفاء بنت عبد الله بن عبد شمس [٢٠ هـ - ٦٤١ م]» . . . وانتهاء بالقتال فى ميادين الوغى. . . وأيضاً ما أوردناه

من الآيات القرآنية الدالة على أن الموالة والتناصر بين الرجال والنساء فى العمل العام - سائر ميادين العمل العام - وهى التى تناولها القرآن الكريم تحت فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

نعتقد أن ما سبق أن أوردناه حول هذه القضية - قضية ولاية المرأة ومشاركتها مع الرجل فى ولايات العمل العام - كافٍ، ووافٍ فى الرد على الذين يمارون فى ولاية المرأة للعمل العام..

أما الإضافة التى نقدمها فى هذا القسم من هذه الدراسة - قسم إزالة الشبهات - فهى خاصة بمناقشة الفهم المغلوط للحديث النبوى الشريف: «ما أفلح قوم يلى أمرهم امرأة».. إذ هو الحديث الذى يستظل بظله كل الذين يحرّمون مشاركة المرأة فى الولايات العامة والعمل العام..

ولقد وردت لهذا الحديث روايات متعددة، منها: «لن يفلح قوم تملكهم امرأة».. و«لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة».. و«لن يفلح قوم أسندوا أمرهم إلى امرأة» - رواها: البخارى والترمذى والنسائى والإمام أحمد..

وإذا كانت صحة الحديث - من حيث «الرواية» - هى حقيقة لا شبهة فيها.. فإن إغفال مناسبة ورود هذا الحديث يجعل «الدراية» بمعناه الحقيقى مخالفة للاستدلال به على تحريم ولاية المرأة للعمل العام..

ذلك أن ملابسات قول الرسول ﷺ لهذا الحديث تقول: إن نفراً قد قدموا من بلاد فارس إلى المدينة المنورة، فسألهم رسول الله ﷺ:

- «من يلى أمر فارس؟»

- قال [أحدهم]: امرأة.

- فقال صلى الله عليه وسلم: «ما أفلح قوم ولوا أمرهم امرأة».

فملابسات ورود الحديث تجعله نبوءة سياسية بزوال ملك فارس - وهى نبوءة نبوية قد تحققت بعد ذلك بسنوات - أكثر منه تشريعاً عاماً يحرم ولاية المرأة للعمل السياسى العام..

ثم إن هذه الملابسات تجعل معنى هذا الحديث خاصاً «بالولاية العامة»، أى رئاسة الدولة وقيادة الأمة.. فالمقام كان مقام الحديث عن امرأة تولت عرش الكسروية الفارسية، التى كانت تمثل إحدى القوتين العظميين فى النظام العالمى لذلك التاريخ.. ولا خلاف بين جمهور الفقهاء - باستثناء طائفة من الخوارج - على اشتراط «الذكورة» فىمن يلى «الإمامة العظمى» والخلافة العامة لدار الإسلام وأمة الإسلام.. أما ما عدا هذا المنصب - بما فى ذلك ولايات الأقاليم والأقطار والدول القومية والقطرية والوطنية - فإنها لا تدخل فى ولاية الإمامة العظمى لدار الإسلام وأمتها.. لأنها ولايات خاصة وجزئية، يفرض واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المشاركة فى حمل أماناتها على الرجال والنساء دون تفريق.

فالشبهة إنما جاءت من خلط مثل هذه الولايات - الجزئية والخاصة - بالإمامة العظمى والولاية العامة لدار الإسلام وأمتها - وهى الولاية التى اشترط جمهور الفقهاء «الذكورة» فىمن يليها - . ولا حديث للفقهاء المعاصرين عن ولاية المرأة لهذه الإمامة العظمى؛ لأن هذه الولاية قد غابت عن متناول الرجال، فضلاً عن النساء، منذ سقوط الخلافة العثمانية [١٣٤٢ هـ - ١٩٢٤ م] وحتى الآن!..

وأمر آخر لا بد من الإشارة إليه، ونحن نزيل هذه الشبهة عن ولاية المرأة للعمل العام، وهو تغير مفهوم الولاية العامة فى عصرنا الحديث، وذلك بانتقاله من «سلطان الفرد» إلى «سلطان المؤسسة»، التى يشترك فيها جمع من ذوى السلطان والاختصاص.

لقد تحول «القضاء» من قضاء القاضى الفرد إلى قضاء مؤسسى، يشترك فى الحكم فيه عدد من القضاة.. فإذا شاركت المرأة فى «هيئة المحكمة» فليس بوارد الحديث عن ولاية المرأة للقضاء، بالمعنى الذى كان وارداً فى فقه القدماء؛ لأن الولاية

هنا - الآن - المؤسسة وجمع، وليست لفرد من الأفراد، رجلاً كان أو امرأة.. بل لقد أصبحت مؤسسة التشريع والتقنين مشاركة في ولاية القضاء، بتشريعها القوانين التي ينفذها القضاة.. فلم يعد قاضى اليوم ذلك الذى يجتهد فى استنباط الحكم واستخلاص القانون، وإنما أصبح «المنفذ» للقانون الذى صاغته وقنته مؤسسة، تمثل الاجتهاد الجماعى والمؤسسى - لا الفردى - فى صياغة القانون..

وكذلك الحال مع تحول التشريع والتقنين من اجتهاد الفرد إلى اجتهاد مؤسسات الصياغة والتشريع والتقنين.. فإذا شاركت المرأة فى هذه المؤسسات، فليس بوارد الحديث عن ولاية المرأة لسلطة التشريع بالمعنى التاريخى والقديم لولاية التشريع..

وتحولت سلطات صنع «القرارات التنفيذية» - فى النظم الشورية والديموقراطية - من سلطة الفرد إلى سلطان المؤسسات المشاركة فى الإعداد لصناعة القرار.. فإذا شاركت المرأة فى هذه المؤسسات، فليس بوارد الحديث عن ولاية المرأة لهذه السلطات والولايات، بالمعنى الذى كان فى ذهن الفقهاء الذين عرضوا لهذه القضية فى ظل «فردية» الولايات، وقبل تعقد النظم الحديثة والمعاصرة، وتميزها بالمؤسسية والمؤسسات..

لقد تحدث القرآن الكريم عن ملكة سبأ - وهى امرأة - فأتى عليها وعلى ولايتها للولاية العامة؛ لأنها كانت تحكم بالمؤسسة الشورية - لا بالولاية الفردية - ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ [النمل: ٣٢].. وذنم القرآن الكريم فرعون مصر - وهو رجل - لأنه قد انفرد بسلطان الولاية العامة وسلطة صنع القرار ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].. فلم تكن العبرة بالذكورة أو الأنوثة فى الولاية العامة - حتى الولاية العامة - وإنما كانت العبرة بكون هذه الولاية «مؤسسة شورية» أم «سلطاناً فردياً مطلقاً»؟..

أما ولاية المرأة للقضاء . . . والتي يثيرها البعض كشبهة على اكتمال أهلية المرأة فى الرؤية الإسلامية . . . فإن إزالة هذه الشبهة يمكن أن تتحقق بالتنبيه على عدد من النقاط :

أولها: أن ما لدينا فى تراثنا حول قضية ولاية المرأة لمنصب القضاء هو «فكر إسلامى» و«اجتهادات فقهية» أثمرت «أحكاماً فقهية».. وليس «دينًا» وضعه الله، سبحانه وتعالى، وأوحى به إلى رسوله عليه الصلاة والسلام. فالقرآن الكريم لم يعرض لهذه القضية، كما لم تعرض لها السنة النبوية؛ لأن القضية لم تكن مطروحة على الحياة الاجتماعية والواقع العملى لمجتمع صدر الإسلام، فليس لدينا فيها نصوص دينية أصلاً، ومن ثم فإنها من مواطن ومسائل الاجتهاد . .

ثم إن هذه القضية هى من «مسائل المعاملات»، وليست من «شعائر العبادات».. وإذا كانت «العبادات توقيفية»، تُلْتَمَس من النص، وتقف عند الوارد فيه، فإن «المعاملات» تحكمها المقاصد الشرعية، وتحقيق المصالح الشرعية المعتبرة.. والموازنة بين المصالح والمفاسد فيها.. ويكفى فى «المعاملات» أن لا تخالف ما ورد فى النص، لا أن يكون قد ورد فيها نص..

ومعلوم أن «الأحكام الفقهية»، التى هى اجتهادات الفقهاء، مثلها كمثل الفتاوى، تتغير بتغير الزمان والمكان والمصالح الشرعية المعتبرة.. فتولى المرأة للقضاء قضية فقهية، لم ولن يُغْلَق فيها باب الاجتهاد الفقهى الإسلامى . .

وثانيها: أن اجتهادات الفقهاء القدماء حول تولى المرأة لمنصب القضاء هى اجتهادات متعددة ومختلفة باختلاف وتعدد مذاهبهم واجتهاداتهم فى هذه المسألة، ولقد امتد زمن اختلافهم فيها جيلاً بعد جيل . . . ومن ثم فليس هناك «إجماع فقهى» فى هذه المسألة حتى يكون هناك إلزام للخلف بإجماع السلف - وذلك فضلاً عن أن إلزام الخلف بإجماع السلف هو أمر ليس محل إجماع . . . ناهيك عن أن قضية إمكانية تحقق الإجماع - أى اجتماع سائر فقهاء عصر ما

على مسألة من مسائل فقه الفروع - كهذه المسألة - هو مما لا يُتصور حدوثه - حتى لقد أنكر كثير من الفقهاء إمكانية حدوث الإجماع في مثل هذه الفروع أصلاً.. ومن هؤلاء الإمام أحمد بن حنبل [١٦٤ - ٢٤١ هـ - ٧٨٠ - ٨٥٥ م] الذى قال: «من ادعى الإجماع فقد كذب!»..

فباب الاجتهاد الجديد والمعاصر والمستقبلى فى هذه المسألة - وغيرها من فقه الفروع - مفتوح.. لأنها ليست من المعلوم من الدين بالضرورة، أى المسائل التى لم ولن تختلف فيها مذاهب الأمة ولا الفطر السليمة لعلماء وعقلاء الإسلام..

وثالثها: أن جريان «العادة»، فى الأعصر الإسلامية السابقة، على عدم ولاية المرأة لمنصب القضاء لا يعنى «تحریم» الدين لولايتها هذا المنصب، فدعوة المرأة للقتال، وانخراطها فى معاركه هو مما لم تجربه «العادة» فى الأعصر الإسلامية السابقة، ولم يعن ذلك «تحریم» اشتراك المرأة فى الحرب والجهاد القتالى عند الحاجة والاستطاعة وتعين فريضة الجهاد القتالى على كل مسلم ومسلمة.. فهى قد مارست هذا القتال، وشاركت فى معاركه على عصر النبوة والخلافة الراشدة.. من غزوة أحد [٣ هـ - ٦٢٥ م] إلى موقعة اليمامة [١٢ هـ - ٦٣٣ م] ضد ردة مسيلمة الكذاب.. فـ «العادة» مرتبطة «بالحاجات» المتغيرة بتغير المصالح والظروف والملابسات، وليست هى مصدر الحلال والحرام..

ورابعها: أن علة اختلاف الفقهاء حول جواز تولي المرأة لمنصب القضاء، فى غيبة النصوص الدينية - القرآنية والنبوية - التى تتناول هذه القضية، كانت اختلاف هؤلاء الفقهاء فى الحكم الذى «قاسوا» عليه توليها للقضاء.. فالذين «قاسوا» القضاء على «الإمامة العظمى» - التى هى الخلافة العامة على أمة الإسلام ودار الإسلام - مثل فقهاء المذهب الشافعى - قد منعوا توليها للقضاء، لاتفاق جمهور الفقهاء - باستثناء بعض الخوارج - على جعل «الذكورة» شرطاً من شروط الخليفة والإمام، فاشتروا هذا الشرط - «الذكورة» - فى القاضى، قياساً على الخلافة والإمامة العظمى..

وظل هذا «القياس» قياساً على «حكم فقهي» - ليس عليه إجماع - وليس «قياساً» على نص قطعي الدلالة والثبوت . .

والذين أجازوا توليها القضاء، فيما عدا قضاء «القصاص والحدود» - مثل أبي حنيفة [٨٠ - ١٥٠ هـ ٦٩٩ - ٧٦٧ م] وفقهاء مذهبه - قالوا بذلك «لقياسهم» القضاء على «الشهادة»، فأجازوا قضاءها فيما أجازوا شهادتها فيه، أي فيما عدا «القصاص والحدود».

فالقياس هنا - أيضاً - على «حكم فقهي» وليس على نص قطعي الدلالة والثبوت . . وهذا الحكم الفقهي المقيس عليه - وهو شهادة المرأة في القصاص والحدود . . أي في الدماء - ليس موضع إجماع . . فلقد سبق ذكرنا - في رد شبهة أن شهادة المرأة هي على النصف من شهادة الرجل - إجازة بعض الفقهاء لشهادتها في الدماء، وخاصة إذا كانت شهادتها فيها هي مصدر البينة الحافظة لحدود الله وحقوق الأولياء.

أما الفقهاء الذين أجازوا قضاء المرأة في كل القضايا - مثل الإمام محمد بن جرير الطبري [٢٢٤ - ٣١٠ هـ ٨٣٩ - ٩٣٣ م] - فقد حكموا بذلك «لقياسهم» القضاء على «الفتيا» . . فالمسلمون قد أجمعوا على جواز تولي المرأة منصب الإفتاء الديني - أي التبليغ عن رسول الله ﷺ - وهو من أخطر المناصب الدينية - وفي توليها للإفتاء سنة عملية مارستها نساء كثيرات على عهد النبوة - من أمهات المؤمنين وغيرهن - فقايس هؤلاء الفقهاء قضاء المرأة على فتياها، وحكموا بجواز توليها كل أنواع القضاء، لممارستها الإفتاء في مختلف الأحكام . .

وهم قد عللوا ذلك بتقريرهم أن الجوهرى والثابت في شروط القاضى إنما يحكمه ويحدده الهدف والقصد من القضاء، وهو: ضمان وقوع الحكم بالعدل بين المتقاضين . . وبعبارة أبي الوليد بن رشد - الحفيد - [٥٢٠ - ٥٩٥ هـ ١١٢٦ - ١١٩٨ م]: فإن «من رأى حكم المرأة نافذاً في كل شيء قال: إن الأصل

هو أن كل من يأتي منه الفصل بين الناس فحكمه جائز، إلا ما خصصه الإجماع من الإمامة الكبرى» (٢٩).

وخامسها: أن «الذكورة» لم تكن الشرط الوحيد الذى اختلف حوله الفقهاء من بين شروط من يتولى القضاء . . فهم - مثلاً - اختلفوا فى شرط «الاجتهاد»، فأوجب الشافعى [١٥٠ - ٢٠٤ هـ - ٧٦٧ - ٨٢٠ م] وبعض المالكية أن يكون القاضى مجتهداً . . على حين أسقط أبو حنيفة هذا الشرط، بل وأجاز قضاء «العامى»، أى الأمى فى القراءة والكتابة - وهو غير الجاهل - ووافقه بعض فقهاء المالكية، قياساً على أمية النبى ﷺ (٣٠) . .

واختلفوا - كذلك - فى شرط كون القاضى «عاملاً»، وليس مجرد «عالم» بأصول الشرع الأربعة: الكتاب، والسنة، والإجماع، والقياس . . فاشتراطه الشافعى، وتجاوز عنه غيره من الفقهاء (٣١).

كما اشترط أبو حنيفة، دون سواه، أن يكون القاضى عربياً من قریش (٣٢).

فشرط «الذكورة» فى القاضى، هو واحد من الشروط التى اختلف فيها الفقهاء، حيث اشترطه البعض فى بعض القضايا دون البعض الآخر، وليس فيه إجماع . . كما أنه ليس فيه نصوص دينية تمنع أو تقيد اجتهادات المجتهدين . .

وسادسها: أن منصب القضاء وولايته قد أصابها هى الأخرى ما أصاب الولايات السياسية، والتشريعية، والتنفيذية من تطور انتقل بها من «الولاية الفردية» إلى ولاية «المؤسسة»، فلم تعد «ولاية رجل» أو «ولاية امرأة»، وإنما أصبح «الرجل» جزءاً من المؤسسة والمجموع، وأصبحت «المرأة» جزءاً من المؤسسة والمجموع . . ومن ثم أصبحت القضية فى «كيف جديد» يحتاج إلى «تكييف جديد»، يقدمه الاجتهاد الجديد لهذا الطور المؤسسى الجديد الذى انتقلت إليه كل هذه الولايات . . ومنها ولاية المرأة للقضاء . .

الشبهة الخامسة: الرجال قوامون على النساء

فى المدينة المنورة نزلت آيات «القوامة» - قوامة الرجال على النساء - وفى ظل المفهوم الصحيح لهذه القوامة تحررت المرأة المسلمة من تقاليد الجاهلية الأولى، وشاركت الرجال فى العمل العام - مختلف ميادين العمل العام - على النحو الذى أشرنا إلى نماذجه فى القسم الأول من هذه الدراسة - فكان مفهوم القوامة حاضراً طوال عصر ذلك التحرير . . ولم يكن عائقاً بين المرأة وبين هذا التحرير . .

ولحكمة إلهية قرن القرآن الكريم - فى آيات القوامة - بين مساواة النساء للرجال، وبين درجة القوامة التى للرجال على النساء، بل وقدم هذه المساواة على تلك الدرجة، عاطفاً الثانية على الأولى بـ «واو» العطف، دلالة على المعية والاقتران . . أى أن المساواة والقوامة صنوان مقترنان، يرتبط كل منهما بالآخر، وليسا نقيضين، حتى يتوهم وأهم أن القوامة نقيض يتقص من المساواة.

لحكمة إلهية جاء ذلك فى القرآن الكريم، عندما قال الله، سبحانه وتعالى، فى سياق الحديث عن شئون الأسرة وأحكامها: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

وفى سورة النساء جاء البيان لهذه الدرجة التى للرجال على النساء - فى سياق الحديث عن شئون الأسرة، وتوزيع العمل والأنصبة بين طرفى الميثاق الغليظ الذى قامت به الأسرة - الرجل والمرأة - فإذا بآية القوامة تأتى تالية للآيات التى تتحدث عن توزيع الأنصبة والحظوظ والحقوق بين النساء وبين الرجال، دونما غبن لطرف، أو تمييز يخل بمبدأ المساواة، وإنما وفق الجهد والكسب الذى يحصل به كل طرف ما يستحق من ثمرات . . ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا

اَكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٣٢) وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِيَّ
مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَانُكُمْ فَأَتَوْهُمْ نَصِيحُهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٣٣) الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ
وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴿[النساء: ٣٢ - ٣٤].

ولقد فقه حبر الأمة، عبد الله بن عباس [٣ ق هـ - ٦٨ هـ - ٦١٩ - ٦٨٧ م] -
الذى دعا له الرسول ﷺ ربه أن يفقهه فى الدين - فهم الحكمة الإلهية فى
اقتران المساواة بالقوامة، فقال - فى تفسيره لقول الله، سبحانه وتعالى: ﴿وَلَهُنَّ
مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ تلك العبارة الإنسانية، والحكمة الجامعة: «إننى
لأنزىن لامرأتى، كما تنزىن لى، لهذه الآية»!

وفهم المسلمون - قبل عصر التراجع الحضارى، الذى أعاد بعضاً من التقاليد
الجاهلية الراكدة إلى حياة المرأة المسلمة مرة أخرى - أن درجة القوامة هى رعاية
رَبِّانِ الأسرة - الرجل - لسفينتها، وأن هذه الرعاية هى مسئولية وعطاء..
وليست ديكتاتورية ولا استبداداً ينقص أو يستقص من المساواة التى قرنها القرآن
الكريم بهذه القوامة، بل وقدمها عليها..

ولم يكن هذا الفهم الإسلامى لهذه القوامة مجرد تفسيرات أو استنتاجات،
ولمّا كان فقهاً محكوماً بمنطق القواعد القرآنية الحاكمة لمجتمع الأسرة، وعلاقة
الزوج بزوجه.. فكل شئون الأسرة تُدار، وكل قراراتها تُتخذ بالشورى، أى
بمشاركة كل أعضاء الأسرة فى صنع واتخاذ هذه القرارات؛ لأن هؤلاء الأعضاء
مؤمنون بالإسلام، والشورى صفة أصيلة من صفات المؤمنين والمؤمنات،
﴿وَالَّذِينَ يَحْتَبُونَ كِبَاءَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ
اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣٨)
وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧ - ٣٩].

فالشورى واحدة من الصفات المميزة للمؤمنين والمؤمنات، فى كل ميادين
التدبير وصناعة القرار.. والأسرة هى الميدان التأسيسى والأول فى هذه

الميادين . تجبُّ هذه الشورى ، ويلزم هذا التشاور فى مجتمع الأسرة - لتأسس التدابير والقرارات على الرضا ، الذى لا سبيل إليه إلا بالمشاركة الشورية فى صنع القرارات . . . يستوى فى ذلك الصغير والخطير من هذه التدابير والقرارات . . . حتى لقد شاءت الحكمة الإلهية أن ينص القرآن الكريم على تأسيس قرار الرضاعة للأطفال - أى سقاية المستقبل وصناعة الغد - على الرضا الذى تثمره الشورى . . . ففى سياق الآيات التى تتحدث عن حدود الله فى شئون الأسرة . . . تلك الحدود المؤسسة على منظومة القيم . . . والمعروف . . . والإحسان . . . ونفى الجُنَاح والخرج . وعدم المضارة والظلم والعدوان . . . والدعوة إلى ضبط شئون الأسرة بقيم التزكية والطهر . لا « بترسانة » القوانين الصماء . . . فى هذا السياق ينص القرآن الكريم على أن تكون الشورى هى آلية الأسرة فى صنع كل القرارات ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٣٣] .

هكذا فهم المسلمون معنى القوامه . . . فهى مسئولية وتكاليف للرجل ، مصاحبة لمساواة النساء بالرجال . . . وبعبارة الإمام محمد عبده : «إنها تفرض على المرأة شيئاً وعلى الرجل أشياء» . . .

وكانت السنة النبوية - فى عصر البعثة - البيان النبوى للبلاغ القرآنى فى هذا الموضوع . . . فالمعصوم ﷺ الذى حمّله ربه الحمل الثقيل - فى الدين . . . والدولة . . . والأمة . . . والمجتمع - ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ [المزمل: ٥] هو الذى كان فى خدمة أهله - أزواجه - وكانت شورا من معه وله صفة من

صفات بيت النبوة، فى الخاص والعام من الأمور والتدابير. . . ويكفى أن هذه السنة العملية قد تجسدت تحريراً للمرأة، شاركت فيه الرجال بكل ميادين الاجتماع والسياسة والاقتصاد والتربية. . . وحتى القتال. . . كما كان صلى الله عليه وسلم دائم التأكيد على التوصية بالنساء خيراً. . . فحريتهن حديثه العهد، وهن قريبات من عبودية التقاليد الجاهلية، واستضعافهن يحتاج إلى دوام التوصية بهن والرعاية لهن. . . وعنه ﷺ تروى أقرب زوجاته إليه - عائشة رضى الله عنها - : «إنما النساء شقائق الرجال» - رواه أبو داود والترمذى والدارمى والإمام أحمد - وعندما سئلت :

- ما كان رسول الله ﷺ يعمل فى بيته؟

- قالت : «كان بشراً من البشر، يلقى ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه». رواه الإمام أحمد.

يفعل ذلك، وهو القَوَّام على الأمة كلها، فى الدين والدولة والدنيا جميعاً! . . .

وفى خطبته ﷺ بحجة الوداع [١٠ هـ - ٦٣٢ م] - وهى التى كانت إعلاناً عالمياً خالداً للحقوق والواجبات، الدينية والمدنية - كما صاغها الإسلام - أفرد صلى الله عليه وسلم للتوصية بالنساء فقرات خاصة، أكد فيها على التضامن والتناصر بين النساء والرجال فى المساواة والحقوق والواجبات، فقال :

«ألا واستوصوا بالنساء خيراً، فإنهن عوان عندكم، ليس تملكون منهن شيئاً غير ذلك، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة. ألا إن لكم على نسائكم حقاً ولنسائكم عليكم حقاً.. فاتقوا الله فى النساء، واستوصوا بهن خيراً، ألا هل بلغت! اللهم فاشهد» (٣٣).

هكذا فُهِمَت القوامة فى عصر التنزيل. . . فكانت قيادة للرجل فى الأسرة، اقتضتها مؤهلاته ومسئوليته فى البذل والعطاء. . . وهى قيادة محكومة بالمساواة

والتناصر والتكافل بين الزوج وزوجه فى الحقوق والواجبات . . ومحكومة بالشورى التى يسهم بها الجميع ويشاركون فى تدبير شئون الأسرة . . هذه الأسرة التى قامت على «الميثاق الغليظ» - ميثاق الفطرة - والتى تأسست على المودة والرحمة، حتى غدت المرأة فيها السكن والسكينة لزوجها، أفضى بعضهم إلى بعض، هن لباس لكم وأنتم لباس لهن، فهى بعض الرجل والرجل بعض منها ﴿بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١]، ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧]، ﴿وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢١] . .

وإذا كانت القوامة ضرورة من ضرورات النظام والتنظيم فى أية وحدة من وحدات التنظيم الاجتماعى، لأن وجود القائد الذى يحسم الاختلاف والخلاف، هو مما لا يقوم النظام والانتظام إلا به . . فلقد ربط القرآن هذه الدرجة فى الريادة والقيادة بالمؤهلات وبالعطاء، وليس بمجرد «الجنس» فجاء التعبير القرآنى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ وليس كل رجل قوَّامًا على كل امرأة . . لأن إمكانات القوامة معهودة فى الجملة والغالب لدى الرجال، فإذا تخلفت هذه الإمكانيات عند واحد من الرجال، كان الباب مفتوحًا أمام الزوجة - إذا امتلكت من هذه المقومات أكثر مما لديه - لتدير دفعة الاجتماع الأسرى - على نحو ما هو حادث فى بعض الحالات! . .

هكذا كانت القوامة - فى الفكر والتطبيق - فى عصر صدر الإسلام . . لكن الذى حدث بعد القرون الأولى، وبعد الفتوحات التى أدخلت إلى المجتمع الإسلامى شعوبًا لم يهذب الإسلام عاداتها الجاهلية، فى النظر إلى المرأة والعلاقة بها، قد أصاب النموذج الإسلامى بتراجعات وتشوهات أشاعت تلك العادات والتقاليد الجاهلية فى المجتمعات الإسلامية من جديد . .

ويكفى أن نعرف أن كلمة «عَوَان»، التى وصف الرسول ﷺ بها النساء، فى

خطبة حجة الوداع، والتي تعنى - فى [لسان العرب] - «التَّصَفُّفُ والوسط»^(٣٤) - أى الخيار - وتعنى ذات المعنى فى موسوعات مصطلحات الفنون^(٣٥). . . قد أصبحت تعنى - فى عصر التراجع الحضارى - أن المرأة أسيرة لدى الرجل، وأن النساء أسرى عند الرجال. . . وأن القوامة هى لون من «القهر» لأولئك النساء الأسيرات!! . . . حتى وجدنا إمامًا عظيمًا مثل ابن القيم، يعبر عن واقع عصره - العصر المملوكى - فيقول هذا الكلام الغريب والعجيب!

«إن السيد قاهر لمملوكه، حاكم عليه، مالك له. والزوج قاهر لزوجته، حاكم عليها، وهى تحت سلطانه وحكمه شبه الأسير»^(٣٦)!!

وهو فهم لمعنى القوامة، وعلاقة الزوج بزوجته، يمثل انقلابًا جذريًا على إنجازات الإسلام فى علاقة الأزواج بالزوجات! . . . انقلاب العادات والتقاليد الجاهلية التى ارتدت تغالب قيم الإسلام فى تحرير المرأة ومساواة النساء للرجال. . .

ووجدنا كذلك - فى عصور التقليد والجمود الفقهي - تعريف بعض «الفقهاء» لعقد النكاح، فإذا به: «عقد تمليك بضع الزوجة»!! . . . وهو انقلاب على المعانى القرآنية السامية لمصطلحات «الميثاق الغليظ» و«المودة» . . . والرحمة. . . والسكن والسكينة. . . وإفضاء كل طرف إلى الطرف الآخر، حتى أصبح كل منهما لباسًا له».

هكذا حدث الانقلاب، فى عصور التراجع الحضارى لمسيرة أمة الإسلام. . .

ولذلك، كان من مقتضيات البعث الحضارى، الحديث والمعاصر، لنموذج الإسلام فى تحرير المرأة وإنصافها، كبديل للنموذج الغربى - الذى اقتحم عالم الإسلام فى ركاب الغزوة الاستعمارية الغربية لبلادنا - والذى شققت وتشقى به المرأة السوية فى الغرب ذاته - كان من مقتضيات ذلك إعادة المفاهيم الإسلامية الصحيحة لمعنى قوامة الرجال على النساء. . . وهى المهمة التى نهضت بها

الاجتهادات الإسلامية الحديثة والمعاصرة لأعلام علماء مدرسة الإحياء والتجديد . . .

فالإمام محمد عبده، قد وقف أمام آيات القوامة ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَ دَرَجَةٌ﴾ [النساء: ٣٤] فإذا به يقول:

«هذه كلمة جليلة جداً، جمعت، على إيجازها، ما لا يُؤدى بالتفصيل إلا في سفر كبير، فهي قاعدة كلية ناطقة بأن المرأة مساوية للرجل في جميع الحقوق، إلا أمراً واحداً عبّر عنه بقوله: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَ دَرَجَةٌ﴾ وقد أحال في معرفة ما لهن وما عليهن على المعروف بين الناس في معاشراتهن ومعاملاتهن في أهليهن، وما يجرى عليه عرف الناس هو تابع لشرائعهم وعقائدهم وآدابهم وعاداتهم.

فهذه الجملة تعطى الرجل ميزاناً يزن به معاملته لزوجته في جميع الشئون والأحوال، فإذا هم بمطالبتها بأمر من الأمور يتذكر أنه يجب عليه مثله بإزائه، ولهذا قال ابن عباس، رضى الله عنهما: إننى لأتزين لامرأتى كما تتزين لى، لهذه الآية.

وليس المراد بالمثل المثل بأعيان الأشياء وأشخاصها، وإنما المراد: أن الحقوق بينهما متبادلة، وأنهما كفتان، فما من عمل تعمله المرأة للرجل إلا وللرجل عمل يقابله لها، وإن لم يكن مثله في شخصه، فهو مثله في جنسه، فهما متماثلان في الذات والإحساس والشعور والعقل، أى أن كلاهما بشرا تام له عقل يتفكر في مصالحه، وقلب يحب ما يلائمه ويسر به، ويكره ما لا يلائمه وينفر منه، فليس من العدل أن يتحكم أحد الصنفين بالآخر ويتخذ عبداً يستذله ويستخدمه في مصالحه، ولا سيما بعد عقد الزوجية والدخول في الحياة المشتركة التى لا تكون سعيدة إلا باحترام كل من الزوجين الآخر والقيام بحقوقه..

هذه الدرجة التى رُفِعَ النساء إليها، لم يرفعهن إليها دين سابق ولا شريعة من الشرائع، بل لم تصل إليها أمة من الأمم قبل الإسلام ولا بعده..

لقد خاطب الله تعالى النساء بالإيمان والمعرفة والأعمال الصالحة، فى العبادات والمعاملات، كما خاطب الرجال، وجعل لهن عليهم مثل ما جعله لهم عليهن، وقرن أسماءهن بأسمائهم فى آيات كثيرة، وباع النبی ﷺ المؤمنات، كما باع المؤمنين، وأمرهن بتعلم الكتاب والحكمة، كما أمرهم، وأجمعت الأمة على ما مضى به الكتاب والسنة من أنهن مجزيات على أعمالهن فى الدنيا والآخرة..

وأما قوله تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ فهو يوجب على المرأة شيئاً وعلى الرجال أشياء، ذلك أن هذه الدرجة درجة الرياسة والقيام على المصالح، المفسرة بقوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤]..

إن الحياة الزوجية حياة اجتماعية، ولا بد لكل اجتماع من رئيس؛ لأن المجتمعين لا بد أن تختلف آراؤهم ورغباتهم فى بعض الأمور، ولا تقوم مصالحتهم إلا إذا كان لهم رئيس يُرجع إلى رأيه فى الخلاف، لئلا يعمل كل ضد الآخر فتفصم عروة الوحدة الجامعة ويختل النظام، والرجل أحق بالرياسة لأنه أعلم بالمصلحة، وأقدر على التنفيذ بقوته وماله، ومن ثم كان هو المطالب شرعاً بحماية المرأة والنفقة عليها، وكانت هى مطالبة بطاعته فى المعروف.

إن المراد بالقيام - «القوامة» - هنا هو الرياسة التى يتصرف فيها المرءوس بإرادته واختياره، وليس معناه أن يكون المرءوس مقهوراً مسلوب الإرادة لا يعمل عملاً إلا ما يوجهه إليه رئيسه..

إن المرأة من الرجل والرجل من المرأة بمنزلة الأعضاء من بدن الشخص الواحد، فالرجل بمنزلة الرأس والمرأة بمنزلة البدن..

أما الذين يحاولون بظلم النساء أن يكونوا سادة فى بيوتهم، فإنما يلدون عبيداً لغيرهم (٣٧)!!..

وإذا كانت عصور التراجع الحضارى - كما سبق أن أشرنا - قد استبدلت بالمعانى السامية لعقد الزواج - المودة.. والرحمة.. والسكن.. والميثاق الغليظ

- ذلك المعنى الغريب - «عقد تمليك بضع الزوجة»! - وعقد أسر وقهر! -
فلقد أعاد الاجتهاد الإسلامى الحديث والمعاصر الاعتبار إلى المعانى القرآنية
السامية. . وكتب الشيخ محمود شلتوت [١٣١٠ - ١٣٨٣ هـ - ١٨٩٣ -
١٩٦٣ م] - فى تفسيره للقرآن الكريم - تحت عنوان [الزواج ميثاق غليظ]
يقول:

«لقد أفرغت سورة النساء على عقد الزواج صبغة كريمة أخرجته عن أن يكون
عقد تمليك كمعقد البيع والإجارة، أو نوعاً من الاسترقاق والأسر.. أفرغت عليه
صبغة «الميثاق الغليظ».

ولهذا التعبير قيمته فى الإيحاء بموجبات الحفظ والرحمة والمودة. وبذلك كان
الزواج عهداً شريفاً وميثاقاً غليظاً ترتبط به القلوب، وتختلط به المصالح، ويندمج كل
من الطرفين فى صاحبه، فيتحد شعورهما، وتلتقى رغباتهما وآمالهما. كان علاقة
دونها علاقة الصداقة والقربة، وعلاقة الأبوة والبنوة ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ
لَهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧]، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا
وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١]
يتفكرون فيدركون أن سعادة الحياة الزوجية إنما تُبنى على هذه العناصر الثلاثة:
السكن، والمودة، والرحمة..

وإذا تنبهنا إلى أن كلمة ميثاق لم ترد فى القرآن الكريم إلا تعبيراً عما بين الله
وعباد من موجبات التوحيد، والتزام الأحكام، وعما بين الدولة والدولة من الشؤون
العامة والخطيرة، علمنا مقدار المكانة التى سما القرآن بعقد الزواج إليها. وإذا تنبهنا
مرة أخرى إلى أن وصف الميثاق «بالغليظ» لم يرد فى موضع من مواضعه إلا فى
عقد الزواج وفيما أخذه الله على أنبيائه من موثيق ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾
[الأحزاب: ٧] تضاعف لدينا سمو هذه المكانة التى رفع القرآن إليها هذه الرابطة
السامية».

ثم تحدث الشيخ شلتوت عن المفهوم الإسلامى الصحيح «للقوامة»، فقال:

«.. وبينت السورة الدرجة التى جعلها الله للرجال على النساء، بعد أن سوى بينهما فى الحقوق والواجبات، وأنها لا تعدو درجة الإشراف والرعاية بحكم القدرة الطبيعية التى يمتاز بها الرجل على المرأة، وبحكم الكد والعمل فى تحصيل المال الذى ينفقه فى سبيل القيام بحقوق الزوجة والأسرة، وليست هذه الدرجة درجة الاستعباد والتسخير، كما يصورها المخادعون المغرضون» (٣٨) ..

تلك هى شبهة الفهم الخاطئ والمغلوط لقوامة الرجال على النساء .. والتى لا تعدو أن تكون الانعكاس لواقع بعض العادات الجاهلية التى ارتدت، فى عصور التراجع الحضارى لأمتنا الإسلامية، فغالبت التحرير الإسلامى للمرأة، حتى انتقلت بالقوامة من الرعاية والريادة، المؤسسة على إمكانات المسئولية والبذل والعطاء، إلى قهر السيد للمسود، والحر للعبد والمالك للمملوك! ..

ولأن هذا الفهم غريب ومغلوط، فإن السبيل إلى نفيه وإزالة غباره وآثاره هو سبيل البديل الإسلامى، الذى فقّهه الصحابة، رضوان الله عليهم، للقوامة .. والذى بعثه - من جديد - الاجتهاد الإسلامى الحديث والمعاصر، ذلك الذى ضربنا عليه الأمثال من فكر وإبداع الشيخ محمد عبده والشيخ محمود شلتوت ..

بل إننا نضيف، للذين يرون فى القوامة استبداداً بالمرأة، وقهراً لها - سواء منهم غلاة الإسلاميين، الذين ينظرون للمرأة نظرة دونية، ويعطّلون ملكاتها وطاقاتها بالتقاليد - أم غلاة العلمانيين، الذين حسبوا ويحسبون أن هذا الفهم المغلوط هو صحيح الإسلام وحقيقته، فيطلبون تحرير المرأة بالنموذج الغربى .. بل وتحريرها من الإسلام! .. نقول لهؤلاء جميعاً:

إن هذه الرعاية، التى هى القوامة، لم يجعلها الإسلام حكراً للرجل بإطلاق .. ولم يحرم منها المرأة بإطلاق .. وإنما جعل للمرأة رعاية - أى «قوامة» - فى الميادين التى هى فيها أبرع وبها أخبر من الرجال .. ويشهد على هذه الحقيقة نص حديث رسول الله ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته،

فالأمير الذى على الناس راعٍ عليهم، وهو مسئول عنهم، والرجل راعٍ على أهل بيته، وهو مسئول عنهم، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده، وهى مسئولة عنهم.. ألا فكلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته» - رواه البخارى ومسلم والإمام أحمد.

فهذه الرعاية «القوامة» - هى فى حقيقتها «تقسيم للعمل» تحدد الخبرة والكفاءة ميادين الاختصاص فيه.. فالكل راعٍ ومسئول - وليس فقط الرجال هم الرعاية والمسئولين - وكل صاحب أو صاحبة خبرة وكفاءة هو راعٍ وقوَّام، أو راعية وقوَّامة على ميدان من الميادين وتخصص من التخصصات.. وإن تميزت رعاية الرجال وقوامتهم فى الأسر والبيوت والعائلات وفقاً للخبرة والإمكانات التى يتميزون بها فى ميادين الكد والحماية.. فإن لرعاية المرأة تميزاً فى إدارة مملكة الأسرة وفى تربية الأبناء والبنت.. حتى لنلمح ذلك فى حديث الرسول ﷺ - الذى سبق إيراده - عندما جعل الرجل راعياً ومسئولاً عن «أهل بيته»، بينما جعل المرأة راعية ومسئولة عن «بيت بعلها وولده»!..

فهى - «القوامة» - توزيع للعمل، تحدد الخبرة والكفاءة ميادينه.. وليست قهراً ولا قسراً ولا تملكاً ولا عبودية، بحال من الأحوال.

هكذا وضحت قضية القوامة.. وسقطت المعانى الزائفة والمغلوطة لآخر الشبهات التى يتعلق بها الغلاة.. غلاة الإسلاميين.. وغلاة العلمانيين.

.. وبعد ..

فسواء نظرنا إلى قضية المرأة وإنصافها وتحريرها، فى إطار النظرة العامة التى نظر الإسلام بها إلى المرأة - نظرة الإنصاف والمساواة للرجل فى الخلق من نفس واحدة.. وفى الإنسانية - وفى التكريم لكل بنى آدم.. وفى حمل الأمانة التى عرضت على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها، وحملها الإنسان - ذكراً وأنثى.. وفى الأهلية للتكاليف.. وفى الحساب.. وفى الجزاء.. مع الحفاظ على فطرة تميز الأنوثة عن الذكورة، تميز التكامل لا الأنداد والأضداد.

سواء نظرنا إلى هذه القضية فى إطارها النظرى هذا . . أم نظرنا إليها من خلال تطبيقات مجتمعات النبوة، الذى مارست فيه المرأة فقه هذا التحرير الإسلامى لملكاتها وطاقاتها - على النحو الذى شاركت فيه الرجال بإقامة الدين . . وبناء الدولة . . والمجتمع . . والحضارة . . أم نظرنا إلى هذه القضية من خلال «الفكر الفقهى» الإسلامى، الذى اختلف أئمتة حول بعض القضايا الفرعية - التى اتُّخِذَتْ فى عصر التراجع الحضارى، ومن قَبْلَ تيارات الجمود والتقليد منطلقات لشبهات ضد أهلية المرأة وإنصافها - فنفدنا إلى فقه النصوص التى تصورها البعض شبهات وعقبات على طريق تحرير المرأة وإنصافها . . فإننا سنجد الآفاق واسعة وفسحة وممتدة أمام إنهاض المرأة بالإسلام . . وليس بتجاوز الإسلام، كما يريد المتغربون من غلاة العلمانيين .

وإذا كان الاجتهاد الإسلامى - القديم منه والحديث - هو الذى انطلقت منه هذه الدراسة، لتقرير مشاركة المرأة فى العمل العام، سائر ما تطبق وتحسن من ميادين العمل العام . . والذى انطلقت منه للرد على ما أثير ويثار من شبهات حول أهلية المرأة لهذه المشاركة فى العمل العام . . فإن هذا الاجتهاد الإسلامى إنما يستند إلى النصوص القرآنية التى أشركت المرأة والرجل فى القيام بفرائض التكاليف الاجتماعية لهذا العمل العام . . وإلى تطبيقات عصر النبوة - أى السنة العملية لهذه النصوص القرآنية . . وإلى الآفاق المفتوحة دائماً وأبداً أمام المرأة، لتقتحم المزيد والمزيد من ميادين المشاركة التى تطبقها وتحسنها كأنثى، وفق السنة النبوية التى فتحت لها هذه الآفاق، عندما بايعت النساء رسول الله ﷺ بيعتهن الخاصة بهن . . فلم ينب عنهن فيها الرجال - وفتح الرسول ﷺ أمامهن هذه الآفاق، وطريق التطور والتقدم نحوها، قائلاً لهن: «فيما استطعن وأطقن» .

* * *

وإذا كانت بعض المجتمعات والبيئات الإسلامية، تسود وتتحكم فيها عادات وتقاليده وأعراف تحجب المرأة عن المشاركة فيما هى أهل له وقادرة عليه من

ميادين العمل العام.. فإن المنهاج الإسلامى يدعو إلى تطوير هذه العادات والتقاليد والأعراف نحو النموذج الإسلامى لتحرير المرأة وإنصافها، فى تدرج لا يقفز على الواقع ولا يتجاهله - فتجاهل الواقع والقفز على عاداته وتجاهل تقاليده وأعرافه، هو جهل لا يليق بالمصلحين -.. كما يدعو هذا المنهاج الإسلامى إلى رفض - بل وإدانة - إلباس هذه العادات والتقاليد والأعراف لبوساً إسلامياً، يُجَمِّلُها، ومن ثم يكرسها، بالزور والبهتان..

وكذلك الحال مع البيئات والمجتمعات الإسلامية التى اقتحمها النموذج الغربى «لتحرير» المرأة، ذلك الذى أُرادها «نداء» للرجل، وتجاهل تميز «الأنوثة» عن «الذكورة» فى تقسيم العمل الاجتماعى بين النساء والرجال، كما تجاهل منظومة القيم الإسلامية وضوابط الشريعة فى الزى والسلوك والأخلاق، على النحو الذى أهان المرأة، واستباح حرمتها، وأهدر -مع حقوقها كأثى- حقوق الله، سبحانه وتعالى..

إن هذا النموذج الغربى فى «تحرير» المرأة، لا بد من إدانته، وطى صفحات فكره وممارساته فى واقعنا الإسلامى -بالنقد الموضوعى، وبتقديم البديل الإسلامى.. لا بالمصادرة التعسفية-.. ولا بد، كذلك، من تطوير هذا الواقع الاجتماعى فى اتجاه التقبل للنموذج الإسلامى والالتزام به.. ذلك النموذج الذى كشفت هذه الدراسة عن معالنه فى مشاركة المرأة بالعمل العام.. وردت عنه الشبهات التى أثارها ويشيرها غلاة الإسلاميين والعلمانيين على حد سواء..

إن المرأة المسلمة خاصة، والمرأة الشرقية عامة، بل ومطلق المرأة، مدعوة إلى استلهاهم نموذج المرأة التى حررها الإسلام.. وذلك عندما:

* جعل من خديجة بنت خويلد [٦٨-٣ ق هـ ٥٥٦-٦٢٠م] طليعة الذين سبَقوا إلى الإيمان بالإسلام، ونصروا دعوته، وآزرُوا رسولَهُ ﷺ حتى لقد

مثلت وحدها التجسيد «لأمة الإسلام» إلى أن ائتم بها من فتح الله صدره لهذا الدين من السابقين الأولين .

* كما جعل هذا النموذج التحريري من سمية بنت خباط [٧ق هـ - ٦١٥م] - زوج ياسر، وأم عمّار - طليعة شهداء الإسلام وأمته، الأحياء عند ربهم يرزقون . .

* كما جعل من عائشة - أم المؤمنين - [٩ق هـ - ٥٨ هـ - ٦١٣-٦٧٨م] رضى الله عنها، راوية السنة النبوية . . والفقيهة والمفتية فى الدين . . والمشييرة على رسول الله ﷺ وعلى الأمة . . والمشاركة فى الشأن العام، سياسة واجتماعاً . . سلماً وحرباً . . حتى لقد مثلت نموذج ائتمان الإسلام المرأة على الدين - الذى هو أعز وأشرف من الدنيا - منذ ما يزيد على أربعة عشر قرناً، بينما عجزت كل كنائس النصرانية وكل كنس اليهودية عن ائتمان المرأة على الدين حتى هذا القرن الواحد والعشرين ! .

* كما جعل من نسيبة بنت كعب الأنصارية - أم عمارة - [١٣ هـ - ٦٣٤م] المشاركة فى تأسيس الدولة . . وفى بيعة الرضوان -بيعة القتال- تحت الشجرة، عام الحديبية [٦ هـ - ٦٢٨م] . . والتي نهضت فى ساحات المعارك القتالية بما قصر عنه كثير من الرجال ! .

* كما جعل من أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية [٣٠ هـ - ٦٥٠م] خطيبة النساء، التى تهز أعواد المنابر . . ووافدة النساء إلى رسول الله ﷺ للمطالبة بحقوق من خلفها من نساء المؤمنين .

* كما جعل من أسماء بنت أبى بكر الصديق [٢٧ق هـ - ٧٣ هـ - ٥٩٧ - ٦٩٢م] الأثنى التى تشارك فى صناعة الأحداث الكبرى والمحورية فى تاريخ الدعوة والدولة الإسلامية . . والتى ترعى منزل زوجها الزبير بن العوام [٢٨ق هـ - ٣٦هـ] . . وفرس جهاده . . وتزرع حقله . . وتقاتل معه فى الغزوات . . وتحافظ على مشاعره وغيرته الشديدة! . . وتنزى بالحشمة التى لا

تكشف ولا تشف ولا تصف.. وتربى ولدها عبدالله بن الزبير [١-٧٣هـ
٦٢٢-٦٩٢م] على بطولة الفداء والاستشهاد.. وتسهم معه، بالشورى، فى
أحداث ثورته الكبرى.. وتتصدى لطغيان الحجاج بن يوسف الثقفى [٤٠-
٩٥هـ -٦٦٠-٧١٤م] على النحو الذى غدا مضرب الأمثال فى تاريخ الأبطال
والبطولات!

إلى آخر نماذج النخبة والصفوة التى تربت فى مدرسة النبوة، والتى زاد
عددهن على ألف امرأة، أطلق التحرير الإسلامى طاقاتهم وملكاتهم فى أقل
من ربع قرن، هو عمر البعثة النبوية.. وعشر سنوات هى عمر دولة الرسول
ﷺ فى المدينة المنورة..

فلا لإسلام نموذجة المتميز فى تحرير المرأة.. ولهذا النموذج طلائعه فى تاريخ
هذا التحرير.

وإذا كانت الأسرة هى اللبنة الأولى فى بناء الأمة، فإن المرأة فيها هى الراحية
وصناعة المستقبل، بصياغة وصناعة الإنسان، وتربية وإعداد عدة الغد، وتنمية
أعظم رأسمال فى الوجود!

ومع عظم وعظمة هذه المهمة.. فإن آفاق عمل المرأة لا تقف عند نطاق
الأسرة.. فلقد فتح التحرير الإسلامى أمام عملها آفاق الاشتراك فى العمل
الاجتماعى العام - موكلة.. ووكيلة.. ناخبة.. ومنتخبة - لتشارك فى شورى
صناعة القرارات التى تُرشد مسيرة الأسرة والأمة.. نهوضاً - مع الرجل - بأداء
فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، التى فرضها الله، سبحانه وتعالى،
على الجميع. والتى تندرج تحتها وتتفرع منها سائر ميادين العمل العام.. على
أن يخضع ذلك كله لتوافر الأهلية والقدرة - وهو شرط عام فىمن ينهض بأى
تكليف شرعى، رجلاً كان أو امرأة - وألا يخل هذا الاشتراك فى العمل العام
بحق وواجب المرأة لأسرتها، ومملكته الأولى، وإطار قوامتها الأساسية، أو
بضابط من الضوابط الشرعية التى جاء بها الإسلام..

الهوامش:

- (١) صحيفة [الأهرام] فى ٢٨ - ٢ - ٢٠٠١ م.
- (٢) د. صلاح الدين سلطان [ميراث المرأة وقضية المساواة] ص ١٠ ، ٤٦ - طبعة القاهرة - دار نهضة مصر سنة ١٩٩٩ م - «سلسلة فى التنوير الإسلامى».
- (٣) عواطف عبد الماجد [رؤية تأصيلية لاتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة] طبعة مركز دراسات المرأة - السودان سنة ١٩٩٩ م.
- (٤) النكول: هو الامتناع عن اليمين.
- (٥) ابن القيم [الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية] ص ٣٤. تحقيق د. محمد جميل غازى. طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧ م.
- (٦) أى الكتابة.
- (٧) القافة: مفردا قائف - هو الذى يعرف الآثار - آثار الأقدام - ويعرف شبه الرجل بأخيه وأبيه . .
- (٨) القسامة: الأيمان، تقسم على أهل المحلة الذين وجد المقتول فيهم.
- (٩) [الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية] ص ١٠٣ - ١٠٥ ، ٢١٩ ، ٢٣٦ .
- (١٠) مفردا قمط - بكسر القاف وسكون الميم -: ما تشد به الأخصاص ومكونات البناء ولبناته.
- (١١) [الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية] ص ١٩٨ .
- (١٢) السِّلْب - بفتح السين مشددة، وفتح اللام -: هو متاع القتل وعدته، يأخذه قاتله . . وفى الحديث: «من قتل قتيلاً فله سلبه».
- (١٣) الموضحة: هى الجراحات التى هى دون قتل النفس .
- (١٤) [الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية] ص ٩٨ ، ١١٣ ، ١٢٣ .
- (١٥) استهلال الصبى: هو أن يحدث منه ما يدل على حياته - ساعة الولادة - من رفع صوت أو حركة عضد أو عين، وهو شرط لتمتعه بحقوق الأحياء .
- (١٦) [الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية] ص ١١٥ - ١١٧ .
- (١٧) المصدر السابق. ص ٨٨ ، ١٩٣ .
- (١٨) المصدر السابق. ص ٢٢١ .
- (١٩) [إعلام الموقعين عن رب العالمين] ج١ ص ٩٠ - ٩٢ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ١٠٣ ، ١٠٤ . طبعة بيروت. سنة ١٩٧٣ م.
- (٢٠) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] ج٤ ص ٧٣٢. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة القاهرة. سنة ١٩٩٣ م.

- (٢١) [الإسلام عقيدة وشريعة] ص ٢٣٩ - ٢٤١. طبعة القاهرة. سنة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
- (٢٢) [الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية] ص ٢٤٤، ٢٣٦.
- (٢٣) المصدر السابق. ص ٣٢٩.
- (٢٤) [الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية] ص ٢٣٦.
- (٢٥) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جزء ص ٦٠٦. دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة القاهرة. سنة ١٩٩٣م.
- (٢٦) [الإسلام عقيدة وشريعة] ص ٢٢٣ - ٢٢٨. طبعة القاهرة. سنة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
- (٢٧) [الأهرام] فى ٢٩ - ٤ - ٢٠٠١م - ص ٢.
- (٢٨) الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد [المفردات فى غريب القرآن] طبعة دار التحرير - القاهرة. سنة ١٩٩١م.
- (٢٩) [بداية المجتهد ونهاية المقتصد] جزء ٢ ص ٤٩٤. طبعة القاهرة. سنة ١٩٧٤م. والماوردي [أدب القاضى] ج١ ص ٦٢٥ - ٦٢٨ طبعة بغداد. سنة ١٩٧١م. و[الأحكام السلطانية] ص ٦٥، طبعة القاهرة. سنة ١٩٧٣م.
- (٣٠) [بداية المجتهد ونهاية المقتصد] جزء ٢ ص ٤٩٣، ٤٩٤.
- (٣١) [أدب القاضى] ج١ ص ٦٤٣.
- (٣٢) محمد محمد سعيد [كتاب دليل السالك لمذهب الإمام مالك] ص ١٩٠ طبعة القاهرة. سنة ١٩٢٣م.
- (٣٣) [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة] ص ٢٨٣. جمعها وحققها: د. محمد حميد الله. طبعة القاهرة. سنة ١٩٥٦م.
- (٣٤) ابن منظور [لسان العرب] طبعة دار المعارف - القاهرة.
- (٣٥) انظر: الراغب الأصفهاني [المفردات فى غريب القرآن] طبعة دار التحرير - القاهرة. سنة ١٩٩١م. وأبو البقاء الكفوى [الكليات] ق ٢ ص ٢٨٧. تحقيق: د. عدنان درويش، محمد المصرى. طبعة دمشق. سنة ١٩٨٢م.
- (٣٦) [إعلام الموقعين] جزء ٢ ص ١٠٦. طبعة بيروت. سنة ١٩٧٣م. [ولادراك كيف أن عسكرة الدولة - بحكم المماليك - قد مثلت تراجعاً عن النموذج الإسلامى فى كثير من جنبات الحياة الفكرية والاجتماعية، نسوق عبارة محمد عبده فى الإشارة إلى هؤلاء العسكر، الذين لم يكن لهم ذلك العقل الذى راضه الإسلام، والقلب الذى هذب الدين، بل جاءوا إلى الإسلام يخشونة الجهل، يحملون ألوية الظلم، لبسوا الإسلام على أبدانهم، ولم يتفد منه شيء إلى وجدانهم، هناك استعجم الإسلام، وانقلب أعجمياً!] - الأعمال الكاملة. ج ٣ ص ٣٣٦.
- (٣٧) [الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده] جزء ص ٦٠٦ - ٦١١ - وجه ص ٢٠١، ٢٠٣.
- (٣٨) [تفسير القرآن الكريم] ص ١٧٢ - ١٧٤. طبعة القاهرة سنة ١٣٩٩هـ. سنة ١٩٧٩م.

النموذج الغربى لتحرير المرأة

١- بين التحرير من الظلم.. والتحرير من الفطرة

إن الفارق بين الدعوة إلى تحرير المرأة وإنصافها، والحركات التى عملت على هذا التحرير والإنصاف - سواء فى البلاد الغربية أم الشرقية- وبين النزعة الأنثوية المتطرفة [Feminism] التى تبلورت فى الغرب فى ستينيات القرن العشرين، والتى تقلدها قلة قليلة من النساء الشرقيات.. إن الفارق بين هاتين الدعوتين والحركتين وفلسفتهما ومطالبهما، هو الفارق بين العقل والجنون!..

فأقصى ما طمحت إليه دعوات تحرير المرأة وحركاتها، هو إنصافها.. ورفع الغبن الاجتماعى والتاريخى الذى لحق بها، والذى عانت منه أكثر كثيراً مما عانى منه الرجال.. إنصافها، مع الحفاظ على فطرة التمايز بين الأنوثة والذكورة، وتمايز توزيع العمل وتكامله فى الأسرة والمجتمع، على النحو الذى يحقق مساواة الشقين المتكاملين بين الرجال والنساء.. وذلك حفاظاً على شوق كل جنس إلى الآخر، واحتياجه إليه، وأنسه بما فيه من تمايز، الأمر الذى بدونه لن يسعد أى من الجنسين فى هذه الحياة..

ولقد كانت الدعوة الغربية إلى تحرير المرأة - منذ القرن التاسع عشر - أثراً من آثار الحداثة الغربية، التى أرادت تجاوز التراث الفلسفى والاجتماعى والقانونى الغربى، المعادى للمرأة والمحقر لشأنها.. مع التأويل للتراث الدينى الغربى - اليهودى والنصرانى - المعادى للمرأة.. وذلك دون إعلان للحرب على الدين ذاته، ولا على الفطرة التى فطر الله الناس عليها عندما خلقهم ذكراً وإناثاً.. وأيضاً دون إعلان للحرب على الرجال.

أما النزعة الأنثوية المتطرفة [Feminism] التى تبلورت فى ستينيات القرن العشرين، فإنها أثر من آثار «ما بعد الحداثة» الغربية، تحمل كل معالم تطرفها الذى بلغ بها حد الفوضوية والعدمية واللاأدرية والعشبية والتفكيك لكل الأنساق الفكرية الحداثية التى حاولت تحقيق قدر من اليقين الذى يعوض الإنسان عن طمأنينة الإيمان الدينى، التى هدمتها الحداثة بالعلمانية والمادية والوضعية منذ عصر التنوير الغربى العلمانى، فى القرن الثامن عشر.

لذلك، كانت النزعة الأنثوية المتطرفة هذه «ثورة - فوضوية»، تجاوزت وغيارت «ثورات الإصلاح».. وكانت حرباً على «الفطرة السوية»، بما فى ذلك فطرة الأنوثة ذاتها!..

لقد تبنت هذه النزعة الأنثوية مبدأ الصراع بين الجنسين - الإناث والذكور - انطلاقاً من دعوى أن العداة والصراع هما أصل العلاقة بينهما.. ودعت إلى ثورة على الدين.. وعلى الله.. وعلى اللغة.. والثقافة.. والتاريخ.. والعادات والتقاليد والأعراف، بتعميم وإطلاق!.. وسعت إلى عالم تتمحور فيه الأنثى حول ذاتها، مستقلة استقلالاً كاملاً عن عالم الرجال.. وفى سبيل تحقيق ذلك، دعت إلى الشذوذ السحاقي بين النساء، وإلى «التحرر الانحلالي» وبلغت فى الإغراب مبلغاً لا يعرف الحدود!.. الأمر الذى جعل هذه النزعة الأنثوية المتطرفة كارثة على الأنوثة، ووبالاً على المرأة، وعلى الاجتماع الإنسانى بوجه عام.. بل وجعلها - إذا انتصرت وعمت - مهددة للوجود الإنسانى.. نعم، حتى للوجود الإنسانى ذاته!..

وكى لا يظن الذين لا يعلمون أن هناك مبالغة فى التصوير.. وكى لا ندع مجالاً لتمويه الموهين.. فيكفى أن نقدم نماذج شاهدة، ومعبرة من مقومات وشعارات فلسفات هذه الحركات الأنثوية المتطرفة..

* فأبو النزعة الأنثوية الفرنسية - الاشتراكى الفرنسى - «فورييه» [١٧٧٢ - ١٨٣٧م] قد دعا إلى «تحرير المرأة على كل الأصعدة: البيتى.. والمهنى.. والمدنى.. والجنسى.. وقال: إن العائلة تكاد تشكل سداً فى وجه التقدم»!..

* وفيلسوف هذه النزعة «ماركيوز-هربرت» [١٨٩٨-١٩٧٩م] قد جعل من أسس «نظريته النقدية»: «التأكيد على انعتاق الغرائز الجنسية، وإطلاق الحرية الجنسية بلا حدود، سواء من ناحية الكم أم الكيف، أى حتى حرية الشذوذ.. بل وتمجيده، باعتباره ثورة وتمرداً ضد قمع الجنس، وضد مؤسسات القمع الجنسي.. معتبراً التحرر الجنسي عنصراً مكماً ومتمماً لعملية التحرر الاجتماعى.. ورفضاً ربط الجنس بالتناسل والإنجاب»!..

* كما رفضت هذه النزعة ربط الممارسة الجنسية بالأخلاق، فقال «فوكو - ميشيل» [١٩٢٦-١٩٨٤م] «لماذا يجعل السلوك الجنسي مسألة أخلاقية، ومسألة أخلاقية مهمة؟!»..

* أما فيلسوفة هذه النزعة الأنثوية- الكاتبة الوجودية «سيمون دى بوفوار» [١٩٠٨-١٩٨٦] فلقد اعتبرت «الزواج: السجن الأبدى للمرأة، يقطع آمالها وأحلامها!» واعتبرت «مؤسسة الزواج مؤسسة لقهر المرأة، يجب هدمها وإلغاؤها!» وأنكرت أى تميز طبيعى للمرأة عن الرجل «فلا يولد المرء امرأة، بل يصير كذلك.. وسلوك المرأة لا تفرضه عليها هرموناتها ولا تكوين دماغها، بل هو نتيجة لوضعها..!»!

وجعلت من الدين ومن الألوهية عدواً لهذه الفلسفة الأنثوية «فالدين - برأيها- كان محايداً عندما لم يكن للآلهة جنس، ثم انحاز الدين للمرأة عندما أصبحت الآلهة إناثاً، ثم تحول إلى عدو للمرأة بسبب التفسيرات الذكورية للدين»!

ولقد نجحت هذه الحركات الأنثوية الغربية فى الضغط على المؤسسات الدينية الغربية.. تلك التى خانت رسالتها -حتى أصدرت- فى سنة ١٩٩٤م - طبعة جديدة من العهدين القديم والجديد، سميت «الطبعة المصححة»، تم فيها تغيير المصطلحات والضمائر المذكورة، وتحويلها إلى ضمائر محايدة!..

* ولقد تبلورت لهذه النزعة الأنثوية المتطرفة معالم فلسفتها التى تقرر:

- «أن المرأة مالكة لجسدها.. وحررة فيه، تتصرف فيه جنسيًا مع من تشاء، ووفق ما تشاء.. بما فى ذلك حرية التصرف فى الجنين -بالإجهاض- لأنه جزء من جسدها.. فالتعبير الحر عن الجنس هو جزء من الحرية، حتى لو اتخذ شكل الشذوذ السحاقي.. وحتى لو اتخذ شكل احتراف البغاء، طالما خلا هذا الاحتراف للبغاء من الاستغلال التجارى!..

- كما تقرر هذه الفلسفة «أن الغيرة عاطفة برجوازية ينبغى التخلص منها!» «وأن الحياء مرض يجب العلاج منه!».. و«أن العفة تخلف وكبت للحرية الجنسية»!.. ولا بد من تجريد الحب من أية ضوابط.. باستثناء العاطفة والشهوة!..
- ورأت هذه الفلسفة فى «الأمومة: قوالب جامدة وجائرة؛ لأنها لا تحقق للمرأة عائداً مادياً»!..

- ورأت فى «الإنجاب» عبودية للمرأة.. تسميها «سيمون دى بوفوار»: «عبودية التناسل»!..

- ودعت هذه الفلسفة الأنثوية إلى «حرية الاقتران، وحرية الافتراق فى أى لحظة، وذلك بين أى فردين -مثلين أو مختلفين!».. وإلى جعل «تربية الأطفال مسئولية الدولة والمجتمع، لا المرأة والأسرة»!..

- ووصلت هذه النزعة إلى الحد الذى قامت فيه منظمة أنثوية أمريكية اسمها: «حركة تقطيع أوصال الرجال»!..

وإذا كانت هذه الفلسفات والأفكار والدعاوى قد بلغت فى الإغراب الشاذ والشذوذ الغريب هذا الحد الذى رأيناه.. فإن الأمر الأكثر شذوذاً وإغراباً، هو السيطرة والانتشار اللذان حققتهما هذه النزعة الأنثوية المتطرفة فى المجتمعات الغربية خلال العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين..

* ف ٦٠٪ من أعضاء المنظمات الأنثوية فى أمريكا سحاقيات!.. وهذه

المنظمات الأمريكية - وأمثالها في الغرب- هي المسيطرة على لجنة المرأة في الأمم المتحدة، ومن خلالها فرضت وتفرض شذوذها الفكري والسلوكي على العالم أجمع، من خلال الموائيق «الدولية» التي تُعوّلَم تحت علم مؤتمرات المنظمة الدولية.. من وثيقة مؤتمر السكان سنة ١٩٩٤م.. إلى وثيقة مؤتمر بكين سنة ١٩٩٥م.. إلى وثيقة مؤتمر المرأة سنة ٢٠٠٠م.. إلى وثيقة الطفل.. ووثيقة إلغاء كافة أشكال التمييز ضد المرأة [CEDAW]..

وكما تقول الأستاذة الأمريكية «كاثرين فورث»: «إن الموائيق والاتفاقات الدولية التي تخص المرأة والأسرة والسكان.. تصاغ الآن في وكالات ولجان تسيطر عليها فئات ثلاث: (الأنثوية المتطرفة) و(أعداء الإنجاب والسكان) و(الشاذون والشاذات جنسياً).. وإن لجنة المرأة في الأمم المتحدة شكلتها امرأة اسكندنافية كانت تؤمن بالزواج المفتوح، ورفض الأسرة، وكانت تعتبر الزواج قيداً، وأن الحرية الشخصية لا بد أن تكون مطلقة.. ولقد انعكس هذا المفهوم «للحرية» في الموائيق التي صدرت عن هذه اللجنة، فالتوقيع على اتفاقية الـ CEDAW يجعل معارضة الشذوذ الجنسي - حتى ولو برسم كاريكاتورى - عملاً يعرض صاحبها للمساءلة القانونية، لكون هذه المعارضة معارضة لحقوق الإنسان»!..

وبعبارة الأستاذ الأمريكي «ريتشارد ويلكنز»: «فإنه بموجب اتفاقية الأمم المتحدة لحقوق الطفل، فإن للأطفال حرية التعبير، وحرية التعبير الجنسي.. ولذلك، فمن ينكر حق الطفل في ممارسة الجنس مع الكبار لا ينتهك حقوق الأطفال فحسب، بل ينتهك حقوق الكبار أيضاً.. ولقد أصبح الاعتراف القانوني بحرية الشذوذ الجنسي شرطاً من شروط الدخول إلى الاتحاد الأوروبي.. وهو ضمن الشروط المطلوب من تركيا المسلمة تحقيقها»!..

ولقد سارت مظاهرات في عواصم الغرب تندد بمصر لمحاكمتها بعض الشواذ. وطالبت برلمانات عدة في تلك العواصم - وخاصة في أمريكا وألمانيا- بقطع المعونات عن مصر بسبب ذلك الموقف من الشذوذ والشواذ!..

ووفق هذه الموائيق التى فرضتها هذه الحركات الأنثوية المتطرفة على العالم، أصبح من حق المراهقين والمراهقات ممارسة الشذوذ الجنسى، والإتيان بالرفقاء والرفيقات إلى المخادع، تحت سمع وبصر الوالدين.. ومن يعترض يمكن محاكمته قانونياً فى البلاد التى صدقت على اتفاقية الـ CEDAW!!

فنحن أمام دين جديد لقوم لوط الجدد!.. وكما يقول البروفيسور الأمريكى «ويلكنز»: «فإن المجتمع الغربى قد دخل دوامة الموت، ويريد أن يجبر العالم وراءه!». .. وكأنا شعارهم يقول ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

٢- فرض الشذوذ الفكرى على العالم

يعجب المرء ذوالثقافة الشرقية والتراث الفكرى والحضارى الإسلامى، من هذا الانتشار الذى حققته الحركة الأنثوية المتطرفة فى المجتمعات الغربية.. ومن شيوع هذا الجنون الانحلالى الذى بشرت به ودعت إليه هذه الحركة، حتى إن نسبة السحاقيات فى (المنظمة الوطنية للنساء).. بأمريكا - وهى أكبر المنظمات النسائية - تصل إلى ٦٠٪ من عضواتها!..

ويتزايد عجب المثقف الشرقى من تحول هذه النزعة الشاذة -فكرياً وسلوكياً- إلى قسمة بارزة فى مشروع الهيمنة الغربية على العالم.. فحرية الشذوذ غدت جزءاً أصيلاً من المفاهيم الغربية لحقوق الإنسان، يفرضها الغرب على العالم.. والحرية الجنسية غدت كذلك جزءاً من حق الإنسان فى الحرية.

بل إن السحاقيات قد سيطرن على لجنة المرأة فى الأمم المتحدة، وبدأت مرحلة عولمة هذه الفلسفة الفوضوية الشاذة فى موائيق دولية، يفرضها مشروع الهيمنة الغربية على العالم، ويقوم بعولتها تحت علم الأمم المتحدة.. . ويكفى أن نشير إلى أن الوفود النسائية الغربية إلى المؤتمر الدولى للسكان - الذى انعقد

بالقاهرة سنة ١٩٩٤م- قد ضمت جمهوراً من الشاذين والشاذات الذين جاءوا للتظاهر فى شوارع القاهرة الإسلامية، للدعوة إلى حرية الشذوذ، ولم يمنع تظاهرهم إلا الخوف على حياتهم من جمهور المسلمين المصريين! ..

وإذا كانت هذه الوفود الأنثوية المتطرفة، قد منعت من التظاهر فى شوارع القاهرة، فلقد نجحت فى أن تضمن الوثيقة الصادرة عن المؤتمر الكثير من معالم هذه النزعة الشاذة فى مفاهيم الحرية وحقوق الإنسان ..

* فدعت هذه الوثيقة بإلحاح إلى «تغيير هياكل الأسرة» .. أى إلى مصادمة الفطرة التى فطر الله البشر عليها، والتى اجتمعت عليها الديانات - السماوية والوضعية - وكل الثقافات والحضارات .. وذلك حتى تقنن «لأسر» الشاذين والشاذات، و«أسر» الالتقاء الحر بين «الأفراد»! .. وجاء فى هذه الوثيقة: «والحكومات، والمنظمات الحكومية الدولية، والمنظمات غير الحكومية المعنية، ووكالات التمويل، والمؤسسات البحثية مدعوة بإلحاح- [لاحظ «بالإلحاح»]- إلى إعطاء أولوية - [لاحظ «أولوية»]- للبحوث الحيوية - [لاحظ «الحوية»]- المتعلقة بتغيير الهياكل الأسرية»! ..

* وبدلاً من الجنس الشرعى والمشروع والحلال، دعت هذه الوثيقة إلى تقنين الحرية الجنسية «المسئولة»، كحق من حقوق الجسد، يتمتع بها كل الناشطين جنسياً من كل الأجناس والأعمار، ذكراً وإناً، حتى البنات والمراهقين والمراهقات! .. «فالصحة التناسلية - التى هى حالة من الرفاهية الجنسية المأمونة- هى حق لجميع الأفراد» [لاحظ «الأفراد» وليس «الأزواج»]! .. و«ينبغى أن تسعى جميع البلدان إلى القيام بتوفير رعاية صحية تناسلية لجميع الأفراد، من جميع الأعمار.. للبنات .. والفتيات.. المراهقات.. وتلبية الحاجات التثقيفية والخدمية للمراهقين كيما يتمكنوا من التعامل مع نشاطهم الجنسى بطريقة إيجابية ومسئولة.. وينبغى أن تكون برامج الرعاية الصحية التناسلية والجنسية مصممة لتلبية احتياجات المرأة والفتاة المراهقة.. وأن تصل إلى المراهقين والرجال والبنين والمراهقات، بدعم

وإرشاد آبائهم.. ويجب أن توجه الخدمات بدقة، وعلى الخصوص نحو حاجات فرادى النساء والمراهقين.. فالمرهقون الناشطون جنسياً يحتاجون نوعاً خاصاً من المعلومات والمشورة والخدمات فيما يتعلق بتنظيم الأسرة.. كما أن المراهقات اللاتي يحملن يحتجن إلى دعم خاص من أسرهن ومجتمعهن المحلي خلال فترة الحمل ورعاية الطفولة المبكرة!»!

فإلى جانب الأسرة- التي سميت تقليدية - والتي رأتها النزعة الأنثوية المتطرفة سجنًا للمرأة، وقيداً على حريتها.. هناك «أشكال الاقتران الأخرى» التي دعت الوثيقة إلى إباحتها وتقنينها.. وهناك «الثورة الجنسية» التي رأت إباحة وتقنين النشاط الجنسي، لكل الناشطين جنسياً، من كل الأعمار، بشرط أن يكون مسئولاً - لا يفضى إلى الأمراض- وليس مهماً أن يكون شرعياً ومشروعاً!..

* وإذا كان «الزنا المبكر»- للمراهقين والمراهقات - وحتى للأطفال - هو حقاً من حقوق الجسد الإنساني - بنص هذه الوثيقة.. التي فاقت وتفوقت على قوم لوط!.. فلقد ذهبت في الشذوذ إلى الحد الذي جرمت فيه «الزواج المبكر»!.. فقالت: «إن الهدف هو الحيلولة دون حدوث الزيجات المبكرة.. وعلى الحكومات أن تزيد السن الأدنى للزواج حيثما اقتضى الأمر.. ولا سيما بإتاحة بدائل تغني عن الزواج المبكر»!..

فالتحريم هو للزواج المبكر.. والبدائل لهذا الزواج المبكر هو النشاط الجنسي المسئول، لكل الناشطين جنسياً من كل الأعمار!

* وعلى درب مصادمة الفطرة السوية التي فطر الله الناس عليها، والتي ارتضتها وسعدت بها الإنسانية عبر تاريخها، على اختلاف الديانات والثقافات والحضارات.. فطرة تكامل عمل المرأة والرجل في الأسرة والمجتمع.. ذهبت وثيقة مؤتمر السكان إلى إدانة عمل المرأة في الأسرة؛ لأنها «أنشطة اقتصادية غير مدفوعة الأجر تضطلع بها المرأة في الأسرة»!.. وفي ذات الوقت دعت هذه

الوثيقة «إلى اشتراك المرأة فى جميع جوانب الإنتاج، والعمالة، والأنشطة المدرية للدخل»!!.. بل ودعت إلى دمج الرجل فى المنزل، ودمج المرأة فى المجتمع، فقالت هذه الوثيقة: «ويتعين على الزعماء الوطنيين والمجتمعيين أن يشجعوا مشاركة الرجل الكاملة فى حياة الأسرة، بما فى ذلك تنظيم الأسرة وتربية الأطفال والعمل المنزلى.. وإدماج المرأة بشكل تام فى الحياة المجتمعية، مع تخفيفها من مسئوليات العمل المنزلى»!!..

* * *

نعم.. يعجب المرء ذو الثقافة الشرقية والتراث الفكرى والحضارى الإسلامى، من سيطرة هذا الشذوذ الفكرى والسلوكى على المجتمعات الغربية - وهى مجتمعات زاخرة بالعابرة والعقلاء والحكماء- ومن تمكن الحركات الأثوية المتطرفة من بعث وتقنين «مذهب اللذة والشهوة»، والسعى إلى عولته، وفرضه على العالم، كجزء من حقوق الإنسان..

لكن.. يبدو- وهذا من باب التفسير لا التبرير- أن تراث الحضارة الغربية فى هذا الباب كان عوئاً لهذه النزعة الأثوية المتطرفة على الإغراق والإغراب فى هذا الميدان.. واختلاف هذا التراث الغربى - فى مذهب اللذة - عن تراثنا الشرقى والإسلامى- فى العفة - هو الذى يصيب العقل الشرقى والإسلامى بهذا القدر من الاستغراب والتعجب إزاء هذه الأفكار وهذا السلوك.

إن للغرب تراثاً قديماً فى مذهب اللذة والإباحية والشذوذ، عرف واشتهر منذ الفيلسوف اليونانى «أبيقور» [٣٤٣-٢٧٠ ق.م] الذى أعلن أن «الخير هو اللذئذ.. وأى فعل يعتبر خيراً بمقدار ما يحقق لنا من لذة»!!..

ولقد أدرك جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤-١٣١٤هـ ١٨٣٨-١٨٩٧م] - بعبريته الإسلامية - أن التنوير الغربى - وخاصة عند فلاسفته «قولتير» [١٦٩٤-١٧٧٨م] و«روسو» [١٧١٢-١٧٧٨م] - هو بعث جديد لمذهب اللذة الأبيقورى القديم، وإحياء للدهرية والإلحاد فى مواجهة الدين والإيمان.. فقال

- عن هذين الفيلسوفين التنويريين: «إنهما نبشا قبر «أبيقور» الكلبى، وأحييا ما بلى من عظام الدهريين، ونبذا كل تكليف دينى، وغرسا بذور الإباحة والاشتراك. وزعما أن الآداب الإلهية جَعَلِيَّات خرافية، كما زعما أن الأديان مخترعات أحدثها نقص العقل الإنسانى»..

وهذا الذى بعثه وأحياه التنوير الوضعى المادى الغربى - فى اللذة والإباحية- هو الذى رأيناه ونراه عند النزعة الأثوية المتطرفة، التى صعدت موجتها المجنونة مع «ما بعد الحداثة»، منذ ستينيات القرن العشرين ..

وفى إطار التراث الغربى الحديث لمذهب اللذة والإباحية هذا، نقرأ قول الفيلسوف الإنجليزى «هوبز» [١٥٨٨-١٦٧٩م]: «إن ما يسعد الإنسان ويسره هو الخير، وإن ما يؤلمه هو الشر»! .. ونقرأ قول «فوكو- ميشيل» [١٩٢٦-١٩٨٤م]- وهو من فلاسفة ما بعد الحداثة-: «تُستخلص الحقيقة من اللذة.. وتشكل اللذة غاية بذاتها، فهى لا تخضع لا للمتعة ولا للأخلاق ولا لأية حقيقة علمية»!.. ونقرأ قول «أنجلز» [١٨٢٠-١٨٩٥م] - فيلسوف الشيوعية الجنسية والاقتصادية-: «إن الزواج والأسرة باقيان مدة تأجج الحب الجنسى الفردى.. وحين يستنفد الميل استنفاداً كاملاً، أو حين يحل محله حب جديد مشبوب العاطفة، يغدو الطلاق عملاً حسنًا بالنسبة للطرفين، كما بالنسبة للمجتمع.. وإن الشيوعية سوف تحوّل العلاقات بين الجنسين إلى مجرد علاقات شخصية، لا تعنى أحداً سوى الأشخاص المرتبطين بها، ولا يكون من حق المجتمع أن يتدخل فيها، ويتحقق هذا التحول يوم يلغى النظام الشيوعى الملكية الفردية، ويشرع بتربية الأطفال تربية جماعية، فيقوض دعائم مؤسسة الزواج الحالية»!..

ونقرأ فى إطار تراث اللذة والإباحية هذا -أيضاً- كلمات المفكر الألمانى «أجست بيبل» [١٨٤٠-١٩١٣م]: «إن إشباع الغريزة الجنسية مسألة شخصية تماماً، شأنها شأن إشباع أى غريزة أخرى، فلا أحد يحاسب عليها أمام الآخرين، ولا يملك قاض غير مفوض حق التدخل فيها، إن مسألة ما سأكله، وكيف سأشرب وأنام وألبس، هى من شئونى الخاصة، وكذلك الحال بالنسبة لمضاجعتى لشخص من الجنس الآخر»!

ونقرأ كذلك، كلمات «إيجور شافاريفتش» -التي تصف دور الاشتراكية والشيوعية الأوروبية في تحطيم الأسرة، وفي الإباحية الجنسية-: «إن العملية الاشتراكية الرامية لتجانس المجتمع تهدف أصلاً لإفساد الأسرة وتحطيمها، ولن يكون ذلك إلا بتدنيس الحب الزوجي وتهشيم أحاديته (رجل واحد مع امرأة). ومن هنا فإن الحركات الاشتراكية تسعى في مرحلة التبشير إلى التأكيد على حرية الجنس.. وهذه قمة التساوى أو المساواة!». . .

وإذا كانت فوضوية ما بعد الحادثة قد اقترنت بفوضوية الإباحية الجنسية، منذ ستينيات القرن العشرين، فإن لهذه الفوضوية تراثاً أوروبياً، نجده عند فلاسفة هذه النزعة، ومنهم «باكونين» [١٨١٤-١٨٧٦م] الذي قال: «إن الدين: جنون جماعي!.. وإن الكنيسة: حانة سماوية للتخدير وأخذ المسكنات!». . .

هكذا وجدت النزعة الأنثوية المتطرفة لمذهبها في اللذة والإباحية والشذوذ، تراثاً غربياً، انطلقت منه على هذا الطريق، دوغما قيود أو حدود.. والمصيبة الكبرى أنها تسعى لتعميم هذا البلاء على الحضارات ذات الموارث المختلفة عن موارث الغربيين!..

٣- تراث الغرب في احتقار المرأة

في تفسير النزعة الصراعية، التي اتخذتها الحركة الأنثوية المتطرفة الغربية ضد الرجل، حتى لقد طمعت في عالم بلا رجال!.. وأطلقت إحدى منظماتها على نفسها اسم «حركة تقطيع أوصال الرجال»! معتبرة الرجل مستعمراً للمرأة، يعاملها معاملة الأبيض الغربي للزنجية!.. إذا ذهبنا إلى تفسير هذه النزعة الصراعية المتطرفة - دون أى تبرير لها- فلا بد أن نضع في الحسبان تراث «النزعة الصراعية» التي ميزت الحضارة الغربية وفلسفاتها ونظرياتها الأساسية..

* ففلسفة السياسة عند «ماكيافيللي» [١٤٦٩-١٥٢٧م] هي القوة.. والمجد

للأقوياء المصارعين لتحقيق السلطة القوية.. والاحتقار للأخلاق المسيحية؛ لأنها أخلاق الضعفاء والعبيد!..

* والفيلسوف الإنجليزي «هوبز» [١٥٨٨-١٦٧٩م] هو صاحب شعار: «الإنسان ذئب الإنسان»!..

* وداروين [١٨٠٩-١٨٨٢م] هو الذى حول النزعة الصراعية إلى نظرية، أراد أن يبرهن بها على أن الحياة هى ثمرة للصراع الدائم بين الأحياء.. وأن البقاء فى هذا الصراع هو للأقوى؛ لأن الأقوى هو الأصلح والأحق بالبقاء!..

* و«هيجل» [١٧٧٠-١٨٣١م] الذى اعتبر - فى الحداثة الغربية أرسطو العصر - هو الذى جعل التاريخ حقبا تنسخ الواحدة فيه الأخرى، لينتهى هذا التاريخ عند الدولة القومية الأقوى!..

* و«ماركس» [١٨١٨-١٨٨٣م] هو الذى نقل هذه النزعة الصراعية من عالم الأحياء إلى الاجتماع، فرأى أن المطلق هو التناقض والصراع بين الطبقات.. وأن هذا التناقض والصراع هو سر التقدم والمحرك للتاريخ!..

ولقد استمرت هذه النزعة الصراعية، مكوّنًا أساسيًا فى النظريات الغربية، وفى الممارسات الإمبريالية الغربية مع الشعوب التى ابتليت بالاستعمار الغربى، حتى لقد رأى الرجل الأبيض الغربى فى صراعه ضد الشعوب غير الغربية وثقافتها وموارثها الحضارية ومنظوماتها القيمية رسالة حضارية تمدنية، يطبق بها الرجل الأبيض «القانون العلمى» فى الصراع!.. *

وهو ذات الفكر الذى نراه اليوم عند «صموئيل هتتنجتون» فى [صدام الحضارات].. وعند «فوكوياما» فى [نهاية التاريخ].. وهو ذاته الفكر الصراعى الذى تبنته الحركة الأنثوية الغربية المتطرفة ضد عموم الرجال.. فهو - إذن - التراث الغربى، فى النزعة الصراعية، الذى انطلقت منه هذه الحركة الأنثوية المتطرفة..

وفى تفسير هذا الغلو الذى سلكت طريقه هذه الحركة الأنثوية الغربية، عندما لم تقنع بتحرير المرأة وإنصافها.. فطمعت فى عالم تنفرد به المرأة، وتتمكن من التمرکز فيه حول ذاتها، مطلقة عنان الفوضوية لمفهومها عن حرية المرأة - فى تفسير هذا الغلو - دون تبريره - لا بد أن نرى هذا الغلو الأنثوى فى سياق نزعات الغلو التى تميزت بها المسيرة الحضارية الغربية.. فالغلو الكهنوتى، الذى جعل الدنيا والدولة وسائر العلوم دينًا خالصًا، لها ثبات الدين وقداسته.. هو الذى أثمر رد فعله، الموازى والمساوى له.. أثمر الغلو العلمانى، الذى جعل الإنسان سيدًا للكون، بدلاً من الله.. وأضفى على العقل الإنسانى الإطلاق، بدلاً من الدين واللاهوت، وذلك عندما رفع شعار: «لا سلطان على العقل إلا للعقل»!.. وعزل السماء عن الأرض، بالعلمانية التى رفضت أى تدبير سماوى أو رعاية إلهية للدولة والسياسة والاجتماع، بل وللقيم والأخلاق أيضاً!..

فنحن - فى المسيرة الحضارية الغربية - أمام نزعة للغلو، سارية فى العديد من النظريات، ومتخذة شكل الثنائيات المتناقضة والمتصارعة: «العقل.. والنقل».. «الفرد.. والمجموع».. «الذات.. والآخر».. «الدين.. والدولة».. «الدنيا.. والآخرة».. «عالم الغيب.. وعالم الشهادة».. «المادية.. والروحانية».. ودونما وسطية جامعة، تجمع عناصر الحق والعدل من الأقطاب المتقابلة، لتكون موقفاً ثالثاً متميزاً لكنه ليس مغايراً تماماً لقطبى الظاهرة..

فلغلو النزعة الأنثوية المتطرفة - أيضاً - تراث فى الغلو الذى تميزت به مسيرة النظريات الفكرية فى النموذج الحضارى الغربى بوجه عام.

ويكفى فى هذا المقام أن نشير إلى نماذج من احتقار المرأة فى التراث الغربى، لنرى كيف كان غلو الحركة الأنثوية الغربية تطرفاً يعالج تطرفاً آخر، وجنوحاً إلى التمرکز حول الأنثى يواجه جنوحاً آخر فى احتقار الإناث!..

* ففى التراث الفلسفى الغربى.. نقرأ «لسقراط» [٤٧٠-٣٩٩ ق.م]: «للرجال

السياسة وللنساء البيت»!.. ونعرف أن «أفلاطون» [٤٢٧-٣٤٧ ق م] كان مشجعاً للشذوذ الجنسي - الذى كان شائعاً فى المجتمع اليونانى.. ويقال إنه كان شاذاً.. «وكان يأسف لأنه ابن امرأة!.. وظل يزدرى أمه لأنها أنثى!.. وكان يرى أن الحب الحقيقى هو ما كان بين الرجل والرجل، ويرى الجمال المبهج فى الشبان»!.. ولقد دعا - فى جمهوريته - إلى «أن نساء محاربينا يجب أن يكن مشاعاً للجميع، فليس لواحدة منهن أن تقيم تحت سقف واحد مع رجل بعينه منهم، وليكن الأطفال أيضاً مشاعاً بحيث لا يعرف الأب ابنه ولا الابن أباه»!.. كما دعا إلى «تدريب النساء وهن عاريات تماماً مع الرجال فى الحلبة»!.. وقال أيضاً: «على نساء الحراس أن يقفن عاريات، ما دمن سيكتسين برداء الفضيلة»!..

ونعرف - أيضاً - أن «نيتشه» [١٨٤٤-١٩٠٠ م] هو القائل: «إذا قصدت النساء فخذ السوط معك»!.. وأن «فرويد» [١٨٥٦-١٩٣٩ م] قد زعم «أن الرجل يمثل كامل الإنسانية.. وأن المرأة، بما أنها ليست رجلاً، أو أنها رجل ناقص جسدياً- إذ لا قضيب لها - تعيش آسفة أن لا تكون رجلاً»!..

فهذا الغلو فى احتقار المرأة - بالتراث الفلسفى الغربى - قد أثمر غلوً سلك طريقه الحركات الأنثوية الغربية..

* ومثل ذلك الغلو فى احتقار المرأة ودونيتهها، نجده فى التراث الدينى الغربى..

فالخطيئة الأولى - التى حملت البشرية تبعات أوزارها - هى - فى هذا التراث - مسئولية المرأة وحدها!..

والحمل والولادة واشتياق المرأة لزوجها هى عقوبة أبدية للمرأة على ارتكابها للخطيئة الأولى!..

والزواج ليس مودة ورحمة، وإنما هو تسلط من الرجل على المرأة!..

هكذا جاء فى سفر التكوين- بالعهد القديم.. فلقد سأل الرب آدم:

- «هل أكلت من ثمر الشجرة التى نهيتك عنها؟»

- «فأجاب آدم: إنها المرأة التى جعلتها رفيقًا لى، هى التى أطعمتنى من ثمر الشجرة فأكلت» .

- فقال الرب للمرأة «أكثر تكثيراً أوجاع مخاضك، فتنجبى بالآلام أولادًا، وإلى زوجك يكون اشتياقك، وهو يتسلط عليك»! . . .

وفى هذا التراث اليهودى- الذى أصبح مع المسيحية تراثًا للحضارة الغربية اليهودية-المسيحية - يصلى اليهودى كل صباح صلاة الشكر لله؛ لأنه لم يخلقه عبدًا ولا وثنيًا ولا امرأة!.. وللرجل- فى هذا التراث - قتل أولاده وتقديمهم قرابين!.. وله بيع بناته إماء!.. وفى سفر الخروج «إذا باع رجل ابنته أمة لا تخرج كما يخرج العبيد»! . . .

ولم يكن موقف التراث النصرانى للحضارة الغربية من المرأة بأفضل من التراث اليهودى . . . ففى رسالة «بولس» الأولى إلى أهل «كورنثوس»: «ذلك لأن الرجل عليه ألا يغطى رأسه، باعتباره صورة الله ومجده، أما المرأة فهى مجد الرجل، فإن الرجل لم يؤخذ من المرأة، بل المرأة أخذت من الرجل، والرجل لم يوجد لأجل المرأة، بل المرأة وجدت لأجل الرجل، لذا يجب على المرأة أن تضع على رأسها علامة الخضوع»... [إصحاح ١١: ٧-١١].

وفى هذه الرسالة أيضًا: «لتصمت النساء فى الكنائس، فليس مسموحًا لهن أن يتكلمن، بل عليهن أن يكن خاضعات على حد ما توصى به الشريعة أيضًا، ولكن إذا رغبن فى تعلم شىء ما فليسألن أزواجهن فى البيت، لأنه عار على المرأة أن تتكلم فى الجماعة» [إصحاح ١٤: ٣٥].

وبسبب هذا الموقف المحتقر للمرأة، رفضت وترفض كل الكُنىس اليهودية وجميع الكنائس النصرانية - ونحن فى القرن الواحد والعشرين- أن تحمل المرأة شرف الكهنوت وولاية رجل الدين، وحمل أمانة الدين وأسرار اللاهوت . . .

بينما حملت المرأة هذه الأمانة- فى الإسلام- منذ اللحظة الأولى لظهور الإسلام! . . .

ولقد ظل هذا الموقف المحتقر للمرأة، فى التراث الدينى للحضارة الغربية، ثابتاً ومرعياً . . . فالقديس «بونافتيرا» [١٢٢١-١٢٧٤م] يقول: «إذا رأيت المرأة فلا تحسبوا أنكم شاهدتهم موجوداً بشرياً ولا موجوداً موحشاً؛ لأن ما ترونه هو الشيطان نفسه. وإذا ما تكلمت فإن ما تسمعون هو فحيح الأفعى»! . . .

أما القديس «توما الأكوينى» [١٢٢٥-١٢٧٣م] فهو القائل: «لا وجود فى الحقيقة إلا لجنس واحد، هو الجنس المذكر، وما المرأة إلا ذكر ناقص، ولا عجب إن كانت المرأة - وهى الكائن المعتوه والموسوم بميسم الغباء - قد سقطت فى التجربة - [الخطيئة الأولى] - ولذلك يتعين عليها أن تظل تحت الوصاية»! . . .

أما القديس «أغسطين» [٣٥٤-٤٣٠م] فلقد دعا إلى «إخضاع النساء للرجال كما يخضع العقل الضعيف للعقل الأقوى»! . . .

فهل نجد غرابة فى غلو النزعة الأنثوية المتطرفة، عندما تركزت حول ذاتها، واحتقرت الرجل، وأعلنت عليه الحرب . . . هل نجد غرابة فى رد الفعل المغالى هذا أمام هذا التراث الدينى للحضارة الغربية، ذلك الذى حمل كل هذا الازدراء والاحتقار والدونية تجاه الإناث، مطلق الإناث؟! . . .

لقد اكتفت «الحداثة» الغربية - منذ عصر التنوير فى القرن الثامن عشر - بتأويل هذا التراث الدينى - «اليهودى - النصرانى» - أما «ما بعد الحداثة»، فإنها لم تقنع بالتأويل، فتجاوزته إلى إعلان الحرب على هذا التراث - الذى رأته تراثاً ذكورياً، لا بد أن يتحول عن ذكوريته - . . . ولقد عاملت ما بعد الحداثة هذه المنظومة الدينية والقيمية والأخلاقية معاملة لها لكل الأنساق الفكرية الحداثية، فاجتاحتها بالفوضوية والعدمية والتفكيك . . .

وفى إطار ما بعد الحداثة هذه كان غلو النزعة الأنثوية المتطرفة رد الفعل

المغالى على الاحتقار والدونية تجاه المرأة فى تراث الحضارة الغربية، الفلسفى منه والدينى على حد سواء! . .

٤- الثمرات المرة للشذوذ الضكرى

لم يكن موقف التراث الغربى، القانونى والسياسى، إزاء احتقار المرأة ودونيتها بأقل غلوًا من موقف التراث الفلسفى والدينى. . وفى هذا تفسير - وليس تبريرًا - لغلو النزعة الأنثوية الغربية فى الرفض لكل هذه الموارىث.

* ففى القانون الرومانى -الذى يمثل مع الفلسفة اليونانية كلاسيكيات النهضة الأوروبية - كان الاحتقار للمرأة، وحذفها من الحياة، هما موقف هذا القانون. . فلم يكن للعبد ولا للمرأة أى كيان. . وكل الحقوق وجميع الشرف كانا وفقًا على الرجال السادة الملاك الأشراف من الرومان. . ومن عدا هؤلاء - وفيهم جميع النساء والعبيد والفقراء وسكان المستعمرات - هم برابرة وهمج، محرومون من كل الحقوق. . حتى حقوق تطبيق القانون الرومانى عليهم! .

* وحتى التراث السياسى والقانونى للثورة الفرنسية -سنة ١٧٨٩م- لم يكن موقفه من المرأة بأحسن حالاً ولا أقل احتقاراً لها من الموارىث الغربية فى الفلسفة. . والدين. . والقانون.

ورغم إسهام المرأة فى هذه الثورة، فلقد أعدمته حكومة الثورة داعية حقوق النساء «مارى كور» سنة ١٧٩٣م. . وأغلقت جميع النوادى والجمعيات النسائية. . بل وقررت الجمعية التأسيسية - التى لا يزال المتغربون يتغزلون فيما أصدرت من موائيق لحقوق الإنسان والمواطنة - أصدرت هذه الجمعية التأسيسية قراراً يقول: «إن الأولاد، وفاقدى العقل، والقاصرين، والنساء، والمحكومين بعقوبات بدنية وشائنة، لن يكونوا مواطنين»! . .

لقد جردت هذه الثورة المرأة من حقوق المواطنة. . حتى شاع فى الفكر الاجتماعى والسياسى الغربى:

- «أن المرأة سوداء بالنسبة للرجل الأبيض»!..

- «وأن النساء آخر مستعمرة للرجل»!..

واستمر هذا الوضع المزرى والدونى للمرأة -بدرجات متفاوتة فى المجتمعات الغربية - حتى منتصف القرن العشرين.. ففى سنة ١٩٠٣م كانت سيدة مصرية -نفيسة إسماعيل باشا حمدى- مالكة لبعض الأسهم فى شركة قناة السويس - الفرنسية - فلما طلبت من الشركة بيع أسهمها، كان جواب الشركة أن هذا ليس من حقها، وإنما هو حق زوجها؛ لأن القانون الفرنسى - حتى سنة ١٩٠٣م - لم يكن يعترف بحق المرأة فى التصرف بأموالها!.. ولما استفتت المرأة مفتى الديار المصرية يومئذ، الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٥-١٣٢٣ هـ ١٨٤٩-١٩٠٥م] أفتى برأى الإسلام الذى قرر للمرأة ذمة مالية مستقلة، وحرية فى التملك والاستثمار والإنفاق، مثلها مثل الرجل تماماً، منذ ظهور الإسلام!..

وظلت المرأة الأمريكية محرومة من الحقوق المدنية، وتعامل معاملة الزوج، حتى أصدر الكونجرس الأمريكى إعلان الحقوق المدنية فى سنة ١٩٦٤م!..

وإلى ما قبل سنة ١٩٢٠م كان الفكر السائد فى أمريكا يقول: «لأن المرأة والعبيد قد وهبوا أنفسهم لتوفير احتياجات الحياة، فقد تمتع رجل الأسرة بحرية الاشتغال بالسياسة»!.. وحتى ستينيات القرن العشرين، وقبل سن الكونجرس الأمريكى لإعلان الحقوق المدنية سنة ١٩٦٤م، «لم تكن مسئولية المرأة الأمريكية عن تصرفاتها تزيد على مسئولية الأطفال والحمقى والمجانين»!..

بل وحتى اليوم.. فإن ٢٥٪ من نساء أمريكا ما زلن يتقاضين أجوراً أقل من الرجال عن العمل المتساوى، فى ذات الموقع، وبذات المؤهلات!.. ونسبة النساء المحرومات من تكافؤ الفرص فى الحصول على العمل هى ضعف نسبتها فى الرجال!.. ولم يدخل مجلس الشيوخ الأمريكى سوى امرأة واحدة!.. أما مجلس

النواب فلم تزد عضواته عن إحدى عشرة امرأة!.. ومن بين ٦٧٥ قاضياً فيدرالياً ليس هناك سوى ٨ قاضيات!..

فهل يستطيع منصف أن ينكر صلة احتقار التراث الغربى للمرأة - الفلسفى منه.. والدينى.. والقانونى.. والسياسى - وغلو هذا التراث فى هذا الاحتقار برد الفعل العنيف فى غلوه، ذلك الذى اتخذته الحركة الأنثوية فى الغرب تجاه الرجل.. والدين.. والله.. واللغة.. والتراث.. والتاريخ.. والقيم.. والعادات والتقاليد والأعراف!؟.. إنها دوامة الغلو، فى الأفعال وفى ردود الأفعال، تلك التى حكمت موقف التراث الغربى من المرأة، وموقف المرأة من هذا التراث.. وهى الدوامة التى أثمرت - من بين ما أثمرت - حركة أنثوية - فى أمريكا - ٦٠٪ من أعضائها سحاقيات.. وجعلت هؤلاء السحاقيات يسيطرن على لجنة المرأة فى الأمم المتحدة، فيصغن شذوذهن «دينًا» جديداً لقوم لوط الجدد، ثم يعملن على عوامة هذا «الدين» الشاذ والبائس فى أرجاء العالمين!..

لقد عرفت الحداثة الغربية الصحيحات المنكرة التى زعمت «موت الإله».. و«موت الميتافيزيقا» (أى الغيب والدين).. ثم جاءت ما بعد الحداثة الغربية بالفوضوية والعدمية واللاأدرية، فزعمت «موت المؤلف».. و«موت الحقيقة».. و«موت المعنى».. و«موت التاريخ».. و«موت الأسرة».. و«موت العفة».. و«موت الحياء».. وأخيراً - فى النزعة الأنثوية المتطرفة - «موت الرجل».. بل لقد تحدث البعض - من الغربيين - عن «موت الغرب» - الذى أعلن كل هذه الوفيات!!..

ولقد كان طبيعياً أن يثمر هذا الشذوذ الفكرى للحركات الأنثوية شذوذاً فى الممارسة والسلوك.. وكان طبيعياً لكل ذلك أن يثمر الثمرات المرة والبائسة فى تلك المجتمعات.. وهى ثمرات تعبر عنها الأرقام الصارخة، التى تنظر فى شذر واستغراب للقلّة من النساء الشرقيات اللاتى ما زلن يبشرن بالنموذج

الغربي فى «تحرير» المرأة، وللقلة المتغربة من مثقفينا الذين يتجاهلون الواقع الاجتماعى البائس لكثير من المجتمعات الغربية، فلا يرفعون عن الدعوة إلى «الحاق بالغرب» وإلى التبشير بالنموذج الغربى حلاً للمأزق الذى يعيش فيه العرب والمسلمون..

إن الثمرات المرة للشذوذ الفكرى وللثورة الجنسية التى قنتها المجتمعات الغربية حقوقاً للإنسان، تجسدها الأرقام التى تقول:

* إن ٩٥٪ من الجنسين فى السويد عندهم تجارب جنسية قبل الزواج.. لا كمجرد نزوة أو خطأ.. وإنما كممارسة طبيعية وعادية.. تبدأ منذ التلمذة فى المدارس، التى يتم فيها التدريب - نعم التدريب - على الممارسة الجنسية والنشاط الجنىسى.. والتى تقوم فيها صيدليات لتوزيع الواقى الذكرى وحبوب منع الحمل على التلاميذ والتلميذات.. وتتم فيها الرعاية للحوامل المراهقات!..

* وفى النمسا: - سنة ١٩٨٥م - ٥٩٪ من حوادث الطلاق تتم بسبب العنف المنزلى!..

* وفى انجلترا: أكثر من ٥٠٪ من القتيلات كن ضحايا الزوج أو الشريك.. وفى سنة ١٩٩٢م ارتفع العنف المنزلى ٤٦٪.. وبلغت نسبة النساء اللاتى يتعرضن لضرب الزوج أو الشريك ٢٥٪ من النساء!.. وفى سنة ١٩٨١م كانت نسبة النساء اللاتى يعشن مع رجل دون رباط رسمى ٨٪.. فارتفعت هذه النسبة سنة ١٩٨٨م إلى ٢٠٪ وكانت نسبة العائلات المنفردة - أى الأطفال الذين يعيشون مع عائل واحد - ١٤٪ سنة ١٩٦١م.. فارتفعت إلى ٢٧٪ سنة ١٩٩١م.. وتشكل النساء ٩٠٪ من هذه العائلات المنفردة.. وفى سنة ١٩٨٤م كانت نسبة طلب الزوجة للطلاق ٧١٪ من حالات الطلاق.. وعدد حالات الطلاق ١٦٠,٠٠٠ حالة، بينما كان هذا العدد قبل خمسين عاماً ٧,٠٠٠ حالة فقط - أى أن الزيادة بلغت ثلاثة وعشرين ضعفاً! وتراجعت

نسبة الزواج ١٦٪. . . وأصبحت نسبة الأطفال غير الشرعيين ثلث أطفال إنجلترا. . . وهم فى إيسلندا ٥٧,٣٪ من الأطفال! . . .

* وفى الدنمارك: كانت نسبة المواليد غير الشرعيين ٥٪ سنة ١٩٦٠م. . . فارتفعت إلى ١١٪ سنة ١٩٧٠م. . . ثم إلى ٣٣٪ سنة ١٩٨٠م. . . ثم إلى ٤٦٪ سنة ١٩٩٠م. . . وقريب من هذه النسبة فى الدول السبع الغنية فى أوروبا - فرنسا وبريطانيا وألمانيا وإيطاليا وهولندا وإيرلندا- . . .

* وفى ثلاث دول أوروبية فقط - هى ألمانيا وبريطانيا وفرنسا - ٢٥ مليون امرأة تعيش وحيدة، إما لعدم الزواج، أو بسبب الطلاق والتفكك الأسرى. . .

* وفى بنجلاديش والبرازيل وكندا وكينيا وبابوا - فى استراليا- وغينيا الجديدة وتايلاند، تمثل جرائم قتل الشريك لشريكته أزيد من نصف جرائم القتل ضد النساء! . . .

* وفى الفيليبين وسريلانكا وتايلاند تعمل نصف مليون طفلة فى البغاء الرسمى - فقط الرسمى - للأطفال! . . .

* والإنفاق العالمى سنة ١٩٩٩م على تجارة الدعارة يبلغ ٢٠ تريليون دولار. . . وهذه هى التجارة العالمية الثالثة، بعد تجارة السلاح. . . وتجارة المخدرات! . . .

* وفى هذا العالم ٦٠ مليون امرأة تحاول الإجهاض كل عام. . . وهو ما يعنى قتل ٦٠ مليون طفل سنوياً! . . . حتى لكأن حرب الإباحية الجنسية التى أعلنتها الحركات الأنثوية المتطرفة قد فاقت فى ضحاياها كل الحروب العالمية! . . .

ومع إباحة الإجهاض فى روسيا سنة ١٩٢٠م. . . وفى إنجلترا سنة ١٩٦٧م. . . وفى كندا سنة ١٩٦٩م. . . وفى أمريكا سنة ١٩٧٣م، فلقد استمرت نسبة المواليد غير الشرعيين فى الازدياد! . . .

* أما أمريكا، التى تريد عولة نموذجها القيمى، وفرض طريقته فى الحياة

على العالمين، فإن ٨٠٪ من نسائها قد فقدن البكارة قبل الزواج. . . وفى سنة ١٩٨٤م حدث ٢٩٢٨ حادثة قتل على يد أحد أفراد العائلة. . . وثلاث القتلات قتلن على يد الزوج أو الشريك. . . وأكثر من مليون امرأة سنوياً تُبلغ الشرطة باعتداء زوجها أو شريكها عليها. . . و٩١٪ من الاعتداءات لا تبلغ للشرطة. . . وتقتل يومياً أربع نساء بسبب الضرب المبرح بالمنزل. . . ومن ٢ إلى ٤ ملايين امرأة تتعرض للاعتداء عليها سنوياً. . . و١,٥ مليون زيارة للطبيب تتم سنوياً بسبب اعتداء الزوج. . . وفى سنة ١٩٩٣م كانت تغتصب امرأة كل دقيقة، وغالب الضحايا فى سن تقل عن ١٧ عاماً. . . وفى أمريكا أعلى نسبة طلاق فى العالم. . . ونصف عدد الزوجات ينتهى بالطلاق. . . ولقد نشرت مجلة (يو.إس. نيوز) - فى أغسطس سنة ١٩٩٤م دراسة عن مكتب الإحصاء تقول: إن ٢٧٪ من أطفال أمريكا - ١٨ مليون طفل - يعيشون مع أحد الوالدين. . . بعد تفكك الأسرة - وهذا الرقم هو ضعف ما كان عليه سنة ١٩٧٠م. . . وغالب هؤلاء الأطفال يعيشون على الإعانات الاجتماعية للدولة. . . وهم الأكثر تعرضاً للفقر والحرمان. . . والأكثر رسوباً فى المدارس. . . و٨٠٪ من جرائم القتل عائلية. . . و٤٨٪ منها مسرحها البيت. . . ومن سنة ١٩٦٠م إلى سنة ١٩٩٠م ارتفعت معدلات الجريمة ٥٠٠٪! . . . وفى سنة ١٩٨٥م كان فى أمريكا نصف مليون مدمن هيروين ومليون متعاطى مهلوسات و٢٠ مليون متعاطى ماريجوانا أو كانابيس و٦ ملايين مزور وصفات طبية للحصول على المخدرات و٢٠ مليون متعاطى كوكايين بصورة منتظمة - ومجموعهم نحو من ٤٧,٥ مليون أمريكى، أى نحو ٢٠٪ من سكان أمريكا! . . . وهناك ربع مليون مراهق يقتل سنوياً بسبب المخدرات. . . وفى إحصاء سنة ١٩٨٥م فإن ثلثى طلبة الثانوية العامة فى أمريكا يتعاطون أحد أنواع المخدرات و٩٣٪ منهم يشربون الخمر. . . وحوالى ٤٠٪ منهم يشربونها بإفراط! . . .

ولقد بلغ عائد الأسهم الأمريكية - التى يقولون إنها «نهاية التاريخ» - بلغ

عائدها من الاستغلال الجنسي لدعارة الأطفال - الأطفال فقط - مليارى دولار سنوياً!..

ومع كل هذه الإباحية فلقد تناقص عدد سكان أمريكا - بالنسبة للعالم - من ٦٪ سنة ١٩٥٠م إلى ٥٪ سنة ١٩٨٨م.. إلى ٤٪ سنة ٢٠١٠م - كما هو متوقع!..

* أما فرنسا: فإن تقرير «المعهد الوطنى الفرنسى للأبحاث الديموجرافية» - ديسمبر سنة ١٩٩٩م - يقول: إن من بين كل عشرة أزواج يوجد تسعة منهم خارج الإطار الشرعى للزواج - أى بدون عقد كنسى أو مدنى أو حتى عرقى!.. وإن ٥٣٪ من الأمهات الفرنسيات يضعن مولودهن الأول خارج مؤسسة الزواج.. وربع هؤلاء المواليد يفقدون الأب مدى الحياة.. وهذه النسبة فى زيادة مطردة، فلقد كانت ٦٪ سنة ١٩٦٧م.. ووصلت إلى ٢٠٪ سنة ١٩٨٥م.. وتجاوزت الـ ٤٠٪ سنة ١٩٩٧م.

فهل بعد هذا الجنون الفكرى والأخلاقى للحركات الأنثوية الغربية.. وهذه الثمرات الاجتماعية المرة والمدمرة، يجوز لنفر من المتغربين والمتغربات فى بلادنا الدعوة إلى اتخاذ ذلك النموذج الغربى فى «تحرير» المرأة قدوة لنا نحن العرب والمسلمين؟.. والدعوة إلى اللحاق بالغرب فى هذا الميدان؟!.. أى الدعوة إلى السقوط فى هذا المستنقع الذى تجاوز أصحابه ما ذهب إليه القدماء من قوم لوط.. أولئك الذين استحقوا سخط الله وغضبه، فأُنزل عليهم ما أنزل من العذاب!.. وهل هذا هو «التقدم».. وهذه هى «التقدمية» التى يدعوننا إليها هؤلاء المتغربون البؤساء؟!..

٥- التقليد الأعمى لهذا الشذوذ الفكرى

لو أن الأفكار والفلسفات والممارسات الشاذة للحركة الأنثوية الغربية، والتى تدعو إلى التمرکز حول الأنثى، والطمع فى استقلال المرأة عن عالم

الرجال، حتى ولو بالشذوذ السحاقى . . واعتبار المعركة ضد الرجل . . ومحاربة الزواج الشرعى، والأسرة، والإنجاب . . والثورة على الله . . والدين . . واللغة . . والتاريخ . . والفطرة . . والأعراف . .

لو أن هذه الأفكار والفلسفات والممارسات كانت وقفًا على المؤمنين والمؤمنات بها، والداعين والداعيات إليها - فى الغرب - لما استحققت منا كثير اهتمام . . بل لو أن هذه الأفكار والفلسفات الشاذة كانت مذهبًا للحضارة الغربية، لقلنا: إن هذا هو حقهم فى الاختيار وفى الاختلاف . . ولكل وجهة هو مولياها . . وليس فى جهنم أزمة إسكان!

لكن الذى يفرض علينا الاهتمام بهذا الشذوذ الفكرى، الذى وضع فى الممارسة والتطبيق، هو أن الغرب، كحضارة مهيمنة، يفرض علينا - نحن المسلمين والشرقيين - وعلى كل عالم الجنوب هذه الأفكار والفلسفات، وذلك عندما يعولها، ويضع عليها أختام وشعارات وأعلام منظمات دولية - التى يسيطر عليها . . والتى استولت الحركة الأنثوية الغربية المتطرفة على لجنة المرأة فيها . . ونجحت فى صياغة هذا الشذوذ «وثائق دولية» منذ مؤتمر السكان سنة ١٩٩٤م وحتى اتفاقية ال CEDAW ووثيقة حقوق الطفل . . فغدا هذا العوج الفكرى والشذوذ السلوكى جزءًا من المنظومة الغربية التى يراد فرضها - بالعولمة - على العالمين . .

ومن نافذة التغريب، الذى نجح فى تحويل نفر من مثقفينا إلى «صنابير» يسيل منها كل ما هو غربى، بدأ التبشير فى بلادنا بهذا الشذوذ الفكرى فى الحركة النسوية الشرقية - العربية والإسلامية .

* فالكاتبة المغربية «فاطمة المرينسى» - التى تعيش فى باريس وتكتب بالفرنسية - تقول: «لقد قدس الزواج الإسلامى هيمنة الرجل المطلقة»! . .

* والكاتب السورى «د. محمد شحرور» يرى أن عورة المرأة هى - فقط -

ما بين الإلية وما تحت الإبطين والشديين، وما عدا هذه «الجيوب» من جسد المرأة لا عورة فيه، ولا جناح فى عرضه على الكافة!..

* والكاتب الفلسطينى «د. هشام شرابى» - الذى أصبح أمريكياً، يكتب بالإنجليزية - يدعو «إلى ترجمة القرآن للغة العامية ليحصل له ما حصل للكتاب المقدس فى المناخ الأوروبى»!.. كما يدعو إلى تعميم «الأثاتوركية» فى العالم الإسلامى، لاستئصال التقاليد الإسلامية!..

* والكاتب المصرى المرموق «أحمد بهاء الدين»، يدعو إلى ربط الأخلاق بالضمير، بدلاً من الإسلام.. وإلى تاريخية الشريعة الإسلامية، باعتبارها «شريعة البداوة» التى لا تصلح للمجتمعات المتحضرة، فيقول: «لا بد من مواجهة الدعوات الإسلامية فى أيامنا مواجهة شجاعة، بعيداً عن اللف والدوران. إن الإسلام، كغيره من الأديان، يتضمن قيماً خلقية يمكن أن تستمد كنوع من وازع الضمير، أما ما جاء فيه من أحكام وتشريعات دنيوية، فقد كانت من قبيل ضرب المثل، ومن باب تنظيم حياة فى مجتمع بدائى إلى حد كبير، ومن ثم فهى لا تلزم عصرنا ومجتمعنا..!»

* أما الأديبة المصرية «د. نوال السعداوى»، فلقد ذهبت إلى حد القول: «شعرت أن الله تحيّر للصبيان فى كل شىء»!..!

ولم يقف زحف هذا الشذوذ الفكرى عند قطاعات النخبة المتغربة.. وإنما ذهبت العولة إلى استخدام التمويل لمئات المنظمات - التى تسمى «منظمات المجتمع المدنى» - التى تبشر بهذا العوج الفكرى، والتى يحدد لها الغرب جدول أعمالها مع الميزانيات التى تمول تنفيذ جدول الأعمال هذا..

ولمعرفة حجم هذا الاختراق، يكفى أن نعلم حالة المناطق المحتلة سنة ١٩٦٧م من فلسطين.. ففيها ١٢٠٠ منظمة غير حكومية، تلقت سنة ١٩٩٧م معونات قدرها ٦٨,٩ مليون دولار، من أصل إجمالى المعونات المقدمة

لفلسطين والبالغه ١٥٢٧ مليون دولار. أى أن هذه المنظمات - العاملة فى خدمة الأجنحة الاجتماعية الغربية - قد حصلت على ٥٪ من المعونات، بينما لم تحصل الزراعة والصناعة الفلسطينية إلا على ٢٤ مليون دولار، أى ١,٢٪ من المعونات! ..

وعن رسالة هذه المنظمات، تقول الباحثة الفلسطينية «خلود المصرى»: «إن الأطر النسوية المدعومة لا تخرج فى وضع أولوياتها عن الالتزام بأولويات وثقافة الجهات المانحة لها من أجل استمرار الدعم المالى فحسب، وهى بالضرورة تختلف عن أولويات مجتمعنا الفلسطينى».

ويكفى أن نشير إلى أن هذه المنظمات، «التي تضرب بسيوف الممولين»! قد أقامت الدنيا ولم تقعد لها حول موضوع «ختان الإناث» -الذى هو عادة قديمة منذ الفراعنة، وليس تشريعاً دينياً. . والذى تقل ممارسته بالتطور الاجتماعى والتعليمى -فى الوقت الذى صمت فيه هذه المنظمات «النسائية» عن الاغتصاب المنظم الذى مارسه الصرب ضد أكثر من ستين ألف امرأة بوسنية، تحت سمع وبصر الممولين الغربيين! . . فضلاً عن الصمت القاتل لهذه المنظمات إزاء ما يحدث للمرأة الفلسطينية بواسطة الوحشية «الصهيونية -الأمريكية»! ..

إن أحداً لا يطلب إغلاق المنافذ الفكرية التى يأتى منها الوافد الغربى، حتى ولو كان هذا الوافد شاذاً - كأفكار الحركة الأنثوية الغربية المتطرفة - لكننا ندعو، عند تبني الأفكار الوافدة، إلى النظر فى سياقها وملابساتها والمواريث الفكرية والدينية والقانونية والسياسية التى أثمرتها، لندرك هل هى «مشارك إنسانى عام» نفتح له عقولنا ومجتمعاتنا؟ . . أم أنها ردود فعل مغالية لفعل مغالٍ فى احتقار المرأة ودونيتها؟ ..

لقد ثارت الحركة الأنثوية الغربية ضد الدين - فى اليهودية والنصرانية-

الذى حمل المرأة وحدها وزر الخطيئة الأولى، والذي جعل زواجها واشتياقها لزواجها وحملها وولادتها عقوبة لها على هذه الخطيئة، إلى غير ذلك من الأفكار، التى حملت الكثير من التمييز ضد المرأة إلى حد الدونية والاحتقار. فإذا جاز تفسير أو حتى تبرير ثورة الحركة الأنثوية الغربية ضد موروثها الدينى باعتباره رد فعل مغالى فيه ضد تراث مغالٍ فى احتقارها كامرأة.. فهل يجوز لعاقل أن يأخذ هذه الثمرة الغربية والنتيجة الغربية - وهى خصوصية غربية - ليغرسها فى سياق إسلامى، موارثة الدينية والحضارية مغايرة تماماً - بل مناقضة - لهذه الموارث الغربية؟!

* لقد حملت اليهودية المرأة كل أوزار الخطيئة الأولى، وبرأت آدم منها.. وذلك عندما سأل الرب آدم - كما جاء فى سفر التكوين - :
-هل أكلت من ثمر الشجرة التى نهيتك عنها ؟ ..

-فأجاب آدم: «إنها المرأة التى جعلتها رفيقاً لى هى التى أطعمتنى من ثمر الشجرة فأكلت».

-فقال الرب للمرأة: «أكثر تكثيراً أو جاع مخاضك، فتنجبى بالآلام أولاداً، وإلى زوجك يكون اشتياقك، وهو يتسلط عليك»!

فإذا جاءت الحركة الأنثوية الغربية لتثور على هذا التراث الدينى، الذى كتب عليها اللعنة.. وتثور على الزواج والإنجاب، اللذين تحدث عنهما هذا التراث كعقاب!.. فهل يجوز لأى منا أن يردد هذه المقولات كالببغاوات، ويسير فى طريق التقليد لهذه الموارث السغرية وردود أفعالها، كما يصنع القردة المحترفون للتقليد؟! .

إن القرآن الكريم قد أرسى دعائم المساواة بين آدم وحواء.. فهما مخلوقان من نفس واحدة.. ومتساويان فى أهلية الخطاب الإلهى لهما.. وفى

التكليف . . وفى وسوسة الشيطان لهما معاً . . وفى استجابتهما معاً لهذه الوسوسة الشيطانية . . وفى الفعل . . وفى نتيجة الفعل . . وفى المراجعة . . وفى العتاب . . وفى الأوبة والتوبة . . وفى القبول والغفران . . متساويان فى كل ذلك، كما جاء فى القرآن الكريم: ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَينِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلَاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٢) قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف: ١٩-٢٥].

بل إن القرآن الكريم كأنه يحمل آدم قدراً أكبر من المسؤولية، فيقول: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: ١٢١].
﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَى وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ [طه: ١١٥].

فهل هناك عقل لدى الذين يشورون على هذا القرآن تقليداً للذين ثاروا على العهد القديم؟! . .

وإذا كانت النصرانية قد جعلت «الرجل صورة الله ومجده، أما المرأة فهي مجرد الرجل. والرجل لم يؤخذ من المرأة، بل المرأة أخذت من الرجل، والرجل لم يوجد من أجل المرأة، بل المرأة وُجدت لأجل الرجل». . . فإن القرآن الكريم قد قال: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُم مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنشَى بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥]. . . فالذكور والإناث جميعاً من نفس واحدة. . .

وبعضهم من بعض.. ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُم إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾
 [النساء: ٢١] ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧].. ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ
 الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨].. وحتى [الدرجة] التى للرجال على
 النساء، فى الأسرة، وهى «القوامة»، فإنها زيادة فى المسئولية، وليست
 استبداداً.. فالقوَام هو دائم القيام.. وبعبارة الإمام محمد عبده [١٢٦٥-
 ١٣٢٣هـ ١٨٤٩هـ-١٩٠٥م] «فإن هذه القوامة تفرض على المرأة شيئاً وعلى
 الرجل أشياء»!.. ثم إن هذه «القوامة»، التى هى القيادة والرعاية، للمرأة فيها
 نصيب كبير يشير إليه الحديث النبوى «كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن
 رعيته.. الرجل راعٍ على أهل بيته، وهو مسئول عنهم، والمرأة راعية على بيت بعلها
 وولده، وهى مسئولة عنهم.. ألا فكلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته»- رواه
 البخارى ومسلم - وصدق رسول الله ﷺ: «النساء شقائق الرجال»- رواه
 الترمذى والدارمى وأبو داود-.. فهل مع اختلاف موقف موروثنا الدينى من
 المرأة عن موقف الموروث الغربى منها، يجوز لعاقل تبنى الدعوات الأنثوية
 الغربية، وإعلان الحرب على الإسلام؟!..

وبعد..

فهل هناك ظلم أشد من ذلك الظلم الذى رأيناه - فى ساحات الفكر وميادين الممارسة والتطبيق - من مشروع الهيمنة الغربية، على الإسلام.. وأمته.. وحضارته.. وعالمه؟..

لقد رأينا - بالأرقام.. والوثائق.. والوقائع - عبر فصول هذا الكتاب وصفحاته - وبشهادات الثقة من العلماء الغربيين المنصفين ، أيضاً .. رأينا:

* أن عدااء الغرب للإسلام، ليس مسئولية الإنسان الغربى.. وإنما هو مسئولية «الإمبريالية» الغربية، الطامعة فى ثروات عالم الإسلام ، والساعية - انطلاقاً من نزعة «المركزية».. والهيمنة» - إلى مسخ ونسخ الهوية المتميزة للإسلام وحضارته ..

* ورأينا سماحة الإسلام - غير المسبوقة ولا الملحوقه - فى رؤية الآخرين - كل الآخرين - . وفى التعامل معهم ، على النحو الذى جعل فيه الإسلام هؤلاء «الآخرين» جزءاً من «الذات»، لهم ما للمسلمين، وعليهم ما على المسلمين ، حتى يكونوا للمسلمين شركاء فيما لهم وفيما عليهم..

* ورأينا صورة الإسلام فى الخطاب الغربى - خطاب الهيمنة - وجذور العداء التاريخى القديم ، منذ اللحظات الأولى لظهور الإسلام ، وتحريره الشرق من هيمنة الرومان البيزنطيين.. حتى لقد لخص أحد القادة والكتّاب الغربيين هذه الحقيقة عندما قال : «إن تاريخ مشكلة الشرق الأوسط إنما يعود إلى القرن السابع للميلاد»!!..

ولقد رصدنا مظاهر ونظريات ومقولات هذا العداء فى مشاريع الهيمنة الغربية-السياسية..والدينية.. والحضارية.. والاقتصادية- تلك التى مارسها الغرب الاستعماري ضد الشرق الإسلامى عبر ذلك التاريخ الطويل..والتي لا يزال يمارسها حتى هذه الحظّات !..

* ورأينا قصة الحروب الدينية عبر تاريخ الأديان السماوية الثلاثة.. . والمواريث الحضارية لهذه الأديان.. . وكيف برئت كل تلك الديانات - اليهوديه.. . والنصرانية.. . والإسلام- من نزعات الحرب الدينية والقهر والإكراه.. . ثم، كيف سقط «التراث اليهودى»، و«تراث النصرانية الغربية» فى مستنقع الحروب الدينية، فكراً وتطبيقاً - عندما يسرت القوة الغاشمة هذا التطبيق.. . وفكراً عنصرياً لا إنسانياً عندما عزّ هذا التطبيق-!..

* ورأينا - فى قضية المرأة - التى هى نصف الإنسانية.. . وصناعة المستقبل فى كل الحضارات -كيف حرر الإسلام المرأة تحريراً حقيقياً ومتميزاً وغير مسبوق.. .ورددنا على الشبهات -الشهيرة- المثارة حول النموذج الإسلامى فى هذا التحرير.. .وهى الشبهات التى يزعم أصحابها- من أهل الغلو الدينى واللاديني-أن الإسلام قد جعل من المرأة «نصف إنسان»!..ولقد ظهر للعيان كذب هذا الادّعاء.. .

* كما رأينا ذلك «الجنون الفكرى والعملى» الذى ساد ويسود فى الغرب المعاصر.. .جنون النزعة الأنثوية الغربية، الرافضة للفطرة الإنسانية السوية.. . والثائرة على الله.. . والدين.. . والقيم والأخلاق.. . واللغة.. . والتاريخ.. . والأعراف.. . بل وعلى الأنوثة أيضاً!..

ذلك «الجنون الفكرى»،الذى أثمر الثمرات الاجتماعية والقيمية المرة،التي تهدد «بموت الغرب» -كحضارة- بعد أن أعلنت «حدائته» «وما بعد الحداثة» موت الله.. . والدين.. . والحقيقة.. . واللغة.. . والنص.. . والمؤلف.. . والمعنى والتاريخ.. . والإنسان- إلى آخر هذه السلسلة التى لا تنتهى من الوفيات!..

نعم . . . رأينا الصورة الحقيقية للإسلام-الدين . . والحضارة . . والتاريخ .
ورأينا موقف مشروع الهيمنة الغربى من الإسلام . . ومدى الظلم الذى افتراه
وأوقعه الغرب الإمبريالى بالإسلام . . وأتمته . . وبالشرق الإسلامى . . بل
وبالإنسان الغربى أيضاً ، عندما ضلله الإعلام الغربى- بثقافة الكراهية السوداء-
عن حقيقة الإسلام . .

رأينا كل ذلك ، عبر فصول هذا الكتاب . .

وذلك وصولاً إلى مقصد : الاحتكام- بالمنطق - إلى عقل القارئ- فى
الغرب والشرق - . . وإلى «العدل» ، الذى هو أساس القيام والدوام
للحضارات . . والذى هو- قبل ذلك وبعده- فريضة إلهية وضرورة لإنسانية
الإنسان . . حتى لقد كتب الله ، سبحانه وتعالى ، هذا العدل على ذاته
العظمى ، عندما جعله صفة من صفات الكمال والجلال الإلهى ، واسماً من
أسمائه الحسنى . .

* وما على الذين تراودهم أية شكوك فى حقائق ومقاصد فصول هذا
الكتاب ، إلا أن يعيدوا النظر والتأمل مرة ثانية فى الحقائق التى بسطتها هذه
الفصول . .

فالحكمة ضالة المؤمن ، أئنّى وجدها فهو أحق الناس بها . .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، الذى نسأله أن يجعلنا من أهل
الحكمة وأهل الإيمان . . إنه - سبحانه وتعالى - خير مسئول ، وأكرم مجيب .

المصادر.. والمراجع

القرآن الكريم

- طبعة دار الكتاب المقدس - القاهرة سنة ١٩٧٠ م. العهد القديم
- طبعة دار الكتاب المقدس - القاهرة سنة ١٩٧٠ م. العهد الجديد
- طبعة القاهرة - دار الشعب - القاهرة. صحيح البخارى
- طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥ م. صحيح مسلم
- طبعة القاهرة سنة ١٩٣٧ م. سنن الترمذى
- طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤ م. سنن النسائى
- طبعة القاهرة سنة ١٩٥٢ م. سنن أبى داود
- طبعة القاهرة سنة ١٩٧٢ م. سنن ابن ماجه
- طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ م. سنن الدارمى
- طبعة دار الشعب - القاهرة. الموطأ - للإمام مالك
- طبعة القاهرة سنة ١٣١٣ هـ. مسند الإمام أحمد

- آدم مترز : [الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى] ترجمة د. محمد عبدالهادى أبو ريدة. طبعة بيروت. سنة ١٩٦٧ م.
- ابن أبى الحديد : [شرح نهج البلاغة] تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. طبعة القاهرة. سنة ١٩٥٩ م.
- ابن رشد (أبو الوليد): [بداية المجتهد ونهاية المقتصد] طبعة القاهرة. سنة ١٩٧٤ م.
- ابن عبد البر : [الدرر فى اختصار المغازى والسير] تحقيق: د. شوقى ضيف. طبعة القاهرة. سنة ١٩٦٦ م.
- ابن عبدالحكم : [فتوح مصر وأخبارها] طبعة ليدن. سنة ١٩٢٠ م.

- ابن القيم : [الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية] تحقيق: د. جميل غازى. طبعة القاهرة. سنة ١٩٧٧م.
- [إعلام الموقعين] طبعة بيروت. سنة ١٩٧٣م
- ابن منظور : [لسان العرب] طبعة دار المعارف. القاهرة.
- أبو البقاء (الكفوى): [الكليات] تحقيق: د. عدنان درويش، محمد المصرى. طبعة دمشق. سنة ١٩٨٢م.
- أرنولد (سير. توماس): [الدعوة إلى الإسلام] ترجمة: د. حسن إبراهيم حسن، د. عبدالمجيد عابدين، إسماعيل النحراوى. طبعة القاهرة. سنة ١٩٧٠م.
- إسرائيل شاحاك : [الديانة اليهودية وموقفها من غير اليهود] ترجمة: حسن خضر. طبعة القاهرة. سنة ١٩٩٤م.
- الأفغانى (جمال الدين): [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. طبعة القاهرة. سنة ١٩٦٨م.
- الأمم المتحدة : [تقرير التنمية البشرية لسنة ١٩٨٨م] - البرنامج الإنمائى للأمم المتحدة.
- الباقلانى : [التمهيد فى الرد على الملحدة والمعتلة والرافضة والخوارج والمعتزلة] تحقيق: محمود محمد الخضرى، د. محمد عبدالهادهى أبو ريدة. طبعة القاهرة. سنة ١٩٤٧م.
- بطرس البستاني : [دائرة المعارف] طبعة القاهرة - الأولى.
- البلاذرى : [فتوح البلدان] تحقيق: د. صلاح الدين المنجد. طبعة القاهرة. سنة ١٩٥٦م.
- د. توفيق الطويل : [قصة الاضطهاد الدينى فى المسيحية والإسلام] طبعة القاهرة. سنة ١٩٩١م.
- ثابت عيد- مترجم-: [تقييمات غربية لأسلوب القرآن]- طبعة خاصة - .

- د. چاك تاجر : [أقباط ومسلمون منذ الفتح العربى إلى سنة ١٩٢٢م]
طبعة مصورة - مدينة چرسى - أمريكا - سنة ١٩٨٤م.
- الجبرتى : [عجائب الآثار فى التراجم والأخبار] تحقيق: حسن
محمد جوهر، عمر الدسوقى، السيد إبراهيم سالم.
طبعة القاهرة. سنة ١٩٦٥م.
- جوتفرايد كونزلن : [مأزق المسيحية والعلمانية فى أوروبا] دراسة وتعليق:
د. محمد عمارة. طبعة القاهرة. سنة ١٩٩٩م.
- جورج قرم : [تعدد الأديان ونظم الحكم: دراسة سوسيولوجية مقارنة]
طبعة بيروت. سنة ١٩٧٥م.
- الراغب الأصفهاني: [مفردات غريب القرآن] طبعة القاهرة. سنة ١٩٩١م.
- زالمان شازار - محرر-: [تاريخ نقد العهد القديم من أقدم العصور حتى العصر
الحديث] ترجمة: أحمد محمد هويدى. مراجعة: د.
محمد خليفة حسن. طبعة القاهرة. سنة ٢٠٠٠م.
- د. سعد الدين إبراهيم: [الملل والنحل والأعراق] طبعة القاهرة. سنة ١٩٩٠م.
- د. صبرى أبوالخير سليم: [تاريخ مصر فى العصر البيزنطى] طبعة القاهرة.
سنة ٢٠٠٠م.
- د. صلاح سلطان : [ميراث المرأة وقضية المساواة] طبعة القاهرة. سنة ١٩٩٩م.
- الطهطاوى (رفاعة رافع): [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة طبعة
بيروت. سنة ١٩٨١م.
- د. عبدالوهاب المسيرى: [موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية] طبعة القاهرة.
سنة ١٩٩٩م.
- عواطف عبدالماجد: [رؤية تأصيلية لاتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز
ضد المرأة] طبعة السودان - مركز دراسات المرأة - سنة
١٩٩٩م.

- الغزالي (أبو حامد): [فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة] طبعة القاهرة. سنة ١٩٠٧ م.
- : [الاقتصاد فى الاعتقاد] طبعة مكتبة صبيح - القاهرة - بدون تاريخ.
- د. فؤاد حسين على: [التوراة: عرض وتحليل] طبعة القاهرة. سنة ١٩٤٦ م.
- فيليب فارج، [المسيحيون واليهود فى التاريخ الإسلامى العربى والتركى] يوسف كرياج : ترجمة: بشير السباعى. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٤ م.
- لوثرروب استودارد: [حاضر العالم الإسلامى] تعليقات: شبيب أرسلان. ترجمة: عجاج نويهض. طبعة بيروت. سنة ١٣٩١ هـ ١٩٧١ م.
- مؤتمر كولورادو : [التنصير: خطة لغزو العالم الإسلامى] طبعة مالطا. سنة ١٩٩١ م.
- الماوردى : [الأحكام السلطانية] طبعة القاهرة. سنة ١٩٧٣ م.
- [أدب القاضى] طبعة بغداد. سنة ١٩٧١ م.
- مبثى أمين نادر : [أفكار الحركات الأنثوية الغربية]- رسالة ماجستير - جامعة الكردى أم درمان - تحت الطبع.
- مجمع اللغة العربية: [المعجم الفلسفى] طبعة القاهرة. سنة ١٩٧٩ م.
- : [معجم ألفاظ القرآن الكريم] طبعة القاهرة. سنة ١٩٧٠ م.
- د. محمد جلاء إدريس: [فلسفة الحرب فى الفكر الدينى الإسرائيلى] طبعة القاهرة. سنة ٢٠٠١ م.
- د. محمد حميد الله: [مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الحيدر آبادى - محقق الراشدة] - طبعة القاهرة. سنة ١٩٥٦ م.
- محمد السماك : [الأقليات بين العروبة والإسلام] طبعة بيروت. سنة ١٩٩١ م.
- محمد عبده - : [الأعمال الكاملة] دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة. (الأستاذ الإمام) طبعة القاهرة. سنة ١٩٩٣ م.

- د. محمد عمارة : [الإسلام والآخر] طبعة القاهرة. سنة ٢٠٠١ م.
- : [الغارة الجديدة على الإسلام] طبعة القاهرة. سنة ١٩٩٨ م.
- : [هل الإسلام هو الحل؟ لماذا وكيف؟] طبعة القاهرة. سنة ١٩٩٥ م.
- : [فى فقه المواجهة بين الغرب والإسلام] طبعة القاهرة. سنة ٢٠٠٣ م.
- : [التحرير الإسلامى للمرأة] طبعة القاهرة. سنة ٢٠٠٢ م.
- : [قاموس المصطلحات الاقتصادية فى الحضارة الإسلامية] طبعة القاهرة. سنة ١٩٩٣ م.
- محمد فؤاد: [المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم] طبعة دار الشعب عبدالباقي - القاهرة.
- محمد محمد سنعيد: [كتاب دليل السالك لمذهب الإمام مالك] طبعة القاهرة. سنة ١٩٢٣ م.
- محمود شلتوت : [الإسلام عقيدة وشريعة] طبعة القاهرة. سنة ١٩٨٠ م.
- [تفسير القرآن الكريم] طبعة القاهرة. سنة ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م
- المقريزى : [اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء] طبعة القاهرة. سنة ١٩٦٧ م.
- [الخطط] طبعة دار التحرير - القاهرة.
- [كتاب السلوك إلى دول الملوك] تحقيق: د. محمد مصطفى زيادة طبعة القاهرة. سنة ١٩٥٦ م.
- مكسيموس مونروند: [تاريخ الحروب المقدسة فى الشرق المدعوة حرب الصليب] ترجمة: مكسيموس مظلوم. طبعة أورشليم. سنة ١٨٦٥ م.
- مونتجمرى وات : [الإسلام والمسيحية فى العالم المعاصر] ترجمة: عبدالرحمن عبدالله الشيخ. طبعة مكتبة الأسرة. القاهرة.

- النقيوس - يوحنا [تاريخ مصر ليوحنا النقيوس] ترجمة ودراسة وتعليق: د. عمر صابر عبدالجليل. طبعة القاهرة. سنة ٢٠٠٠م.
- نيكسون- ريتشارد [الفرصة السانحة] ترجمة: أحمد صدقي مراد. طبعة القاهرة. سنة ١٩٩٢م.
- هوبرت هيركومر [صورة الإسلام فى التراث الغربى] ترجمة: ثابت عيد. طبعة القاهرة. سنة ١٩٩٩م.
- وزارة الأوقاف- الكويت [الموسوعة الفقهية] طبعة الكويت.
- ول ديورانت [قصة الحضارة] - المجلد ٦ ج٣، ٤. ترجمة: د. عبدالحمد يونس. طبعة القاهرة. سنة ١٩٧١، ١٩٧٢م.
- وينسك (أ. ى) [المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى الشريف] طبعة ليدن. سنة ١٩٣٦م - سنة ١٩٦٩م.
- [مفتاح كنوز السنة] ترجمة: محمد فؤاد عبدالباقي. طبعة لاهور. سنة ١٣٩١ هـ ١٩٧١م.

دوريات:

- | | |
|-----------------|--------------|
| آفاق عربية | - القاهرة. |
| الأسبوع | - القاهرة. |
| الأهرام | - القاهرة. |
| الحياة | - لندن. |
| الشرق الأوسط | - لندن. |
| العالم الإسلامى | - مكة. |
| العربى | - القاهرة. |
| نيوزويك | - الأمريكية. |
| نيويورك تايمز | - الأمريكية. |

الفهرس

الموضوع	الصفحة
تمهيد: العداء الغربى للإسلام . . لماذا؟!	٧
صورة الآخر فى السماحة الإسلامية	٢٧
صورة الإسلام فى خطاب الهيمنة الغربية	٥٥
- مقدمات ثلاث	٥٥
- التاريخ الصانع للصورة	٦٥
- وفى واقعنا المعاصر	٧٤
- بعد قارعة سبتمبر سنة ٢٠٠١	٨١
- والآن . . ما العمل؟!	٩١
الديانات السماوية والحروب الدينية	٩٩
١- وحدة الدين وتعدد الشرائع	٩٩
٢- منهاج الدعوة فى الشريعة الموسوية	١٠٠
٣- الحرب الدينية فى التراث اليهودى	١٠١
٤- القطيعة بين التراث اليهودى والشريعة الموسوية	١٠٦
٥- الحرب الدينية فى التاريخ اليهودى	١١٢
٦- منهاج الدعوة فى النصرانية	١١٩
٧- الحرب الدينية فى تراث النصرانية الغربية	١٢٠
٨- الإسلام والحرب الدينية	١٣٣

النموذج الإسلامى لتحرير المرأة	١٦٣
- خمس شبهات	١٧٦
- الشبهة الأولى: أن ميراث الأنثى نصف ميراث الذكر	١٧٨
- الشبهة الثانية: أن شهادة المرأة نصف شهادة الرجل	١٨١
- الشبهة الثالثة: أن النساء ناقصات عقل ودين	١٩٥
- الشبهة الرابعة: ما أفلح قوم ولوا أمرهم امرأة	٢٠٨
- الشبهة الخامسة: الرجال قوامون على النساء	٢١٧
- وبعد	٢٢٧
النموذج الغربى لتحرير المرأة	٢٣٥
١- بين التحرير من الظلم . . والتحرير من الفطرة	٢٣٥
٢- فرض الشذوذ الفكرى على العالم	٢٤٠
٣- تراث الغرب فى احتقار المرأة	٢٤٥
٤- الثمرات المرة للشذوذ الفكرى	٢٥١
٥- التقليد الأعمى لهذا الشذوذ الفكرى	٢٥٧
وبعد	٢٦٥
المصادر . . والمراجع	٢٦٩
الفهرس	٢٧٥

رقم الإيداع: ٢٠٠٣/٢٠٦٣٣

الترقيم الدولي: I.S.B.N. 977-09-1024-4

مطابع آمون

٤ الفيروز من ش إسماعيل أباطة
لاطوغلى - القاهرة - ج م ع
ت : ٧٩٤٤٥١٧ _ ٧٩٤٤٣٥٦

• لأن الاطماع لا تمشى عارية، دون غطاء من الأكاذيب.. فلقد ارتبطت اطماع الغرب في الشرق بالأكاذيب ضد الإسلام.. المقاوم لهذه الاطماع..!

• حدث ذلك في الحقبة الصليبية القديمة.. وفي الغزوة الامبريالية الحديثة.. ويحدث اليوم في الحملة الصليبية الجديدة التي يقودها اليمين الدينى الأمريكى والصهيونية/السيخية ضد الاسلام والمسلمين..

• ولأن الدراسة المقارنة - التي تكشف حقيقة الإسلام، وتهافت الدعاوى الغربية.. مستعينة بشهادات المنصفين من علماء الغرب هي السبيل الى:

- زيادة ايماننا بعدالة قضيتنا..

- ازالة غشاوات الأكاذيب عن عيون الشعوب الغربية..

- وفتح أبواب الحوار الثمر مع كل الآخرين..

كانت فصول هذا الكتاب.. التي تكشف مواطن الخطأ.. ومواقع الصواب، في هذه العلاقة المتوترة دائما.. والدائمة أحيانا.. بين الغرب والإسلام.



Thanks to
assayyad@maktoob.com

To: www.al-mostafa.com